



23.4.2015

جمال محبوب

فى ساعة العلامات

ترجمة: راشدة رجب

مراجعة: يسرى إبراهيم



المركز القومي للترجمة



@ketab_n

2125



سلسلة
الإبداع
القصصى



في ساعة العلامات

(رواية)

@ketab_n

تأليف: جمال محجوب
ترجمة: راشدة رجب
مراجعة: يسرى إبراهيم



2013

**في ساعة العلامات
(رواية)**

المركز القومي للترجمة
تأسس في أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

إشراف: كاميليا صبحي

سلسلة الإبداع القصصي
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2125
- في ساعة العلامات
- جمال محجوب
- راشدة رجب
- يسرى إبراهيم
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2013

هذه ترجمة:

In the Hour of Signs

By: Jamal Mahjoub

Copyright © Jamal Mahjoub 1996

Arabic Translation © 2013, National Center for Translation

All Rights Reserved

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة

شارع الجبلية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Galabaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

محبوب، جمال .
فى ساعة العلامات (رواية) / تأليف: جمال محبوب،
ترجمة: راشدة رجب، مراجعة: يسرى إبراهيم
ط ١ - القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٣
٣٦٠ ص : ٢٠ سم
١ - القصص العربية.
٢ - علامات الساعة.
٣ - المهدي المنتظر.
(أ) إبراهيم، يسرى (مراجع).
(ب) رجب، راشدة (مترجمة).
(ج) العنوان

٨١٣

رقم الإيداع ٢٠١٢/٩١٩٠
الترقيم الدولى 3-100-216-977-978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

المحتويات

7 الجزء الأول : العلامات
87 الجزء الثاني: شايدكان
169 الجزء الثالث: الساعة
237 الجزء الرابع: الخليفة الجديد
291 الجزء الخامس: الردة
341 خاتمة
351 مسرد بالكلمات الغريبة

الجزء الأول

العلامات

مقدمة

فى المناسبات الكثيرة فى السنوات التالية، عندما كان يطلب من الخليفة عبد الله التاعيشى أن يصف الظروف التى قابل فيها لأول مرة الرجل المعروف بالمهدى فى المنطقة نفسها التى تم مطاردة التاعيشى وقتله بها فى نهاية الأمر، كان دائما يروى القصة ذاتها. وذلك على النحو التالى:

كان الغبار يهب بقوة فى السهل الجاف العظمى كورقة تلتف من العالم الخفى. رجل يسير وحيدا. فى المدن والقرى التى تتلوى خلفه على هيئة ذيل يمتد إلى الأراضى المنبسطة غربا حيث ولد، كانوا يظنون أنه غريب. فيحيونه بنوع من الشك والريبة التى ينظر بها لمرضى الجذام، وحاملى مرض الطاعون والرجال غليظى القلوب القادرين على قتل الأطفال الصغار. كانوا يجتنبونه، ويشتمونه ويلعنون أهله. يلقون عليه الحجارة وأى شىء يجدونه، أى شىء قد يدفعه ويساعد الريح على أن تأخذه - وتنفضه فى اتجاه الأفق الترابى.

الطرق التي قادته إلى هنا، الأصوات التي أخبرته أنه سيجد يوما
الإجابة التي يبحث عنها ما زالت تدور في رأسه. كلما تقدم زاد اقتناعه
أنها ليست مجرد رحلة بل هجرة من أنبل الهجرات. كان يتعقب الشوق
المضى اللامع الذي يحترق بداخله مثل لعنة. يوما ما سيأتى إلى النور؛
ليغسله من كل شيء يكرهه في شخصيته. يوما ما سينقذ.

عندما اقترب من مجموعة المنازل المنخفضة ذات الأسطح المستوية
شعر أن تعبها بدأ يختفى، شعر بأنه أصبح قريبا من غايته. يوما ما
سيندمون على إلقاءهم الحجارة، وعلى لعناتهم التي تسقط مثل مطر
قاس؛ لتغسله من أعماقه. فإله يتجلى فقط للنخبة المختارة. هو ليس
خطأهم، ولكن لا يجب أن يتلقى أى إنسان المعاملة التي تلقاها.

مات بغله. ولم يكن لديه ممتلكات تستحق الذكر. انقلبت أسرته
ضده. لن يعود حتى يجد ما يبحث عنه. سيضعونه في مكانة عالية
وينحنون احتراما له في دهشة - حتى والده. لم يجد سلواه في الكلمات،
فنظرا لأن عملية القراءة والكتابة لم تكن سهلة بالنسبة إليه فقد هجرها
كما لفظته بأسلوبها.

كانت القرية تكتسى بثياب الحداد حتى الغربان ذات الصدور
الرمادية كانت تنكس روعسها في خجل. لقد توفى الشيخ العظيم، وأخذ
من محن هذا العالم إلى معجزات العالم الآخر. وقد دعت هذه الوفاة
مساقرنا إلى رحلته، فقد وصلت إلى مسامعه أخبار بأنه تم اكتشاف

خليفة - رجل متميز جدا بكل المقاييس - كان الناس يتهايمون بأخبار أسفاره وخطبه في احترام، في كل مكان: في الأسواق بأسماء منسية، حول جنوات الأفران، وفي بطن الوديان الجافة. سمع عن هذا الرجل من الأعراب الذين يتسلون بالحديث عن المعجزات. سمع أن هذا الرجل، الذي يعمل والده في بناء المراكب والذي كانت تشع من عينيه التقوى والورع، كان يسير وبجانبه الملائكة. تتدفق منه الكلمات مثلما يتدفق اللبن من أطراف أصابعه.

قيل: إن هالة من الضوء تسبقه، وإنه في العالم أجمع شوهدت نجمة جديدة تحترق في السماء منذرة باقتراب النهاية. قالوا: إن الرسول بنفسه قد تحدث في حلم إلى هذا الرجل المتواضع، وعندما سمع عبد الله بذلك شعر بضربات قلبه تتسارع مثلما يشعر المرء عندما يتعرف على أخ بعد غياب سنوات طويلة. بدأ رحلته باحثًا عن هذا الرجل، يتلمس طريقه غير المنتظم سالكا أحيانا منعطفات خاطئة، وفي كل مكان يسأل عنه يحدق فيه الناس في صمت. ولكن ربما يجد هنا ما كان يبحث عنه لسنوات طويلة.

كانت القرية تبدو وكأنها مستغرقة في حلم، طبقات من الحرارة تستقر على الأرض منتصف اليوم وتجعل من الصعب على المرء أن يفكر بوضوح.

المرء الأولى التي رأى فيها الرجل كانت حقا مذهشة. كان جالسا

على الأرض فى مدخل الضريح غير المكتمل. كان يجلس هناك دون حراك لساعات طويلة. أمضى عبد الله يوما ونصف يشاهده فقط ساجدا هناك تحت الشمس الحارقة، وجهه إلى أسفل يتمم صلواته. أى شخص يود أن يدخل إلى المبنى عليه أن يسير فوق ظهره.

فى اليوم الثانى اقترب عبد الله أكثر. كان الرجل ساجدا فى الطين. يدها متسختان، ورائحة الأرض الرطبة مثل عبير الوحى. كان الرجل ضئيلا وضعيفا، رقبته لم تكن ممتلئة وبارزة العضلات كرقبة المصارع، ولكن طرية وطويلة، أشبه برقبة امرأة. شاهد عبد الله ابن بانى المراكب يعمل، يأخذ قوالب الطوب من حيث جفت تحت الشمس ويضعها بعناية، ينظمها بيديه، بانيا بمثابرة ضريحا من الحب والإخلاص لمعلمه الذى رحل. يا له من منظر يعكس مدى التواضع! التفانى الصادق مثل الماء البارد يسيل على جلد عبد الله بعد هذا الطريق الشاق الطويل المترب.

كان الرجل يتحرك بسهولة، دون خوف. لم يلتفت إلا مرة واحدة؛ ليبتسم. نعم لقد ابتسم بعينيه، بروحه، وظهرت العلامات: الشامة على الوجنة اليمنى والفلق بين الأسنان الأمامية. عبد الله صامت. اقترب أكثر، بأنين مكتوم لحيوان جريح. استدار الرجل ليووجهه، سقط عبد الله على ركبتيه والدموع تسيل على وجنتيه. مد الرجل يديه وأمسك بيدي عبد الله، وبقيها هكذا لبرهة، يمسك كل منهما معصم الآخر وكأنهما زوجان.

وجد نفسه يقول: "سيدي مكتوب في أحلامي أنك المنتظر". ابتسم الرجل الآخر الابتسامة التي عرفه بها الجميع ووثقوا به وأوماً برأسه قائلاً: فى بساطة: "نعم". ثم رفع الرجل يديه وأسقط من يعملون فى الضريح أدواتهم فى الزمال واقتربوا: رجال ویتامى، والفقراء والمتفانون، والنساء اللاتى يرتدين ملابس كملابس المتسولين. أتوا من كل الاتجاهات؛ ليتجمعوا حول الرجل ذى الشامة على الوجنة. فى هذه اللحظة شعر عبد الله أنه لم يكن مخطئاً، أنه أخيراً وجد مكانه الصحيح. هنا وجد الدواء لعذابه.

تحركت الشمس عابرة السماء بهدوء ودون جلبة، وغط العالم فى نوم عميق، غير مدرك ما حدث.

١- النيل الأبيض

١٢ أغسطس ١٨٨١

على سطح الباخرة المهتز، تحت مظلة شراع بلون الشمس فى ضعفها وبراءة أوقات بعد الظهيرة الكئيبة، جلس محمد أبو السعود بك تاجر العبيد الشهير ومساعد حاكم السودان على صندوق مقلوب كان يحمل من قبل البنادق والذخيرة فيما يعكس وظيفته القيادية. هناك منضدة صغيرة تميل إلى أحد الجوانب ومقعد وثير منهار فى تعب فى أحد الأركان. يتدلى علم الخديوى الأحمر ذو الهلال الذهبى، شعار الدولة العثمانية، من مؤخرة السفينة، لا تزعجه سوى الهبات الخفيفة للريح التى تزحف نحو أسوار السفينة لتوفر لحظات خاطفة من الراحة من الحرارة الخائقة.

عينا سعود تاكلانه. الهواء ثقيل ونور رائحة كريهة وعادت ساقاه تؤلمانه. حاول أن يتجاهل أزيز الحشرات وصوت الرجال أسفل يصيحون بعضهم فى بعض. اتجه بعينه إلى منتصف مظلة الشراع الممتدة حيث تحلق مجموعة من الحشرات فى الحرارة، تتساقط وتنقر بعضها بعضا بشراسة. صوت نعيبها المتواصل يعلو وينخفض عندما تنقض مجموعات جديدة من الأشجار عبر شاطئ النهر. مرت ثلاث ساعات الآن، والباخرة الصغيرة متوقفة وبدأت الحيوانات التى تقات القمامة تفقد صبرها.

مال سطح الباخرة المهتز فجأة ناحية أحد الجوانب عندما رفع سعود رأسه من بين يديه وصرخ طالبا النجدة. جاء جندي طويل القامة يفتقد جسده اللياقة فى ملبسه الرسمية راكضا على السلالم الضيقة التى تصل بين السطح الرئيسى للباخرة والجسر، طربوشه المترب يميل فوق رأسه. انتزع سعود البندقية وقد نفذ صبره من بين يدى الجندى المرتبك وأطلق عدة رصاصات متحملا بالكاد مشقة التصويب. رفرفت الطيور مطلقة صرخة واحدة انعكس صداها عبر الماء المتموج. هنا أسقطت الأجنحة المرفرفة ريشها الباهت فوق رأس الجندى الذى لم تطرف له عين. أخذ البندقية التى ألقاها إليه المصرى بضيق وتراجع إلى الوراء هابطا السلم بهدوء ودون أن ينبس ببنت شفة.

مئات الأشعة من ضوء بعد الظهيرة المترب سطعت من خلال ثقوب ظل الشراع المتعب. طائر جريح ما زال يكافح ليدرك لماذا لا تؤدى أجنحته وظيفتها، مما يجعل الشراع يرتعش متمشجا. تجاهل أبو السعود الأمر لاعنا. وأسرع الخطو إلى جانب المركب. مال المركب فجأة فأمسك بالسور الحديدى.

إلى أسفل، مجموعة من الجنود يشقون طريقهم فى الماء مطلقين رشاشا ويضحكون محاولين شد المركب التى غرزت فى الضفة الرملية. حينئذ انطلقت صيحة وبدأ الرجال الذين يقفون عند سور المركب إطلاق النار فى الماء. تحرك شبح مغطى بالطين تحت السطح واختفى. كان الجنود يتسلقون الأحبال ويتجهون من الخلف إلى داخل السفينة. اشتد الضحك وصيحات الرعب الزائف أثناء سقوطهم على سطح المركب وهم

يلهثون. استدار سعود وهز رأسه فى يأس. واستقرت عيناه على التربة الخصبه لضفة النهر. لماذا اختاره الله لهذه المهمة بالذات؟ الحاكم العام، بكل حكمته، لم يكن يدرك شيئاً عما يدور هنا. لو كانت الأمور قد تركت لرؤف باشا، ما حدث شىء. أعلن بأسلوبه الذى يشبه أسلوب مرضى الربو متفحفاً أظافر يده "متعصب واحد لا يقوم بثورة يا عزيزى". حاول سعود أن يطبع فى ذهن رئيسه خطورة الموقف. فلدیه على الأقل تجربة فى التعامل مع نماذج من البشر صعبة المراس منذ أيام عمله فى الجنوب بمعسكر العبيد فى جوندكورو على سبيل المثال. وكانت أولى القواعد ألا تظهر أى علامة على الضعف. ولا يستطيع المرء أن يقسو بشدة على هؤلاء الناس. ونتيجة لهذه التجربة لم يدهشه أن يعلم أن هذه الجزيرة غير المتميزة أصبحت مأوى للمعارضين والمنشقين. فوجود رجل غريب هناك أمر معروف منذ سنوات. كان المراكبية والصيادون وحتى الجنود فى سفنهم المتعددة التى تتجه صوب الجنوب يقفون فجأة رافعين أيديهم نحو وجوههم ويدعون احتراماً لرجل الدين التقى الذى يقطن الجزيرة.

ولكن وجه الحاكم العام تجعد فى نفور بينما سعود يؤكد وجهة نظره، فتنهد سعود قائلاً: إنهم إذا لم يقبضوا على الرجل فى الحال، ويجبرونه على الذهاب إلى الخرطوم ليبرر سلوكه لعلماء الدين، سيشرحون الآخرين بذلك على تحدى سلطة الخديوى.

"نعم، نعم ولكن ماذا فعل المغفل المسكين أكثر من الوعظ والإدلاء بالتصريحات السخيفة؟ لقد أخبرتني بنفسك بأنه محاط بالعبيد الهاربين

واللصوص، مجموعة من أخط أنواع البشر. لا يمكنك أن تقوم بثورة بمجموعة من الشحاذين والمومسات".

فى ركن الحجرة الخاصة الكبيرة، غمغم السكرتير الأرمينى لنفسه ضاحكا، مستمتعا باللحظة بشكل واضح. وعندما حدقه أبو السعود بنظرة قاسية، أسقط هذا الضبع عينيه على الأوراق التى كان يتظاهر بفحصها، ولكن الحاكم كان رقيقا مع الحاضرين. "الرجل بالتأكيد مجنون، حيث يدعى أنه حاكم هذا البلد، إلا إذا كنت قد تحولت دون أن أدرى إلى شيخ يرتدى الأسمال البالية". رفع يديه بحركة مسرحية دارسا الاحتمالات قبل وضع الخطة. الأرمينى يطن فى الركن. "إذا كنت مهتما إلى هذا الحد" أكمل الحاكم العام: "أقترح أن تتولى مسئولية الأمر. خذ ما شئت من الجنود واحضر هذا المجنون إلى هنا". وبإشارة من يده أذن لسعود بالانصراف. ولهذا فإذا كان اللوم يقع على أحد فى ورطته الآن، فعلى نفسه. ومع ذلك، وهنا شعر سعود بنشوة الرضا، فإن الخديوى بنفسه قد يرقيه مكافأة له على مجهوداته، ثم يتم استدعاء روف باشا إلى القاهرة ذليلا. استدار سعود ليجد الرائد المساعد يقف أمامه. هذا، كما يتذكر، هو الغبى ذو الشارب. كانت هناك فصيلتان على سطح السفينة "الإسماعيلية". سعود يستطيع فقط أن يتذكر أن البمباشى الأول طويل والآخر قصير، أحدهما بطيء التفكير والآخر عنيد. سحب نفسا عميقا ببطء عندما لاحظ أن الضابط لم يعبأ أن يحييه متذكرا الغطرسة التى لمحها فى عيني الجندى فى وقت سابق. لقد توقف عمله اليوم بين استيلاء الجنود وهذيان المجانين.

”نعم؟“

قال الضابط لسعود: ”سيدي أنا قلق بشأن الرجال“.

فسأله سعود دون أن يحاول إخفاء غضبه ”الرجال؟ ماذا بهم؟“.

فأجابه الضابط قائلاً: ”مع كل هذا العمل الشاق لرفع المركب الغازي. لن يكونوا في أفضل حالاتهم للهجوم هذه الليلة“ وأضاف الضابط مكفهما: ”إذا“ ، وأضاف الضابط بكآبة، ”استطعنا الوصول إلى جزيرة أبا اليوم يا سيدي“.

أخذ سعود يذرع سطح الباخرة جيئة وذهابا قابضا يديه بإحكام خلف ظهره متسائلا ”هل تقترح أن يحصل رجالك على فترة راحة قصيرة لاستعادة نشاطهم مثلا؟“.

”حسنا“ هز الضابط ذو الشارب كتفيه مستهجنا وقال: ”أقصد أن ندرس تأجيل الهجوم إلى الغد“.

جلس سعود بكل ثقله على صندوق الذخيرة وأمال مرفقيه على المنضدة. وقال: ”أعتقد أننا اتفقنا أن الهجوم ليلا هو الأفضل. ولا أحتاج بالطبع أن أذكّر رجلا عسكريا مثلك بالمزايا الإستراتيجية؟“ رفع عينيه : كان اليمباشي يحملق في سطح السفينة، أخذ سعود نفسا عميقا، وقال: ”بالطبع يسرنا أن يأخذ جنودك راحة لليلة واحدة. إنهم تحت قيادتك. ولكني سأطلب من الآخرين أن يذهبوا إلى الشاطئ وحدهم“.

حسم الأمر. بطبيعة الحال فإن الضابط لم يكن يسمح أن تسبق الفصيلة الأخرى رجاله نحو الصدارة. ابتسم سعود لنفسه: وجود

قائدين متنافسين على سفينة واحدة يعد بأفضل النتائج. هنا نفسه على عبقريته وعاد ليتفحص أظافره ويفكر في فتاة سورية امتلكها مؤخرا: بيضاء وصغيرة جدا. فالحياة ليست كلها عمل شاق، كان يتأمل وهو ينظر إلى يديه متذكرا ما بينهما وبين نهدبها الصغبرين المفعمين بالحياة من انسجام وتوافق.

تدافعت السحب الكثيفة فى السماء عندما هبط الليل. التصقت "الإسماعيلية" بالأوراق المتدلّية التى تنحنى خلف النخيل الشوكى السامق عندما تدفق النهر وأحدث خريرا وأزبد حول بدنّها الواهن. سقط المطر بغزارة غامرا الجنود المتجهمين الذين يقفون فى مقدمة الباخرة قابضين على أسلحتهم ومحملقين فى سطح الجزيرة الذى تغطيه الغابات.

كل شىء ساكن وثابت ما عدا المطر: لا توجد نسمة ربح واحدة، فقط السحاب الذى يبدو وكأنه يضغط بقوة تجعل رأس المرء تؤلمه. رسوا فى قمة الشمال الغربى للجزيرة الصغيرة. نزل الرجال من السفينة إلى الضفة وعبروا إلى الشاطئ، يحملون البنادق على رؤسهم. انقسموا واختفوا بعيدا عن النظر. يغطيهم الليل وستار من المطر الخفيف الدافئ.

من مقدمة "الإسماعيلية"، يراقب أبو السعود أية إشارات من الجزيرة. كان يفكر فى المرة الأخيرة التى رسى فيها هنا. صراخ البركيت (*) parakeet الموحش يبدو حزينا من بعيد.

(*) البركيت: نوع من أنواع الببغاء، صغير وهزيل (المراجع).

منذ خمسة أيام كان يشاهد هذا المنظر ذاته. وصل حينذاك مع حفنة صغيرة فقط من الرجال لحراسته. شقوا طريقهم إلى الجزيرة في موكب منتظم، دون أن يحاولوا التخفي. وبينما كانوا يسيرون عبر الطريق المؤدى من شاطئ النهر إلى مجموعة صغيرة من الأكواخ، اندهشوا عندما لاحظوا الفلاحين في الحقول يوقفون معازقهم في وضع مائل وينتصبون لمراقبتهم، ثم دون أن ينبسوا بكلمة يأتون مسرعين من الحقول مندفعين في مجموعات من ثلاثة أو أربعة أفراد إلى الطريق خلفهم. علق أحد الجنود على هذا الأمر.

فأجابه سعود: "لا تلتفت إليهم إنهم مجرد مجموعة من الماعز الشغوف يريدون أن يعرفوا ماذا يحدث، هذا كل ما فى الأمر".

استطاع خبير وصولهم أن يسبقهم بطريقة ما، ولذلك كانت القرية تنتظرهم عندما وصلوا إليها. تجمع حشد من الناس حول كوخ صغير من القش، يوجد خارجه عنجريب angareeb منخفض سيء الصنع. على هذا السرير السعفى كان يجلس رجل، وقف عندما رأهم يقتربون. رجل بسيط جدا ربما أطول من المعتاد رغم أنه كان منحنيا قليلا مما يجعل من الصعب الحكم عليه. لديه وجه لطيف مشرق لا يشوهه سوى شامة سوداء على وجنته اليمنى. يبدو مبتسما طوال الوقت كاشفا عن فلق بين أسنانه الأمامية. وجد سعود هذا الأمر يزيد ضيقه مع مرور الوقت.

سأله: "هل أنت محمد أحمد؟".

هز الرجل رأسه بالإيجاب وهو ما زال مبتسما.

”هل أنت الرجل الذى يدعو الناس إلى تحدى سلطة الحاكم العام؟
ابتسم الرجل مرة أخرى. وأجاب بهدوء: ” لقد قلت الحقيقة فقط كما
أوحيت إلي“.

مسح سعود جبينه بربطة عنقه الكبيرة وألقى نظرة على الحشد،
الذى يبدو الآن مجموعة من الغوغاء القذرين. ما زالوا يقبضون على
معازقهم وفئوسهم وعصيان الرعاة. الفقراء الجهلاء الذين ليس لديهم ما
يخسرونه: ما توقعه تماما، رغم أنه لم يتوقع أن يكون عددهم ضخما إلى
هذا الحد. من أين أتوا؟ ما الذى جذبهم إلى هنا؟ هذا الرجل الذى تشبه
نظرته نظرة الماعز الحزين؟ هناك الأطفال المعاقون والسيدات المكومات
والمجنومون الذين ليس لديهم أصابع وكبار السن من الرجال بشعرهم
الأشيب وأيديهم المرتعشة. ”كم منكم مطلوب القبض عليه من قبل
السلطات؟“ سألهم سعود رافعا صوته واستدار ليتفحصهم بعناية. كانت
هناك بعض حركات الأرجل، ولكن لم يجب أحد.

تحدث ابن بانى المراكب الآن مشيرا إلى أتباعه. ”هؤلاء الناس
فلاحون شرفاء. لم يقترفوا شيئا تعاقبونهم عليه: أنتم الذين تطلقون على
أنفسكم اسم السلطات“. أشار بيده إشارة تدل على العقل قائلا: ”لا
سلطة هنا أعلى من سلطة الله. ولا حتى أنتم بكل جنود العالم وأسلحته
تستطيعون القضاء على كلمة الله“.

تنهد سعود قائلا: ”لا إله إلا الله. كلنا نؤمن بإله واحد“.

ولكن محمد أحمد هز رأسه بحكمة. ”هجر كثيرون المعنى الحقيقى
لرسالة الإسلام كما تعلم. والناس الذين تمثلهم تخلوا عن وقارهم

وحرفوا معنى كلمة "الإسلام". أنتم تشربون الخمر وتدخنون التبغ. لقد أغوتكم الحياة الدنيا".

فتح يديه مشيرا إلى الحشد محتكما إليهم. أشار إلى بدلة سعود وطربوشه قائلا: "ترتدون ثياب الأوروبيين الملحدين. ونحن نرتدى ملابس بلادنا البسيطة".

انفجر سعود غضبا وقال: "من تظنون أنفسكم؟ عودوا إلى حقوقكم وماعزكم" صاح مخاطبا الوجوه التي لا يبدو عليها انفعال. لم يتحرك أحد منهم.

اتسعت عينا الرجل المبتسم وقال: "إنهم لا يخافون تهديداتك؛ لأن الرسول تحدث إليّ ومن خلالي إليهم. إنهم يعلمون من أنا".

سأله سعود وهو يتقدم خطوة إلى الأمام: "ومن أنت؟". سحب الحشد المتفاني أنفاسه، وحرك أكتافه بقوة وهو يمر بموجة من التوتر.

بدا النبي الهادئ مدافعا، قال ببساطة: "أنا الدليل على اقتراب الساعة. "سوف أقود المتفانين في الكفاح المسلح، الحرب ضد فساد السلطة والإيمان الذي تمثله أنت وكل الأتراك. وسنتتصر. لقد جاعني الرسول بنفسه في حلم".

جاء الدور على سعود ليضحك "أنت ما زلت تحلم. أنا هنا لأخذك إلى الخرطوم؛ لتقدم نفسك إلى أعضاء مجلس العلماء المثقفين، دعهم يقررون إذا كان ما تقوله جزءا من إرادة الله". أخذ خطوة أخرى إلى الأمام مشيرا إلى الجنود بالتحرك. ظل محمد أحمد ثابتا. الرجل الذي

يقف بجانبه، ضئيل وفض وتمرز وجهه نديبب مرض الجدرى، أنزل يده لئسئقر على سيف فى غمده آحآ ذراعه الأيسر، آلالآآ الشمس فوق النصل نصف المسلول.

نظر محمد أحمآ إلى الجنود بحذر، مراقبا أعينهم. وأجاب بصوت خفيض: "إن أكثر علمائكم ثقافة لا يعلمون شيئا عن الإيمان الحقيقى". "فإدراكهم يقوم على الدراسة الأكاديمية فلم يروا قط نور الله(*)، أو يسمعون كلمات الرسول مثمما آآ لى". آوقف عن الكلام ومد يده إلى رفيقه الذى آرك السيف مرة أخرى فى مكممه. "آبرهم أنهم لو آآوا ليعلنوا ولاهم لى لن يخشوا العواقب. فالله روف رحيم، إذا كانت قلوبهم صادقة الولاء فلن يخشوا يوم الميعاد. ذكرهم أنهم سيقفون للحساب بين يدي الله مثل كل البشر".

نظر سعود حوله بإمعان. ثم اسآآار إلى الحاضرين قائملا: "اسآمعوا لى. ما يقوله هراء، والأكثر من ذلك أنه هراء آطر. سوف يقوآكم، ليس إلى المآآ، بل إلى السجن معه. إذا كان هو الشخص الذى يآعبه لماذا لم يعلن أى عالم آين فى البلاد مآبينه؟ لماذا يطلب الله من المسلم أن يحارب آاه المسلم؟". لم يجد اسآجابة لنآائه. سحب نفسا

(*) هذا الكلام يعبر عن رأى الصوفية، إذ يعتقدون أن المعرفة الحقيقية لا آآى عن طريق الحس أو العقل، ولكنها آآى عن طريق نور يقذفه الله فى القلب، وآسمى هذه المعرفة بالمعرفة القلبية أو الذوقية، ولا بد لى آصل إليها أن آآنوقها بنفسك، فهى مثل العسل لا آسآطيع معرفة حلاوته إلا إذا آآنوقته بلسانك؛ أى أنها معرفة آاصة لا يمكن وصفها أو نقلها إلى الآخرين ما دام الحس والعقل غريبين عنها (المراجع).

عميقا وقال: "هناك قانون واحد فى هذا البلد وهو قانون الحاكم العام والخديوى الذى يحكم هذه البلاد". اختفت نبرة السلطة من صوته. "ليس لهذا علاقة بالدين". مد يده نحوهم وابتسم قائلا: "هذه ليست نهاية العالم".

وبينما استدار ليغادر المكان تعلقت عيناه بوجه مألوف فى الحشد: رجل عجوز ضئيل زاو زائغ العينين. ناداه "واد عواد". "لقد خدمتني جيدا فى الماضى فى الجنوب. ماذا تفعل هنا مع هذا المجنون؟ ألا تدرك ماذا سيحدث؟ ستفقدون بيوتكم، وأرضكم وحريتكم. سيأتى الجنود ولن يحاولوا إقناعكم مثلما أفعل. أنت رجل عجوز، رجل حكيم، فكر فيما تفعله".

ولكن واد عواد العجوز هز رأسه هامسا "سعود بك، إنه يتحدث حديث الرسول نفسه. إنها إرادة الله". اضطربت نظراته القلقة واستقرت على الأرض.

"قليرحمك الله، قليرحمكم جميعا". هنا ترك سعود الجزيرة ترن فى أذنيه أصوات الضحك وهتافات الانتصار.

كان المصباح يهسهس لفترة طويلة بعد منتصف الليل. هناك طلقات نارية ليست كثيرة تأتى من بعيد. تتجمع كلها مثل صوت حيوان يسعل عن بعد، ثم سكون - سكون مريب. أطل سعود بك من سور السفينة على الشاطئ. كان البعوض يهاجم الآن حيث توقف المطر، السطح يعج بالبعوض فى الرطوبة الخائقة. نزع سعود بك المكان جيئة وذهابا لا

يطيق صبيرا لمعرفة الأخبار، حتى أعادته صرخة من بعيد إلى سور السفينة. صرخة أخرى. حدثته رجفة قلبه أنها صرخة رجل. تحرك بسرعة تجاه طاقم السفينة الذين احتشدوا معا يميلون متكئين على جانب السفينة وهم ينظرون إلى الجزيرة. سألهم سعود: "هل يستطيع أحدكم الرؤية".

أجابوا: "هل نحشو الأسلحة بالذخيرة يا سيدى؟".

رد بحدة متسائلا بون أن يرفع عينيه عن شريط قصب السكر وخط الشاطئ المنبسط: "على ماذا ستطلقون الرصاص؟".

"هناك" صاح أحد الجنود مشيرا بيده. لعن سعود عينيه. انضم إلى الأمر جندي آخر قائلا: "هناك شخص واحد آخر". خمسة أو ستة وربما اثنا عشر رجلا ظهروا مندفعين من خط قصب السكر الطويل. "إنهم مصابون انظر إنهم يحملون هذا الجندي".

"اثبتوا مكانكم"، أمرهم سعود بك وهو يشاهد الأشباح الآن تشق طريقها فى المياه الضحلة محدثة رشاشا. "تمساح!" انطلقت صيحة من مقدمة السفينة. حشا الجنود بنادقهم وبدعوا يحاولون التصويب على دوامات المياه الطويلة التى تشبه السهم.

"اطلقوا النار فى الهواء!" كان كل شىء غامضا. إلى أن روى القصة صوت صرخات من الماء. نجح أحدهم فى الوصول إلى السفينة. امتدت الأيدي على جانب السفينة وجذبتة إلى سطحها. رقد على السطح، يلهث ويرتجف من الرعب الذى تبعته الراحة. احتشد الرجال

حواله، فى صمت من أثر الصدمة. الجندى جراحه غائرة، يختلط الدم والماء بشكل كئيب. فى وهج مصابيح الزيت الضعيفة، هز رأسه من جانب إلى آخر باكيا بطريقة هستيرية. "كانوا يختبئون فى الحقول حول القرية، فى الخنادق، مدفونين فى الأرض كالثعابين. اندفعت الطلقات من كل اتجاه وأدركنا بعد فوات الأوان أنهم رجالنا يطلقون علينا الرصاص" هز رأسه فى ذهول. "قتل عشرة رجال وجرح آخرون. تمهقنا لنسترد قوتنا ونقرر ما نفعل، عندما أخذونا على حين غرة." مرة أخرى توقف عن الكلام فجأة، وكأنه يجد من الصعب أن يفهم ما شاهده بنفسه. "لديهم فنوس، وحجارة وعصى ومناجل وهراوات. ضربوا الرجال حتى الموت وقطعوا رؤوسهم وهشموا جماجمهم إلى قطع صغيرة. رأيت البمباشى يموت".

لم يترك موت الضابط ذى الشارب أثرا يذكر على سعود. استنشق الهواء. "وأنت كيف استطعت الإفلات".

رفع الرجل بصره قائلا: "هرب القليل منا. لم يكن هناك حل آخر، الباقون ماتوا هناك". والتفت خلفه قائلا: "إنه مكان سيء".

"يجب أن أقتلك رهيا بالرصاص عقابا على جريمة الفرار" رد سعود بحدة مشمئزا، واستدار ليمشى ببطء فى اتجاه الدفة طالبا من الربان تغيير اتجاه المرساة. سيعودون مع اتجاه النهر إلى الخرطوم والحاكم العام. سمع همسات الرجال وهم يتحدثون عن اللعنات والتدخل الإلهي. شم رائحة الخرافات النتنة التى غطت السفينة الصغيرة كالضباب. بينما كان يقف قابضا على سور السفينة، كان الضوء يشير إلى الفجر. عض سعود بك شفثيه "الآن" تحدث إلى نفسه، "الآن هناك مشكلة".

٢ - الجزيرة

١٨٨٢

بعد مضى كل هذه السنوات، هناك قليلون تعرفوا على الشبح النحيف المنحنى الذى يهتز على البغل الهزيل ذى العمود الفقرى البارز. دخل الحيوان مثل كيس من العظام الواهنة إلى مدينة الجزيرة الصغيرة جنوبى الخرطوم والتي تقع بين منحنى النيلين الأبيض والأزرق. أرجله النحيفة كانت تصطدم بعضها ببعض حتى أصابتها ندبات الجروح وتورمت، سال الدم على جلده الرمادى وترك ذيلا رفيعا من النقاط على التراب.

لا أحد ممن كانوا يسمعونه يتحدث عندما كان فى قمة نفوذه، حينما كان اسمه يذكر بهدوء ووقار، رآه قادما. والحكام من الرجال الذين قد يتذكرون ذهنه المتقد ولسانه الحاد لا يراهم فى أى مكان. ولن يتعرف عليه أى شخص ممن عرفوه حينئذ فى هذه الحالة الرثة. وجناته الغائرة وعيناه الغائمة لا تشبه الثقة الجذابة التى كانت يوما تقترن باسمه. لا أحد من الذين كانوا يقدمون فتياتهم للزواج به، أو السيدات المتزوجات اللاتي كن يعرضن أنفسهن عليه عن جهل، كن ليلقين بأنفسهن تحت قدمى هذا الرجل المتكشف الآن. بالإضافة إلى أنه رفضهن جميعا وهذا صنع له أعداء؛ لأنه كم رجل يدعى أنه خذل هذا

العدد الكبير من البشر، ولأى سبب فعل ذلك سوى الغرور؟ لا يعيش الرجل دون صحبة امرأة، ولا حتى أنبل الشيوخ. ونظرا لأن القانون لا يمنع ذلك، فإن مثل هذا السلوك يرجع إلى التفاخر بالنفس، إلا إذا كان الرجل مجنوناً. لماذا؟ كان من الممكن أن يجادل المرء على أساس أخلاقي، أن مهمته أن يأوى هؤلاء النسوة بدلا من أن يتركهم فى عرض الطريق، أليس لديه قلب ينبض بالإحسان؟ ولكن الجدل الأخلاقي ليس مجالا يمكن أن يناقش فيه هذا الرجل الذى يمكن القول: إنه كرس حياته ^{*}بأكملها للمبادئ المثالية.

ومثل كثيرين اختاروا أن يشقوا طريقهم وفقا للمثل العليا بدلا من تقبل طبيعة العالم كما هى، فجأة شرد بعيدا جدا. بدأ يشك فى الأفكار ذاتها التى كان يفترض أنه يدافع عنها، أن يتحدث عن رسالة ثانية خفية فى القرآن. ولكن هذا كان فى الماضى، ومن سيشك أن هذا الشبح القدر الآن يضمم مثل تلك الأفكار المتميزة؟ إن مجرد فكرة مصافحته باليد تثير الاشمئزاز، أما فيما يتعلق بمشاركته الطعام فمن الأفضل للمرء أن يشارك بغلا على أن يشاركه.

سيندهش الفضوليون إذا علموا أن هذا الرجل الذى يبدو كالشبح الغامض كان الناس يتحدثون عنه بود واحترام فى أزوقة الأزهر الأسطورية فى القاهرة على سبيل المثال. حقا لقد كان ذكر اسمه هناك يؤدى إلى الابتسامات الحماسية ويثير حكاية بعد حكاية مشعلا وهج الجدل فى البلدان عبر البحر الأحمر وفى الأراضى المقدسة فى أقصى الشمال كالقدس وطرابلس وسميرنا وحلب والمدن التى زارها جميعا فى

سنوات المنفى الاختياري الذي فرضه على نفسه. وصلت شهرته كل مركز بعيد للعلم كالقسطنطينية. وسمعوا به في جبال فارس وسواحل المحيط الهندي الرطبة. ويتذكر التجار في أسواق البصرة والموصل خطبه، مثلما يتذكرها الرعاة الذين يستظلون ببساتين البرتقال في جبال الأطلس. يعدُّه الناس في هذه البلدان صديقا. ماذا سيقولون إذا رأوه الآن بثيابه الممزقة المتربة المنتقاة من أخشن أنواع الكتان، وقطعة من الخيش القذر تغطي رأسه الصلعاء لحمايتها من شمس منتصف النهار؟ كم منهم سيحولون أبصارهم عنه ويتفانون رؤيته؟ لم تكن هذه القرية تختلف عن غيرها. الأطفال الذين يخشون الأغراب يقذفونه بالحجارة وكرات روث الماعز. النساء يلعنونه ويسحبن الأطفال من طريقه. الرجال يتمايلون من الضحك والكلاب تتبع في أعقاب البغل المرتبك شبه الميت. تنصب اللعنات وصيحات السخرية على الرجل الذي طالما أسعد الملوك بدهائه وحكمته، مثلما كانت تتبع أثره المتعرج إلى الأمام وإلى الخلف عبر الطرقات والمسالك المتناثرة التي قادته إلى هنا، الأثر الذي إذا اقتفيناها من أعلى، فلن يدل إلا على كلمة المطارد، الذي لا يتذكر معظم السكان اسمه، بدا قادرا على أن يجد الطريق، خلال مجموعة الجدران والأكوخ الطينية والراكوبات المائلة وأكوخ القش، مارا بالدجاج الذابل والماعز الباحث عن الطعام، إلى وجهته. وصل أخيرا، تحيطه مجموعة من الحمقى والأطفال الذين يضحكون، أمام أكبر منازل القرية وأفضلها. طليت البوابة باللون الأخضر والحوائط بيضت بالطباشير. وهنا، بدلا من أى من المنازل المتواضعة التي كان يستطيع اختيارها، قرر هذا المسافر أن يتوقف. وبدافع من التعجب والشك وقف الحشد يشاهد الموقف. انزلق

من على عجز البغل وزلت قدمه، ساقاه أصابهما الحذر من طول فترة الركوب، على كومة كبيرة من التراب مثيرا ضحكات الحاضرين. أصدر صوتا يشبه زمجرة الكلب ثم وقف على قدميه متألما، نفخ الغبار عن ملابسه وسار في اتجاه الباب.

الخادم الذى أجاب الطريقة كان رجلا ضئيل الحجم نامى العضلات، تلمع عيناه بنظرة متفحصة. ينظر إلى الحشد بحذر ويتفحص الرجل الغريب بازدياء. "من أنت؟".

سأله المسافر "لقد جئت لزيارة الشيخ رحمن، يا أخى ألا يزال هذا منزله".

هن الخادم رأسه. وأجاب مؤكدا: "السيد غير موجود بالمنزل".

لا شيء على وجه الأرض يدفعه إلى أن يقدم عذرا يثير الشفقة إلى هذا الحد إلى أى إنسان.

"من فضلك استدعه". أصر الغريب: "لقد جئت من سفر طويل". كان يتحدث بأسلوب يقترب من العناد؛ وهو أسلوب كان يؤتى ثماره مع بعض معارفه القدامى، ولكن هذا الخادم كان صغيرا جدا ليتذكره.

سوف أنتظره إذا لم يكن موجودا أكمل الغريب حديثه: "اعطني كوبا من الماء ومكانا أجلس فيه".

لوح الخادم بيده "أذهب للتسول فى السوق، الله كريم" يستطيع أيضا أن يصمم. بدأ يغلّق الباب ولكن الغريب تقدم إلى الأمام؛ ليضع قدمه فى الطريق حتى يمنع بقدمه ذلك. غمغم الحشد غاضبا.

"لقد طلبت كوبا من الماء" أوضح الغريب: "هل علمك سيدك أنه فقط من يرتدون الملابس الأنيقة سيذهبون إلى الجنة".

"أيها الرجل العجوز هل أنت أصم؟ لقد أخبرتك أن الشيخ غير موجود".

مسح المسافر العرق عن جبهته. خلف ظهره، شعر بالحشد يتزايد غضبه، وكأنهم يشكون أنه جاء لإثارة المشاكل. من الصعب أن نقول كيف تطورت الأمور؛ لأنه في هذه اللحظة صدر صوت أمر من الداخل وتنفس الحشد الصعداء. انفتح الباب الخشبي نصف المقفول قليلا ومع حفيف قماش القطن النظيف ظهر الشيخ بنفسه وبدوا كريم الطلعة هادئا واثقا بنفسه. وقف الرجلان وجها لوجه، كلاهما تغير بمرور السنين حتى ليصعب التعرف عليهما.

أحدهما رفيع المنزلة مطمئن والآخر متعب كقطعة خشب أتلفها مرور الزمن. ازداد تجعد جبهة الشيخ عمقا؛ لأن شيئا نشط ذاكرته.

سأله بعد دقيقة: "هل أنت متسول؟".

ولكن حينئذ صمت فجأة. انطلق حفيف الأشجار بفعل الريح. تراجع خطوة إلى الوراء "بحق الله! هل هذا أنت؟".

هاجم التعب والملل فجأة كتفى المسافر. والشمس تضغط على رأسه كالجمود. قدماه احترقتا من سخونة الرمال. لوهلة أخذ يتمايل إلى الأمام وإلى الخلف حتى تقدم الشيخ وعانقه. "حاوي، هل هذا أنت حقا؟" كرر السؤال وكأن الواقع أصابه بصدمة.

أوماً إلى الحشد بالانصراف "هيا ابتعدوا" نادى عليهم: "رأيتم ما تريدون، الآن اذهبوا لأعمالكم". أطاعوا الأمر على مضض، ولم يبق سوى شخص أبله يقفز وحيدا، رأسه تميل جانبا ولسانه يتدلى إلى أن أخذ طفل يده المترنحة وقاده بعيدا برفق.

دخل حاوى المنزل ويد الشيخ على كتفه. قال الشيخ: "من فضلك. من فضلك ادخل. بيتى هو بيتك". صفق بيديه وأصدر الأوامر لخادمه بإحضار هذا وذاك، الماء والمرطبات. أسرع الخادم الخطى ورأسه خفيض. كان الفناء هادئا، أخضر وظليلا. هز نسيم رقيق الأوراق أعلى شجرة النيم وهى الشجرة الكبيرة التى تعلو المنزل المنخفض المبنى بالطوب. قنينتا ماء من الفخار تستقران فى ظلها، جانبيهما ترشحان بالماء. تتكوم سجادة طويلة على الحائط، ودون ذلك فالفناء خال. مدخل المنزل مفتوح ومن خلاله يمكن أن يرى المرء مستطيلا من الضوء من فناء صغير فى خلفية المنزل حيث يباشر الطهارة والخدم أعمالهم. يطير الحمام عاليا من برج طينى فى جانب المنزل؛ ليستقر على السقف يهدل بعضه لبعض بطريقته المثيرة المتكررة.

أوضح رحمن بخنوع تذكره الرجل الآخر بقليل من الكراهية "الشيخ سليمان، يرحمه الله، كان يحب الحمام". العالم فى الخارج، الطريق الطويل الساخن انتهى، الآن نسى حاوى حتى لماذا قام بهذه الرحلة هنا أساسا، ولذلك عندما سأله الشيخ رحمن عرضا ماذا يفعل فى هذه المنطقة، أجاب بإشارة من يده: "أمر بها فقط". لم يسأله الشيخ عن الأمر أكثر من ذلك. وبدلا من ذلك، جلس كلاهما فى الشرفة المرتفعة تحت

الظل بينما أحضر الخادم أباريق عصير المشمش وسلطانيات البندق والتمر والعسل. أمر رحمن الخادم بإعداد الحمام المشوى لغدائهم. سال لعاب حاوى على ذكر الطعام. لأسابيع طويلة كان يعيش على فطائر الجوراسا gorassa المحلاة غير الطازجة والماء الفاتر، أو أى شىء يقدمه له الناس. كان متعبا ولديه ولع بالحمام المشوى. استبعد تحفظه وابتسم فى استسلام.

رفع الشيخ نفسه مستندا على ذراعيه. "إذن يا صديقى القديم ماذا كنت تفعل طوال تلك السنوات؟. لم يرك أو يسمع أخبارك أحد منذ وقت طويل. أين كنت؟".

ابتسم حاوى، وقضم ثمرة أخرى. وقال: "هذا التمر لذيذ فعلا وهو يمسك بالنواة ويلقيها خلف ظهره". كتم الشيخ غضبه بهزة من كتفيه. أدار حاوى رأسه حول الفناء بخجل. "هذا مكان جميل". هزة كتف أخرى. "الله كريم حقا. لقد ظللت مع الشيخ سليمان حتى توفى. كانت رغبته الأخيرة أن أقيم بمنزله بعد وفاته".

"فليرحمه الله".

"لقد كان رجلا صالحا". صمت رحمن دقيقة، محركا حبات السبحة فى يديه. "لم ينسك قط. أحيانا كان يقول،" لقد رأيت وجهها فى السوق اليوم ذكرنى فجأة بحاوى". حمق رحمن عاليا فوق الأشجار متذكرا أستاذهم العجوز. "قال مرة: إنه رآك فى حلمه فى مدينة كبيرة حيث الشوارع من الماء. ما أثار فضوله". ضحك الشيخ رحمن. "كان الأمر

محيرا؛ لأنه كما قال من بين كل الناس الذين عرفهم كنت الطفل الوحيد الذى لم يتعلم السباحة قط".

توقف حاوى عن المصغ متذكرا الرياح وهى تعصف بالمطر فى ساحة سان مارك فى فينيسيا. وكان رحمن يراقبه عن قرب بتركيز. "منذ متى غادرت؟ أربعة عشر، خمسة عشر، ستة عشر عاما. أوما حاوى بالموافقة. ستة عشر، شهر رجب عام ١٢٨٢ هجريا. ستة عشر عاما".

أوما الرجل الآخر ببطاء. أطل من الشرفة على جمال منزله الطبيعى. واستدار لضيفه مكررا سؤاله: "وبعد مرور كل هذا الوقت ما الذى جعلك تعود الآن؟".

وصل الخادم فى هذه اللحظة بالحمام على صينية.

طلب منه الشيخ رحمن أن يضعه على المنضدة ويذهب. أسرع الخادم مبتعدا وهو يغمغم لنفسه بكلمات عن الظلم كان رحمن ينتظر الإجابة. بدأت نبرة اللطف المصطنعة فى صوته تضعف مقارنة بسخطه المتصاعد. حاوى مشغول بفحص دقة صنع منضدة صغيرة بين الأريكتين اللتين يجلسان عليهما.

وقف الشيخ الذى لا يطيق صبرا ومشى الهوينى إلى طرف الشرفة ثم عاد. وقال: "لقد غادرت البلد فى خزى، كانت حياتك فى خطر. ولحسن حظك أنك نجوت بحياتك" هز رأسه "لم تأت هنا بعد مرور كل هذا الوقت فقط للزيارة". تنحج حاوى ونظر عاليا وهو يقول: "كنت فى القاهرة، وسمعت أن شيئا قد حدث. لا بد أنك تعرف، هذا الرجل الذى

يطلق على نفسه...المهدى(*)". أردت...". لم يكن لديه الوقت ليكمل ما كان يقوله لأن الشيخ رحمن انفجر ضاحكا من قلبه برنين خيب ظن حاوى.. ماذا؟ كرر سؤاله، ونظرة استنكار على وجهه. "أتيت من أجل هذا؟
"أنا..". استطرده حاوى مرتبكا. "أنا...". ثم أرخى كتفيه.

"حقا، عدت لتجد هذا الأحمق، المحتال، هذا السوقى النذل؟ صاح رحمن واقفا وملوحا بيده فى الهواء فوق رأسه. "كل هذه السنوات كنا نجلس ونتسأل ماذا حدث لصديقنا القديم؟ إذا كان لا يزال حيا؟" ذرع عالم الدين المكان جيئة وذهابا، وهو يحرك حبات السبحة بضيق بأصابعه. "لا خبر، لا خطاب أو رسالة قصيرة، لا شيء. وشيخنا المعلم، يرحمه الله، مات وهو يأمل أن تكون لديه فرصة واحدة أخرى؛ ليتحدث إلى تلميذه المفضل، أفضل تلميذ كان لديه على الإطلاق، الأكثر اجتهادا والأكثر نكاء، فقط فرصة واحدة. ولكن لم يكن أحد يعلم أين أنت والآن، تأتي لهذا؟".

(*) هو محمد أحمد بن عبد الله، ولد فى الثانى عشر من أغسطس عام ١٨٤٤ بجزيرة "لبب" بدنقلة بالسودان، وظل يعرف بهذا الاسم إلى أن جهر بدعوى المهديّة فى الثامنة والثلاثين من عمره فغير اسمه إلى محمد المهديّ.

وفكرة المهديّة باختصار مؤداها أن قلّه يرسل آخر الزمان رجلا يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا، ويقيم الدين حنيفا، ثم يأتى بعده الدجال، ثم يأتى عيسى بن مريم وتنتهى الدنيا. ويؤكد فى دعواه أن الرسول عليه الصلاة والسلام أمره بالهجرة إلى "ماسة" بجبل "قدير"، ويطلق على أتباعه اسم "الأنصار". وأخطر ما فى دعواه أنه ينسب إلى الرسول قوله بأن من شك فى مهديته فقد كفر بالله ورسوله، فهو إذن يجعل الإيمان بالمهديّة ركنا من أركان الإيمان فى الإسلام. (المراجع)

حدق حاوى فى الفضاء مشدوها، غير قادر على التفكير فى أى شىء ليقوله. خطأً رحمن نحو المنضدة ودفن بصينية الحمام بيده. "كل" قال وهو يأمره. "على الأقل تعطينا شرف أكل ما صنع خصيصاً لك".

لعق حاوى شفتيه ومد يديه. قضم اللحم الأسود. طعمه طيب. انتزع قطعة صغيرة منه بأسنانه واستمر يمضغ.

"ربما ارتكبت خطأً بالتوقف هنا لزيارتك" تجرأ بالحديث بعد مرور بعض الوقت.

"إنه أحق. قابلته مرة، وكذلك أنت، منذ سنوات".

فاجأت هذه المعلومة حاوى. فسأل بنبرة احترام جعلت رحمن يدير عينيه فى المكان يائسا "أنا قابلته؟". "أنا متأكد" واصل رحمن حديثه. "مستغرقاً فى أفكاره مثلما كنت سابقاً، ولكن". صمت ليفكر فيما يقول، "بدون حصافتك". تقابلت عيناها مع هذه الملحوظة وابتعدتا مرة أخرى. "جاء من دنقلة. كان والده بانى مراكب. هم ناس بسطاء، جهلاء. ما زالوا يدفنون بناتهم أحياء؛ لأنهم يريدون أولاداً".

"قالوا: إنهم هزموا الأتراك".

"مجموعة صغيرة من الجنود ضربهم الفلاحون حتى الموت بالهراوات، كما أنتى سمعت أن الجنود كانوا سكارى". هز رحمن رأسه. "ليس نصراً عسكرياً. يدعى أن الرسول أخبره بنفسه فى حلم أنه المهدي المنتظر وطلب منه أن يكون جيشاً من المخلصين ويطرد الأتراك".

"ولكن إن لم يكن هذا صحيحا، فإنه درب من دروب الخيال".

تتابع الشيخ: "سيدفع الثمن فى وقته".

"إذن تعتقد أنه دجال".

"إما دجال أو مجنون. إن الأمر يتطلب أكثر من قلة من الفلاحين بهراواتهم لهزيمة جيوش الخديوى المدربة. أين سيجد ما يكفى من الرجال والأسلحة؟ لا -". هز رحمن رأسه، "سيرسل الخديوى جيشا صغيرا وسيقطعون رأسه وتعود الأمور إلى طبيعتها".

عندما لم يعد لديه أى رغبة فى تناول حمامة أخرى، أوماً حاوى برأسه: " أنت لا تصدق أن لديه الحق إذن فى مقاومة الأتراك".

"كل ما أعرفه أن له تأثيرا سيئا على المدارس" نقر رحمن بأصابعه على صدره. "علينا جميعا".

"ولكن إذا كان ذلك صحيحا"، واصل حاوى " فسوف يبدأ عهدا جديدا من التقوى والنقاء فى الأرض يطهرها من الفساد والباطل، كما يقول فى بياناته. لا أحد يستطيع أن يقول: إن الضرائب عادلة، وإن الناس ليسوا فقراء، بالطبع؟".

لوح رحمن بيده مشجعا: " من فضلك لا تعطينى محاضرة فى الظلم، إنه أمر يثير الملل. لا يمكن أن يتساوى الجميع فى العالم. سوف ترى، سوف ينتهى الأمر إلى لا شىء".

بحث حاوى فى جيبه. "وجدت واحدة من هذه البيانات. إنها موجودة فى كل الأسواق. فمريدوه يعملون بجد".

جرى الشيخ رحمن بعينه على الورقة الصفراء المطبوعة للبيان ثم مزقها إربا. استمر حاوى فى المضع دون أن ينبس ببنت شفة. أمسك الشيخ الورقة المقطوعة. قال رحمن: "إذا قبض عليك الجنود ومعك هذه الورقة فسوف يشنقونك". وأضاف: "سأقع فى ورطة إذا وجدوا هذه الورقة معى".

"هناك دلالات معينة، علامات، سوف يميزها المرء إذا رآه وجها لوجه" ألح حاوى.

"لا" أجاب الشيخ بحدة رافضا الفكرة: "لا أحتاج إلى رؤيته. اسمع، لن آخذ منك دروسا بينما تأتى هائما على وجهك هنا كالكلب الضال بعد كل هذه السنوات".

"ولكنهم كانوا يستهزئون بالرسول فى البداية، كانوا يسمونه الدجال أيضا".

هز الشيخ رأسه قائلا: "لقد صدمتنى. أنت حقا لا تشعر بالخزى".

"هم أيضا رفضوا الاستماع" استمر حاوى فى حديثه.

"كفى!" صاح رحمن بعنف: "أعرف ما تريده وهذه هى الإجابة: لن أذهب معك. تريد أن تعرف الحقيقة إذن اذهب وابحث عن مهديك. اذهب إلى أبا وإلى جبال النوبة حيث يقود أتباعه بدرجة من الوقاحة جعلته يسمى رحلته هجرة، ويسمى أتباعه أنفسهم بالأنصار على اسم أتباع الرسول. يجب أن يشنقوا هذا الرجل كمرتد، كافر لإقدامه على مثل هذه الادعاءات، أنت تشبهه فى هذا الأمر على الأقل.

أذهب إليه مهما كلفك الأمر، ولكن أيا كان ما ستفعله لا تصدر حكما على قدراتي. لقد كان الشيخ سليمان، أسكنه الله فسيح جناته يعاملك أفضل من ابنه. لقد توفى وهو يأمل أن تكون لديه فرصة أخيرة: ليتحدث إليك، وأحبك رغم أنه لم يفهم مطلقا أسبابك لهجر تعاليم الدين سعيا وراء أوهامك. أعنى جميع أحاديثك عن المعانى الخفية فى القرآن(*) .

ارتجف رحمن وُلح حاوى مرة أخرى شخصية الرجل الذى كان يعرفه فى شبابه. " لم يغفر لك ذلك".

وقف حاوى وهو يلىو يديه المتشابكتين؛ لينظفهما. "لم أت إلى هنا لأجادك يا صديقى القديم. جنّت بحثا عن الحقيقة".

وأخيرا قال رحمن: "أنت صديقى ومرحبا بك دائما فى بيتى".

فقال حاوى: "شكرا لك".

كان رحمن يتفحصه بدقة. " أين تذهب من هنا؟".

"لست متأكدا، فكرت فى عباس".

تنهد رحمن. "إذا كان ما يزال حيا، فإذهب إليه مهما كلفك الأمر".

(*) وردت الجملة فى النص الأصيلى hidden meanings in the holy scriptures (المراجع) .

وضع يده على كتف حاوى ودله على الطريق. " ولكنك سوف تقضى الليلة هنا وعندما تصبح مستعدا للرحيل سنعطيك بغلا آخر. فالله يعلم، بفك أقل نفعا من سجادة". صمت يبتسم على المزحة التى ألقاها ثم أضاف: "ندعو الله أن يهديك". ثم هز كتفيه وكأنه يسقط شالا عنهما وأسرع يخطو خارجا مكان الراكوبة وهو يقول: "الآن حان وقت الصلاة".

٣- السهول الغربية

يوليو ١٨٨٢

شم أحدهم رائحة المطر. لقد هطل المطر بغزارة وكأنه ستار رمادي فوق الأرض. كان الهواء رطبا ودافئا. شبكة ملقاة على كل الأشجار ذات الفروع الرفيعة، نسيج عنكبوت ضخم جعل الفروع تميل إلى الداخل. وعبر أشجار السنط القزمية وأشجار الزعرور الشوكية وشجيرة المسكيت mesquite bush المنخفضة الكثيفة كانوا يأتون كخطوط أقلام تتحرك مثل الأشباح العارية. رائحة لحم ميت تسبقهم - رائحة تجعل الغزال يفر من محمياته، وتبقى الكلاب في أماكنها وتنزل الصقور من السماء؛ لتحط على الفروع المثنية لأشجار الدردار وتنتظر.

كانت الخيل طوال الليل منكسة رءوسها. قطرات المطر الأولى نزلت على هيئة فقاعات تنتفخ وتنفجر كالقروح. هي الساعة الفريدة بين بزوغ الفجر وبداية اليوم، و"كادارو" نائم وهو واقف. عندما انطلقت ضيحة التوقف، لم يكن هناك أى تقدم حقيقى على الإطلاق. إلى الأمام "جوما" و"هاب" مستفرقان فى خلاف، بعيدا جدا لدرجة أن أيا من الرجال لا يستطيع أن يسمع ما يقال، إلا أنهم ينظرون بتجهم وهم صامتون. "حتى البهائم التى خلقها الله عجماء لا تحبه" غمغم عبد التوم يوما

عندما رفس أحد بغال التحميل ساق جوما. إذا استل الرجلان حربتيهما
وهاجم أحدهما الآخر لن يتدخل الجنود لنعهما؛ لأنه من المؤكد سينتصر
وهاب.

حواقر الخيل تصلصل بعصبية على الغطاء الصخرى للهضبة.
الرجال يسيرون وهم نائمون كالأشباح، فهم يمضون لأكثر من شهرين
الآن دون راحة حقيقية.

جاءوا يجرون أذياهم، يتعثرون على بغالهم وجيادهم المرهقة
تصاحبهم صلصلة كصلصلة القدر والأوعية المعدنية. رجال يرتدون
أسمالا بالية وثيابا حقيرة. السرية التاسعة من الباش - بوزوك، فرسان
الحاكم العام غير النظاميين، مجموعة متعددة الأجناس لا تتكيف مع
المجتمع، ولم ينالهم من الازدراء مثلما ينالهم الآن. سلطة الخديوى
تضعف وكذلك سلطتهم. وأينما يذهبون يبصق عليهم. إنه عام المذنب.
حقول التبغ الصفراء جافة لدرجة أنه يمكن رؤية خيوط من الدخان تنبعث
منها فى حرارة منتصف النهار. سيقان ذابلة وهزيلة. يجمعون قرون
شجر السنط ويغلونها أياما طويلة قبل أن يأكلوها. حينما يأتون، دون
سابق إنذار، يحمل الناس أطفالهم ويجرون، تسحب النساء بناتهن إلى
الداخل بعيدا عن مرمى البصر، يقف الرجال فى صمت يستجمعون
قواهم. لقد كانوا جنودا غير نظاميين بالاسم وبالطبيعة. فى بعض
السنوات يأتون متأخرين، هذا العام أتوا مبكرين. فى كل قرية يصلون
إليها يتكرر الأمر نفسه. يجمعون الفلاحين؛ ليشكلوا دائرة لتسجيل
الأسماء وقائمة الممتلكات، معظمهم ليس لديهم ما يقدمونه. يتقدمون
ورعوسهم منكسة حيث يعرفون أن جلدة الكرياج الثقيلة تنتظرهم فهى

ليست المرة الأولى. بعض السنوات يفيض بالخير وبعضها الآخر عجاف، وهكذا خلق الله العالم.

منذ عشرة أيام توفى الراحل "حنتوب" Hantoub في قرية كهذه تقع إلى الشمال منها، بين الزغاوة. احتشد مجموعة من الرجال؛ ليعلنوا أنهم سيتحدثون بالنيابة عن الآخرين. قالوا: إنه لن تدفع ضرائب لخدمة الملحد. حاول حنتوب إقناعهم.

وهنا حدث شيء غريب: أحد الرجال المنهمكين في الجدل استل سكيناً ببساطة من تحت ملابسه وغمده في بطن الراحل. استغرق موت الراحل العجوز ساعات طويلة. شاهد كادارو تطور الأمر. عندما جاءت نهايته، كان الراحل يئن ويبكي، تلتخط ملابسه، والدم يزيد من فمه. لم يحاول المجرم الهرب، ولكن عندما اتجهوا إليه بدأ يصيح بالكلمات الدينية دلالات الإيمان. جوما هو الذي أطلق عليه الرصاص. جعله يجثو على ركبتيه ثم وضع البندقية على رأسه وقده الزناد. انطلقت الكلاب مسرعة؛ لتلعق الجماجم المغلفة بالتراب.

"حتى بهائم الله العجماء لا تحبه" غمغم عبد التوم، متذكراً اليوم الذي تلقى فيه السانجاك رفسة من بغل تحميل. تساءل كادارو ماذا يعنى ذلك. لقد كان في الثانية عشرة من عمره وهذه السرية هي أسرته الوحيدة. أخذ عبد التوم نفساً عميقاً ووقف. "هذه جولتي الأخيرة. لقد كانت طويلة جداً، وخلفت الكثير جداً من القتلى".

"لم يكن الأمر بهذا السوء" قال الصبي بجرأة: "إذا كان حنتوب العجوز لا يزال هنا".

لم ييال عبد التوم بالصبي وقال: "عليك أن تحترس مع من تتكلم عن أشياء كهذه أيها الصبي. فقد يفطر جوما بكليتيك".
"ولكنك تعلم أنها الحقيقة".

أقسم عبد التوم مهمهما. "أحيانا أرى أنك لم تتعلم شيئا منذ جئت إلينا! أدهش غضبه الصبي. "إن الحقيقة ليست لها علاقة مطلقا بأى شيء". ضرب الرجل العجوز بيده على جنبه. "أين سنكون جميعا إذا مضينا فى سرد الحقائق؟ سنموت".

هز كادارو كتفيه بلا مبالاة وحاول أن يبصق، فأفسد الأمر وسال لعباه على ذقنه. نظر بعيدا ومسحه بيده. وأطلق الرجل الآخر شخرة اشمئزاز.

أينما ذهبوا يتكرر الأمر: يشعر رجال الباش - بوزوك بكراهية الشعب الذى لا يغفر. يطلق عليهم النار ويبصق. كانت الآبار محكمة الإغلاق إلا أنها فى الوقت ذاته مسممة. عندما وصلوا أخيرا إلى ملجأ حصن الطيارة العسكرية، وجدوه قد سقط فى أيدى أنصار المهدي، ورايتهم السوداء التى تغطيها الكلمات الدينية ترفرف فى الخواء. أخذوا يشتمونهم "وكأننا لا نؤمن بالدين نفسه".

"كلنا مسلمون فليعنهم الله". ماذا حدث للعالم حتى ليضطر الجنود إلى التسلل فى الظلام مثل اللصوص؟

لم يعد لديهم أى مكان يلجأون إليه. كانوا يعيشون على أى طعام يستطيعون تسوله أو سرقته أو الوصول إليه وهو ما يبيقيهم على قيد الحياة. فكروا فى خلع زيهم الرسمى والعودة لقراهم وأسرههم "إنه أمر

سيئ" يهمسون عندما يتجمعون حول النار فى المساء. "هؤلاء المتعصبون منتشرون فى كل مكان".

"القول بأنهم متعصبون يشبه الادعاء بأن أمى داعرة".

"ربما هو فعلا المهدي - هل فكرت فى ذلك؟".

أى شخص يتكلم بصراحة فى هذا الموضوع يتعرض للجلد بالكرياج أو ما هو أسوأ.

كان وهاب يدور بينهم فى المساء طالبا منهم أن يكفوا عن الكلام. رجل عريض المنكبين يميز كل وجنة من وجنتيه خطان قاطعان. وجهه عريض وجلده كالجلد المدبوغ - سميك مثل جلد فرس النهر المرن الذى يتدلى من معصمه القوى. فالأمر واضح بالنسبة له أنه يحمى جنوده. فسانجك جوما سيطلق الرصاص على أى شخص يخالف الأوامر فوراً وبدون تردد.

كانوا يخططون للدوران من ناحية الجنوب الشرقى ليصلوا إلى مدينة الأبيض. ولكن منذ ثلاثة أيام التقوا بقافلة تجارية، تنقل الزوجات والبضاعة إلى الشمال، أخبرتهم أن المدينة تحت الحصار. "ما الغرض" زمجر الرجال من الذهاب إلى هناك فى الوقت الذى سيتعرضون فيه لمذبحة. واستطاع وهاب بطريقة ما إقناع سانجك أن أفضل خطة هى الانسحاب نحو الوسط - نحو النيل.

تركت أقدام الباش - بوزوك أثارها فى الطين. بعض الفرسان سحبوا البطاطين ليضعوها على جماجمهم بينما خلع آخرون ستراتهم وربطوها حول رؤوسهم. هسهس المطر فوقهم، حاملا رائحة كمكمة.

وأنفاس طيور غارقة - لف الغابة الظلام وهو يفرق الرجال ويمنع انتظام صفوفهم. ترددت البغال وسقطت العصى على جنابها. نزل الرجال بفتور؛ ليمشوا عندما أصبحت الأشجار أكثر كثافة. استمر الركب أثناء الليل لا يجروا على التوقف. مروا بلبلة أخرى دون نوم. تلازمهم رؤية للسماء تتوهج بالضوء فى جوف الليل البهيم: الجن ذو الذيل الفضى الذى ترك أثره على شبكية عين كل فرد منهم. الجنود لا يدركون شيئا عن المذنبات. اعتقدوا أن هذه العلامة ليست لهم، ولكنهم سمعوها الآن، تهمس بها حبات الرمال التى تزحف على الصخرة. يحسونها فى كل حزام سرج مكسور وكل جواد أصبح أعرج، كل عين مياه ممتلئة طوال الطريق. كانوا متعبين وبعيدين عن بيوتهم. تغيرت الأرض، حيث ترك المذنب ندبة لم يتحدث عنها أحد، إنها ترقد الآن جرداء بين الظلمة والضوء.

كان المهاجرون فى حالة يرثى لها. يرتدون أسما لا بالية، لا يقوون على الحركة. بدأ وأنهم جلسوا على الرمال فى انتظار الموت. لديهم معزة واحدة منهكة استنزفت حلبا. سحبت السيدات أغطية رءوسهم السوداء على وجوههم بينما السرية التى يقودها سانجاك جوما تاتى عبر السهل المتوهج فى سحابة من الغبار. ترنحت الخيل وشبت. انكمش المهاجرون معا فى دائرة مغلقة بينما الفرسان يجاهدون لتنتظم صفوفهم. حزم متعلقاتهم تبعثرت على الأرض. صرخ السانجاك بصوت أعلى من جلبة الخيل والرجال "وهاب!". "اسحب الرجال إلى الخلف ليشكلوا دائرة". بدأ وهاب يتنقل وهو يتنهد يضرب الخيل على أردافها

ويمسك الجنود من أذرعهم، تارة صائحا وتارة ملاطفا حتى أصبحت السرية المبعثرة تشبه الدائرة إلى حد ما، على بعد معقول. وقف جوما فى ركابه وتفحص النتيجة. أوماً بالموافقة وجلس. أدار جواده وتقدم حتى وصل إلى المهاجرين. "من الأكبر هنا؟ من المسئول؟" أشار ببندقيته "أنت تعال إلى هنا". رجل فى العشرين أو الثلاثين من عمره تقدم. "من أين أنتيم؟ استدار الرجل ورفع ذراعه وهو يشير نحو الأفق.

نظر جوما فى اتجاه الصخور والتراب وسأله "أين تذهبون؟". الرجل الذى أسقط ذراعه، رفع الآن الذراع الأخرى وأشار فى الاتجاه العكسى تماما. أوماً جوما برأسه، ودفع كعبى حذائه برفق فى جنبى ركوبته واقترب أكثر، ثم رفع مقبض بندقيته وضرب الرجل بعنف على رأسه. فسقط الرجل على ركبتيه، ويدها تقبضان على أذنه اليسرى، قطرات من الدماء تسيل من بين أصابعه. زمجر جوما قائلاً: "ترد على عندما أحدثك".

تقدمت سيدة تغطيها الأسمال السوداء البالية، وتبرز كاحليها من تحت أطراف ثوبها "لا يستطيع إجابتك بأى طريقة فقد قطعوا لسانه" وجذبت القماش من فوق عينيها التى لمعت فى ضوء الشمس. تحرك النسيم الناتج زاحفا نحو أطراف ثيابها. نظر إليها جوما للحظة "من؟". "الجنود، اللصوص، هل هناك فرق؟ كلكم تشبهون بعض". تقف هناك ليست أقوى من غصن جاف، للتحديث إلى ضابط من الفرسان وكأنه بائع فول سودانى فى السوق، "إنها ليست خائفة" فكر كادارو متعجبا. غمد جوما مقبض بندقيته فى جسد المرأة؛ "بما أنهم قرروا أن يبقوا لسانك، ربما تستطيعين أن تخبرينى. إلى أين تذهبون".

احتفظت المرأة برباطة جأشها، وأمسكت ضفائرها وأحكمت غطاء رأسها سننضم إلى المهدي، بناء على طلبه. استدارت نصف استدارة لتشير إلى أن الأمر ينطبق على المجموعة. "ليس لدينا أي ممتلكات، كل شيء أخذ منا، لكنه يقول: إنه يمكننا أن نصبح عائلته إذا انضمنا له في الجبل المقدس the holy mountain .

شخر جوما، ضاحكا "ماذا، الجبل المقدس؟ هز رأسه مؤكدا "لم أسمع بوضوح، ما هذا الجبل المقدس يا أختاه؟".

أوضحت المرأة بصبر: "لقد أطلق المهدي اسم ماسة Massa على الجبل، مثلما اعتاد الرسول محمد. لقد طلب منه الرسول نفسه أن يقوم بذلك" أضافت بإيماءة اقتناع تام "فى حلم".

"حسنا" قال جوما وهو يميل إلى الأمام "كل هذا جميل جدا، جبلكم المقدس وكل شيء، ولكنكم بعيدون جدا عن أى مكان وربما تلقون حتفكم هنا".

"إذا كنا سنموت فهذه إرادة الله. وإلا سيؤمن وصولنا إلى الجبل حيث نستطيع أن ننضم إلى المهدي".

هز جوما رأسه "لن تصلوا إلى أى مكان. ستموتون هنا مثل الكلاب تحت الشمس. انظروا إلى أنفسكم" ضحك متعجبا "ليس لديكم بغال أو خيل أو إبل، فقط هذا الكلب الذى يبدو ميتا أكثر منه حيا".

"هذه معزة" صوبت المرأة الخطأ:

"يمكنكم أن تحصلوا على لبن أكثر من كلب". استدار جوما ليرى إذا كان الرجال قد أعجبته مزحته، ولكن أسر المهاجرون قلوب الرجال، وحط على السرية سكون الدهشة.

"الله سيهدينا ويرعانا" كررت المرأة جملتها.

اقترب جوما أكثر "هل تعلمين من نحن؟".

للوهلة الأولى عبرت نظرة اهتمام وجه المرأة المنهك. ارتعدت شفتاها وهي تلقى نظرة أخرى على الجنود بمجموعة أزيائهم وأسلحتهم الغريبة. وهمست "باش - بوزوك".

ابتسم جوما ابتسامة خفيفة. رفع صوته متحدثاً إلى الآخرين في المجموعة الصغيرة. "كم منكم سيحارب إلى جانب هذا المهدي الذي تتبعونه؟ كم منكم سينضم إلى الدراويش من أجل أن يقتل جنوداً مثلنا؟" وجوه الرجال والنساء، كبار السن والأطفال، تحمق متجهمة في وجهه.

في هذه اللحظة حدث شيء غير متوقع. جندي شاب اسمه رازق جبان ولكن قلبه طيب، نزل من على صهوة جواده واتجه إلى المجموعة البائسة. يحمل كيساً صغيراً به كل ما لديه من طعام: بعض الخبز غير الطازج، حفنات قليلة من الدقيق، وبعض التمر الجاف. وضع الكيس أمام المهاجرين. لم يكذب يتوقف ليفكر في نتيجة ما يفعله.

إنه مجرد شيء كان يجب أن يحدث. نظر كادارو إلى وهاب وشاهد الرجل العجوز ينظر بعيداً، وهو يهمهم إلى نفسه ويتنهد. جوما يشاهد الأمر كله وهو غير مصدق.

زمجر "أيها الجندى"، توقف رازق فى منتصف المسافة واستدار بنظرة دهشة حقيقية. "أيها الجندى ما الذى تظن أنك تفعله؟".

أوماً رازق بيديه الفارغتين فى اتجاه المهاجرين ثم هز كتفيه. استدار لينظر إلى صف الجنود والخيل، دفع جوما بنفسه فجأة إلى الأمام وضرب رازق فى ظهره بكل قوته؛ ليقع على الأرض ووجهه فى التراب.

كل ما حول كادارو من اليسار إلى اليمين يجعله يشعر بالتوتر المتزايد. نزل جوما على الأرض وبدأ يضرب رازق على رأسه وصدره بحزام سرج جواده. المهاجرون ينظرون فى ذهول، وهاب نزل من على سهوة جواده وهو يتحرك ببطء. "سيدى" بدأ يتحدث، أعتقد أن هذا يكفى".

دار حوله السانجاك بعينيه الحمراء ووجهه الذى يشبه الرعد "هذا الرجل ارتكب جريمة إطعام العدو. أعد ذلك خيانة ألا توافقنى؟".

نظر وهاب بعيداً دون أن ينطق بكلمة. أشار جوما إلى أقرب رجلين منه: الأصم ورجل عجوز. "سنجعل من هؤلاء الناس مثلاً لمن يتبع هذا المجنون. أيها الرقيب، ارسل رجلين لإحضار بعض الخشب".

انطلق جنديان فى اتجاه الأشجار. وقف الجميع فى وسط الغبار منتظرين، بينما ارتفعت الشمس فى السماء. عندما عادا الرجلان بالأخشاب، كونوا صليبين كبيرين، بشكل عشوائى وغير منتظم مثل شجرتين مشوهتين فى وسط السهل الرملى. ثبتوا للعجوز والأصم من

أيديهم بالمسامير وأقدامهما وخصريهما مربوطان إلى الأوتاد بالحبال؛ لتحمل جزءاً من ثقلهما حتى لا تمزق المسامير جسديهما. النساء تعول وتصرخ ولكن جوما لا يلين. "دعوهم يدخلون الجنة موثقين بصلبان غير المؤمنين بالإسلام. ليصبح هذا درساً لكم جميعاً. هذا المهدي الذي تتبعونه ليس سوى أحق حقيراً".

في هذه اللحظة تقدم طفل صغير تلمع عيناه البنيتان مثل برك المطر، من خلف سرب السيدات المقرصات على الأرض يشبهن الغربان. ووقف أمام جوما. لم يكن عمره يتعد السنوات التسع. رفع إصبعه. "لا إله إلا الله محمد رسول الله، محمد أحمد هو المبعوث الذي سوف ينقذنا من طغيان الأتراك وغرورهم. أنتم لا تستطيعون مقاومة قدرة الله لا بالبنادق ولا بأي نوع من السيوف".

كان الجنود بيتسمون - للجرأة، لنبرة الإيمان الواضحة في صوت الولد. يعجبون بالشجاعة عندما يصادفونها. دوت طلقة وحيدة وكاملة، انطلقت في ثانية. انهار الصبي على الأرض وسال دمه على الرمال. تقدم وهاب ومد يده يحاول اللحاق بالصبي، ولكن بعد فوات الأوان. استدار وهو غير مصدق وجوما الذي لا بد أنه قرأ المكتوب بوضوح في عيني الرجل النبيل تراجع ورفع مسدسه مرة أخرى. لم ينطق أحد، وحتى لوهلة لم يتنفس أحد. ثم دوت طلقة بندقية وانكسرت اللحظة. جوما يرقد على الأرض وهو يركل، ويتلوى ويلعن متألماً. انحنى وهاب واسترد بهدوء المسدس الذي سقط. صرخ جوما مستهجننا الفوضى وطالبا العودة إلى النظام، ولكن لم يعبأ به أحد. لقد حسم الأمر دون كلمة.

"ادفنى ابنتك" قال وهاب للمرأة: "وادفنيه جيدا" استدار للجنود وهو يشير إلى الرجلين الموثقين إلى الصليبيين وقال: "حرروهما من قيودهما. رازق اجمع ما تستطيع من زملائك الآخرين واعطه لهؤلاء الناس. كل ما يفيض عن حاجتنا". شق طريقه بين الرجال الذين بدعوا يتحركون الآن، وكأنهم يفيقون من إغماءة. "جهز حمالة بالبطاطين وألواح الخشب للسانجك".

اقترب من الجندي الذى أطلق النار على جوما قائلا: "ما قمت به عمل أحمق، أيها الرجل العجوز".

لم يقل عبد التوم شيئا عندما رفع وهاب البندقية برفق من بين يديه. امتطى وهاب جواده وخاطب الجمع: "اتجهوا من هنا إلى الجنوب وإذا حالفكم الحظ ستقطعون مسافة كبيرة بحلول المساء. من هناك سيأخذكم الطريق إلى بارة حيث ستجدون ما تبحثون عنه".

لم يقل المهاجرون شيئا ولكنهم أخذوا يحملقون وكأنهم لا يصدقون ما يحدث. "صحيح" قالت السيدة التى كانت تتحدث مع جوما: "هناك معجزة فى هذه الأرض. فليباركك الله ويهديك". صاحت بفرحة. أطلق العنان لجواده نون صبر. وقال: "اعطهم بغلا"، ثم دعنا نخرج من هذا المكان الملعون".

وبجوما مربوطا إلى النقالة المؤقتة والرجال يتعقبون فى صف غير منتظم، اتجه الطابور شرقا. حاول جوما أن يرفع نفسه لوضع الجلوس ثم سقط فاقتدا الوعى وهو يلعن.

٤- الخرطوم

يوليو ١٨٨٣

نفشت الطواويس ريش ذيولها مثل السيدات الجميلات يقمن بجولة فى لعبة البريدج بعد العشاء. تتبختر بريشها الأزرق والأخضر الرائع بين أقواس الشرفة الحجرية، تقوم بجولات طويلة وكأنها لا تتأثر بالتراب وطلقات البنادق.

فزعت فجأة وقفزت من الطريق وأرجلها تتزحلق على الأرض الرخامية وهى تختفى، هاربة بالكاء من تيار التبغ الكريه الرائحة الذى بثه "مدنى" طباخ القصر العجوز فى اتجاههم. أشيع عنه أنه أكثر رجل يثق به الحاكم العام. رجل عجوز نكد المزاج تميز وجهه ندبات البرابرة وشارب منتصب كالأسلاك الفولاذية.

أطلقت الطواويس العنان لغضبها بين جلبة الدجاج الذى يقطن فناء سراى الحاكم، مثيرا الريش والتراب فى الهواء، ومطلقا صيحة زعر. ارتجفت الطواويس وواصلت تبخترها فى ضوء الشمس.

فى الظل النيلى للسور فى الجانب البعيد لفناء القصر، تتأب جندى واستند إلى عربة بنادق. تأتى عبر السور المحيط أصوات بانعى الأرصفة

والباعة المتجولين، الصبية يسوقون قطعان أغنامهم إلى السوق، الفلاحون بسيقانهم المقوسة يعانون حاملين الأكياس الثقيلة التي يبرز منها الباذنجان، والخيار الملتوى والفلفل الأحمر اللامع، التجار يعدون نقودهم المعدنية، ويتحدثون بكسل عن المستقبل. بالنسبة لأهل المدينة فإن ذهاب الجنود وإيابهم يحمل فقط شهادة على موقفهم الأمن. يكادون لا يعيرون اهتماما للشائعات عن المناوشات أقصى الغرب.

عبر مدنى المدخل ذا الأقواس الذى يشق المبنى الطويل ويطل على منظر جميل للنيل بعد مبنى السراى البسيط هناك ضفاف منحدره وصفٌ من النخيل والسعف الطويل مثل الحيتان الخضراء التى تحاول الوصول إلى دوامات الماء. فى مكان ما من الحقول حمار ينهق وينهق كرية الرائحة وساخط. يطن النيل بهدوء تحت الحوائط المدهونة بالطلاء والتى يخطها الآن الصداً من الأمطار السابقة وكأنها جذوع شجرة غريبة تحاول أن تخرق الطوب والأسمت. فى حجرة استقبال الحاكم العام، قطع قدوم مدنى لحظة صمت طويلة. كان يحمل صينية فضية ترقد عليها مجموعة مختارة من فطائره الرائعة. خلفه كوكبة من الصبية الصغار يرتدون أزياء بيضاء قطنية وقفازات، وعلى رؤسهم طرايبش خضراء اللون، يتبعونه وهم يحملون الشاى. دائماً يقدم مدنى فطائره بنفسه، رغم الاشتمزاز الذى قد يثيره مظهره غير المهندم أحيانا لضيوف الحاكم العام. شهرته بالمهارة فى إعداد الفطائر رغم ذلك كانت كافية لتهدئة قلق الجميع، ما عدا الأكثر عصبية، وهم ببساطة لا يستحقون تذوقها. لماذا؟ إنه لشرف أن يقدمها الرجل بنفسه. فقد وصلت أقاويل عن

مهاراته فى الطبخ إلى القاهرة ودمشق. وصفاته السرية، لم يكن يثق أن يحملها الصبية، غير البارعين من المطبخ؛ خشية أن يجروا أحدهم على التهام قليل منها فى طريقهم إلى الدور العلوى.

عندما دخل مدنى الحجره، تجاهل الضباط الجالسين تحت اللوحات المطرزة والصور الزيتية الرائعة التى تزين الحوائط واتجه إلى الحاكم العام نفسه. قدم الأطباق بانحناءة قصيرة، ووضع الصينية على منضدة منخفضة بين الكولونيل هيكس والجنرال الشركسى الذى يشبه سحلية عجوز والذى كان يتكى على الأريكة المقابلة. الحاكم العام الذى كان فى الماضى لديه هيكل عضلى قوى ضعف الآن مع تقدم العمر وتوقف التدريب، داعب شاربه بإصبعه بينما يده الأخرى تنقر على سطح المكتب المصنوع من خشب الساج. رؤية الفطائر كانت تشبه رؤية عين ماء بالنسبة لجمال عطشان، فالحقيقة أن "علاء الدين باشا صديق" كان قد أصيب بالملل. اعتدل مدنى فى وقفته وحيا الحضور متباها -بنوع من السخرية لم يلاحظها أى من القادة العسكريين- ثم استدار وغادر الحجره.

انتبه الحاكم العام إلى هذا التمرد وفكر سريعا فى حقيقة أن مهمته هنا توفر له لحظات قليلة جدا من المتعة الحقيقية. لاحظ أيضا أن هيكس ينقر بسوطه على ركبتيه بطريقة تدعو للضيق حتى يجذب انتباهه؛ لأنه لا يعتقد أن هذا هو الوقت المناسب لشرب الشاي: هذا النقر يأتى عادة قبل التعليق الظريف. ويعتقد علاء الدين أنه لن يفهم الإنجليز جيدا أبدا، ولا بعد ألف عام. وقرر أنه حان الوقت ليتدخل، وقف ورسم على وجهه أكثر

الابتسامات جاذبية، فقد كان فى الحقيقة قادرا على أن يصبح جذابا جدا، نبههم إلى المرطبات. "أيها السادة من فضلكم: الشاى".

أشار بطرقة من أصابعه للصبية بالتقديم.

بدا الضباط مترددين، ولكن رنين البورسلين وخرخرة الشاى وهو يسكب أعطاهم إحساسا بالرضا. مسد كثيرون منهم شواربهم. إيفانز وفوريستير وكر اللذان عادا للتو من التدريب العسكرى كما توقع الحاكم العام أول من تقدم لتناول كوب من الشاى. لقد كان على حق.

أحد الحضور ضابط شاب نقيب حليق الشعر تماما يبدو صغيرا جدا على رتبته. صغيرا على أن يترك أمه، يفكر علاء الدين فى لحظة ضعف. عيناه الخضراوان تريان ذلك الضوء المنعكس من النهر الذى يملأ الشرفة المفتوحة بطريقة رومانسية. اسمه هاميلتون إلزورث وعمله متعلق بالمخابرات، نقل من القاهرة وعين للعمل مع المقدم ستيوارت، بعيدا عن التكوين الرئيسى للحملة العسكرية رغم أنه سافر معهم. ويبدو أن هذه المهمة الخاصة تناسب ميله إلى العزلة. لم يبد قط أنه لاحظ الشاى فقد كان يحملق فى النافذة بنظرة زجاجية. علاء الدين باشا يتجول فى الحجرة كمضيف بارع أشعل لنفسه سيجارة وأوماً للخادم الصبى "الشاى، أيها النقيب. لا يجب أن تقلل من حاجة الجسم لمشروب منعش فى هذا المناخ". وثب إلزورث وكأنه لدغ، فسقطت قبعته. كتم الحاكم ابتسامته واستدار فاحصا الحجرة، محاولا أن يعد كم سيبقى من فطائر مدنى بعد أن ينتهى الضباط من الطعام. كان السورى، الشركسى العجوز، أكبر مشكلة، فلدیه سلوك حصان التحميل حيث أخذ يتناول فطيرة ثالثة بالفعل. يغطى سترته الفستق وفتات الفطيرة. مسح

أصابه اللزجة دون خجل فى الأريكة. على الأقل لقد ذاب الجليد. كان الرائد مارتن يناقش أوجه التدريب العسكرى اليوم ويتباحث مع النقيبين الآخرين حول البنادق الرشاشة نوردنفيلت التى يبدو أنها تمثل مشكلة للمجندين المصريين. نبرة أصواتهم تضغط إلى حد ما على أعصاب علاء الدين فيلعن الإهانة التى لحقت بهم لوجود الإنجليز هنا بشكل عام. لقد تسبب عرابى والشغب فى الإسكندرية فى إعطائهم العذر ليقوموا بتولى المسؤولية. منذ أن نزلوا فى التل الكبير وهناك نوع من العبثية فى اتخاذ خطوات.

هيكس هذا مثلا، لم يكن يعرف شيئا عن المنطقة وليس لديه خبرة وكان على وشك تكوين جيش من الفلاحين أنفسهم الذين كانوا يقاتلون إلى جانب عرابى فى الثورة. ما الحكمة فى ذلك؟ ابتسم علاء الدين وأوماً إلى الضباط ليتناولوا بأنفسهم فطائر مدنى. من ناحية أخرى، فإن إرسال مجموعة متمردين لقمع تمرد آخر يحمل نوعا من الزهو والغرور، عليه أن يعترف بذلك. فأرسال الجنود البريطانيين بلا شك، مكلف وخطر جدا. إن الأمر كان دائما يسير على هذا النحو، أليس كذلك؟ كان لدى الكولونيل هيكس رأى. عندما يرحلون من العاصمة ويتجهون إلى الجنوب الغربى إلى كردفان أى شىء ممكن أن يحدث فى الواقع. "باستثناء وسائل النقل الإضافية والإمدادات فى الطريق، سوف يكون لدى حسب تقديرى قوة محاربة تصل إلى أقل من ثلاثة آلاف جندى. هذا المهدي الذى لديكم معه سبعة أضعاف هذا العدد من الرجال". صمت وحرك أصابعه وكأنها تزيل فتية من الخبز عن ذقنه. "فرق لا يثير الإعجاب، ألا توافقنى؟".

أوماً الحاكم العام موافقا عندما سمع هذا التوبيخ. فهو يعرف هذه الشخصيات. كما علم أن هيكس نقل رؤاه إلى القنصل البريطاني في القاهرة، وأن الأخبار جاءت من لندن أن لورد جرانفيل لن يجرؤ أن يطلب من دافعي الضرائب البريطانيين تمويل عملية مثل هذه. إذا حدث ونقلت أية إمدادات عسكرية سوف لا يقترب الرقم أبداً من عشرة آلاف جندي وهو ما يطلبه هيكس. وهناك مشكلة فورية تواجه كولونيل هيكس الآن، كما لاحظ علاء الدين باشا: سليمان السورى الذى كان يأكل الفطائر. توقف كولونيل ويليام هيكس عن النقر بالسوط على ساقه. والآن يجلس محملاً ويده معقودتان عند النافذة المفتوحة ربما يحاول أن ينقل إحساسه بأن طلبه ملح. جلس الحاكم العام خلف مكتبه ينفث دخان سيجارته بعيداً. لقد خطرت له الآن خطة، ولكنها ستستغرق بعض الوقت فى الإعداد.

عقد أصابعه معا على المكتب وابتسم. "أعتقد يا كولونيل أن التدريب العسكرى يحسن قدرة الرجال".

شخر الكولونيل مندهشاً "يحسن؟ بصعوبة. هذه الفوغاء لن تصنع قوة محاربة جيدة. ربما مقبولة فقط فى أفضل الأحوال، وفى حالتنا يجب أن نتأكد من ذلك". تشبث بجانبى المقعد وهو ينتف ذقنه الصغير.

"عندما نخرج إلى هذه الرقعة التى هجرها الله من الغبار، هؤلاء التافهون الصغار ربما سيشتغلهم شق حناجرنا عن ملاحظة العدو. إنهم لا يعرفون البلاد أفضل من الملكة فيكتوريا، وأنا شخصياً أفضل الاعتماد على مساعدتها رغم ذلك، أكثر من الاعتماد عليهم". من الواضح

أن الأمور كانت مختلفة جدا بالنسبة للكولونيل عندما خدم في الجيش الهندي. أعاد علاء الدين باشا النظر في الموضوع. إن سليمان نيازي هو القائد العام الرسمي هنا، هيكس يلي نيازي كرئيس للأركان. هذا في حد ذاته كاف ليؤدى إلى العداء بينهما. ألقى الباشا نظرة خاطفة على الشركسى العجوز الذى يشعر نحوه بدرجة من التعاطف بل الحب ليس فقط لأنه يذكره لسبب غير مبرر بجدته، ولكن أيضا لأن الشيخوخة ستأتى إلينا جميعا بطريقة حتمية، إذا أسعدنا الحظ بالحياة. ولكن جواد الحرب العجوز كان يغط بهدوء فى نوم عميق، غافل عن السخط الذى يدور حوله. بعينه نصف المغلقتين يبدو أن أم أربعة وأربعين طويلة وذات فرو أبيض تزحف على جبينه. ضرب الحاكم العام ذبابة بعنف؛ ليبعدا عن وجهه. منذ أن تولى منصبه منذ ستة أشهر، لم يعرف إلا الإحباط. مقيد اليدين لا يستطيع التصرف؛ بسبب ديون الخديوى البريطانيين التى تضعف سلطته، ونقص المعلومات الأساسية لديه عن الأراضى فى الغرب التى يتحصن بها المهدي. يتقدم خط النيل ملتويا على الخريطة من القاهرة وينتهى فى خرطوم الفيل الذى اشتقت منه الخرطوم اسمها. خط النيل الأزرق يلف شرقا وجنوبا بينما يتدفق النيل الأبيض مستقيما إلى أسفل، أبعد من شكل جزيرة أبا الذى لا يعوق تدفقه، ليختفى فى مستنقعات نبات البردى فى السد. قام علاء الدين باشا من مقعده وعبر الحجرة. إصبعه يرسم خطا: إلى الجنوب الغربى فى منطقة كردفان، ملتفا حول جبال النوبة إلى مدينة الأبيض، مركز مشكلتهم الصغيرة. مسافة حوالى مائتى ميل مثلما يطير الغراب. تجويف الأرض شرق النهر تترك الهزائم نذباتها عليه، والتى تمتد حتى قصور دارفور. استدار

لضيوفه. "أيها السادة، لدى اقتراح، مجرد فكرة". رسم إصبعه دائرة حول المنطقة التي تقع جنوب العاصمة مباشرة: الجزيرة، أرض خصبة يحدها النيلان الأزرق والأبيض من الشرق والغرب. "ربما علينا الاهتمام بشكل أكثر جدية باقتراح لورد جرانفيل وأن نقصر جهودنا على أرض الجزيرة؟". كان موقف هيكس واضحا ضد الفكرة. "يجب أن نذهب إلى رأس الأفعى ونقطعها من دابرها. قدم الحاكم أسباب خطته: المسافة المطلوبة قطعها، صعوبة المنطقة، هناك سلسلة من التمرد في منطقة الجزيرة في العام الأخير. ويغض النظر عن كل ذلك، فإن الطريق الطويل إلى كردفان ليس أكثر الخطط حكمة. ولكن اقتراحه تم رفضه.

واصل هيكس حديثه قائلا: "أنا لا أشك أنه رغم أن المهدي ربما لا يجرؤ على مهاجمتنا اليوم، فذكرى الصعاب التي واجهوها في رحلتهم عبر الصحراء من البحر الأحمر كانت لا تزال حية في ذاكرة البريطانيين، فمن المؤكد أنه سيغير رأيه". وقف هيكس وبدأ يداعب لحيته. "منذ سقوط الأبيض ليس لدى شك في أنه ينوى أن يواصل رحلته حتى يواجه نده. ولذلك فمن الضروري أن نخرج ونهزمه شر هزيمة".

همهمات "عظيم عظيم" صدرت من الضباط الصغار في نهاية الحجرة. "المتعصبون دينيا" واصل هيكس حديثه وهو يخطو، "لا يمكن مجادلته، ولكن الخوف من الله يسكنهم". ضحك ضحكة خفيفة. "اغفروا لى مزحتي".

تسأل الحاكم إذا غفر أى شخص للكولونيل مزحاته المبتكرة، يبدو أنه أمر بعيد الحدوث. إجابته رغم ذلك كانت غير مشجعة. مدينة

الخرطوم محصنة ويمكن الدفاع عنها لشهور طويلة، حينئذ تكون الحماسة قد زالت. سيفتقد أتباع المهدي أسرههم وبيوتهم ويملون الحرب لدرجة أن يكفوا عنها ويهولوا. والمغامرة داخل كردفان الآن تبدو مخاطرة غير ضرورية.

كان الشركسى العجوز لا يزال يشخر. يتقلب على الأريكة محاولاً أن يأخذ وضعا أكثر راحة، وهو يخشى أن يجرح نفسه أو أى شخص آخر بالسيف الذى يصر على حمله دائما. ضجت الحجرة بفرقة ناتجة عن تسرب غاز، تبعثها رائحة تشبه رائحة مستنقع تعفن فى الحرارة بعد هطول مطر غزير. انطلقت ضحكة مكتومة من شباب الضباط. تحسر علاء الدين. انفتحت العينان ذات الجفون العجوز وتوهجتا، لحسن الحظ، عندما وقعتا على صينية الفطائر. "آه" تنفس سليمان نيازى بأسلوب مشابه لمرضى الأزمات الصدرية "الشأى". وجهه كان بلون مقبض بندقية قديمة من الخشب. تنحج بصوت عال وبصق على الطبق النحاسى الموجود على الأرض. واستطاع أن يتجنب حذاءه ذا الرقبة العالية الخاص بالفروسية. اكتفى كولونيل هيكس بما رآه. قفز واقفا وألقى التحية على الجميع وخرج من الحجرة. لم ينزعج الشركسى العجوز وتناول الفطيرة الأخيرة وهو يرتشف من كوب الشأى بصوت مرتفع. "سيلحق بنفسه الإهانة إذا ظل يتصرف على هذا النحو".

"إنه يجد نفسه فى موقف لا يحتمل" علق علاء الدين وهو يتحرك نحو الشباك؛ ليحملك فى الأعمال الهادئة التى يقوم بها الصيادون والفلاحون فى الحقول. كان النهر سرمديا وجميلا. تعلم أن يحبه، مجرى

النهر بعيد عن هنا، حيث كان هذا المكان يبدو كالسلف البعيد، كقريب بنسى، تاه في ضباب الوقت. الذين في القاهرة ليس لديهم فكرة عما يواجهونه هم هنا. يستغرق المرء وقتاً ليعرف هذه الأرض، وليحبها، ولكن لها جمالها: السحر البكر للطبيعة نفسها، شئ نادر ولم تفسده يد إنسان. لا عجب أن ينشر الناس أجنحة خيالهم، لا عجب أن يوجد مرافون ومجانين ودرائش وأنبياء. إذا كان للمهدى أن يظهر على الأرض، لم يكن ليجد مكاناً أفضل من هذا. استدار الحاكم العام نحو القائد العام "سيدي لقد أقترحت أن يتم نقلك إلى الساحل الشرقى" أخبره برقعة.

"سواكن" رفع قبعته الفرو البيضاء. هز علاء الدين كتفيه مستهجنًا يديه خلف ظهره. "إذا كانت هناك أية فرصة أن نكسب في هذه الحملة العسكرية يجب أن أكسب تعاون كولونيل هيكس وثقته بشكل كامل". أوضح "إنه لا يجب أن يخدم تحت قيادتك".

تنفس المحارب الشركسى الصعداء ووضع فنجانه. "إنه حمار بتفطرس. خطر على رجاله؛ لأنه يعتقد أن القيادة تعنى الحديث بصوت عال، بدلا من الاستماع". وقف يترنح على قدميه "هل تعلم أنني سمعت أنه في الهند اعتاد البريطانيون أن يغطوا طلقات الرصاص بدهون الخنزير ليرغبوا المسلمين. اسأل كولونيل هيكس ماذا يعرف عن ذلك". رفع إصبعه بأسلوب من لا يعرف الأمر. "إذا كانت هذه هي الحرب الحديثة، استمروا أنتم فيها. أما أنا فأفضل أن أموت بشرف بين أحضان غانية عجوز". وهنا خرج من الحجرة، وهو يشير إلى الحارس

الصامت ذى الوجه الحجري الذى يتبعه فى كل مكان. "أرسلنى إلى الساحل" استدار ملوحا بيده "أنا فى حاجة إلى هواء البحر المنعش. هذا المكان رائحته عفنة هذه الأيام".

ابتسم علاء الدين باشا صديق لنفسه. سيفتقد العجوز المتهالك. ولكن السؤال حقا هو هل سيصبح ذا نفع أو سيصبح عبئا ثقيلا على كردفان، فحقائق الوضع تحبذ وجود هيكس. سليمان مجرد رمز تم إرساله من القاهرة ليعدل الميزان. مد يده فى الصندوق المصنوع من خشب الصندل المطعم بعرق اللؤلؤ وسحب سيجارة تركية أخرى.

كانت العلامات غامضة مع ازدياد العصبية القبلية والإيمان بالخرافات، هناك شىء مقلق فى أمر هذا المهدي ودعوته للعودة إلى العصر الذهبي للإسلام. وسواء كان صادقا أم لا، فكلماته تحمل جزءا من الحقيقة. إن بطن إمبراطورية محمد على باشا قد ترهلت. حينما دعا المهدي إلى استبدال الباطل بالتقوى لمس وترا حساسا. هناك شىء يجب أن يتغير.

حينما نظر من النافذة على هدوء النهر، إلى أبعد من العلم الأحمر الذى يرفرف على الباخرة التى ترسو أسفل، رأى مركبا صغيرا ينحرف دون هدف، حسبما يحمله التيار. رفع رجل يده ولوح لشخص، على ضفة النهر يمكنه أن يسمع صوت الريح من خلال النخيل، أصوات تتحدث فى السوق كالعادة بالألغاز والإشاعات، وأنين الساقية وهى تدور مرة أخرى وما العلامات حتى الآن؟ مذبذب يعبر السماء: فلقة فى الأسنان الأمامية

وشامة على الوجنة اليمنى لرجل معسول الكلام تستسلم للابتسام. كان لدى علاء الدين إحساس أنه لن يرى أبدا هذا الرجل وجها لوجه. مع هذه الشخصية الغامضة لن يستطيع أبدا أن يحكم بنفسه إذا كان ادعاؤه صادقا أو زائفا. كان يتوق إلى أن يرى بعينه؛ لأن هناك شيئا مثيرا فى إنسان يجرؤ أن يتحدث جهرا عن أحلامه. فجأة، على النهر انتشرت أشعة من ضوء الشمس على الموجات المتكررة مثل حفنة من الرمال تبعثرت فى الهواء ومنها، وكأنه بالسحر، يبدو سرب من العصافير ذات الذيل الصفراء وكأنه يطير. خدعة ضوء أو شيء أكثر روعة؟

٥- الحصن المصرى الإيجلىزى الخرطوم

الآنسة إمىلىا تمارىند والذن
عناىة السىد إ. بى. والذن من دوڤىكوت
درىشىر فى رىدكوت هاوس
الخرطوم ٢ أغسطس ١٨٨٢
أعز من لى إمىلىا

حبىبىتى، أمل أن تصلك هذه الرسالة وأنت بأحسن حال. إن مجرد رؤىة اسمك مكتوبا على هذه الورقة ردىئة النوع لا أقوى على احتماله. أخبىء تفكىرى فىك فى أعماق قلبى؛ لأنى لا أحتمل أن أفكر متى سنلتقى. لقد كنت مغفلا عندما حضرت إلى هنا، يا مىلى، أدرك الآن أنه لم أكن أعلم ماذا أفعل. كان يجب أن أستمع باهتمام أكبر لكلماتك الحكىمة. فهذا حقا مكان بائس يؤسف لوجوده على أرض الله.

الصحراء التى عبرناها من ساحل البحر الأحمر أرض قاحلة، يسكنها همجىون من أسوأ سلالة بشرىة. وكانهم حىوانات غرىبة لها

رجلين، جلدهم بلون جلد سرج الخيل وخفيفى الحركة كالقروء، وأقوياء أيضا. يحاربون وكأنهم الشيطان نفسه يحفظون كل رقعة من الأشجار الشائكة عن ظهر قلب. الأسلوب الذى يعاملون به الحيوانات مخز، هذا فضلا عن انتشار الرق خارج حدود حمايتنا. إذا استطعنا أن نمد نشاطنا إلى حماية التجار الأمناء، ستتوقف هذه الممارسة غير الإنسانية.

أشعر مثل عجوز من ليفنجستون فى رحلة تبشيرية وتجارية، ولكن هذه هى الطريقة الوحيدة التى نقدم بها أنفسنا إلى هؤلاء البؤساء. من الصعب أن أشرح، يا ميلى، ولكن عالمهم هنا مختلف جدا لا نكاد نتوقع أن نفهم أسلوب تفكيرهم.

هذا الشخص الذى يدعى المهدي يسيطر عليهم. يقول بعضهم: إنه يدعى أنه الإمام الثانى عشر الغامض الذى اختفى طويلا، وهو قديس أو شىء من هذا القبيل. ويقول آخرون: إن هذه المعتقدات تنتشر فقط بين فئة معينة وليس بشكل عام. الأمر كله محير. لا نعلم. كل ما نعرفه أن أتباعه يضحون بأرواحهم من أجله وهم سعداء. من الصعب أن نفهم هذا النوع من الإخلاص الذى يحول أناسا بسطاء ومسالين بشكل واضح إلى حشود مسعورة متعطشة لدماء أى مسيحي. لا تنزعجى يا عزيزتى؛ لأننا مسلحون بشكل أفضل ونحن أفضل منهم من ناحية النظام والإستراتيجية العسكرية.

أرى أنتى متحامل قليلا. أمل أن تسامحينى على اعترافى لك، يا قلبى، يا حبيبتى. أنا هنا، أبعد عن الحضارة آلاف الأميال وأقاتل عدوا يقوم بما كان سيقوم به أى شخص محترم، أى الدفاع عن وطنه.

لا يستطيع المرء أن يلومهم على أنهم تعرضوا للخداع أو التضليل. أى أخبار تسمعونها فى الوطن؟ الصحف تصلنا متأخرة عن موعد صدورها كيف تصف جلاستون مجهوداتنا؟ كم أحب أن أشهد ذلك وأن أسمعهم يتناقشون حول مصيرنا فى ويستمينستر.

ورغم ذلك فهذه المدينة جوهرة خضراء صغيرة فى أرض مختلفة، سمراء معتمة مملّة. نقضى أوقات فراغنا فى التجول فى الحدائق الصغيرة، حيث درجات الحرارة فى الظل مع النسيم من النهر تبدأ فى الوصول إلى المستوى المحتمل. أنا متأكد أن والدك سيسعد بالحياة النباتية هنا. تحيط بى الزهور التى سميت على اسمك: قرون صغيرة رقيقة إلا أن الثمرة الصغيرة على الجانب المر، مما يجعلنى أتساءل إذا كان والدك محققاً فى اختياره هذا الاسم لك. كنت سأختار الياقوتية التى لها أوراق جميلة توجية تذكرنى رقتها بطبيعتك الرقيقة.

إلا أن المدينة تعج بالجواسيس الذين يبيعون جدتهم العجوز من أجل رغيغ عيش ولذلك علينا أن نحترس جداً. يقولون: إن العدو وصله الأخبار بدقة لدرجة أنه إذا أشعل الحاكم سيجارة، يعلم بها المهدي.

بالنسبة إلى زملائى من الضباط فيستغرق تعليم الفلاحين، نوى الدماغ بطفء الفهم، التفرقة بين طرفى البندقية معظم أوقات عملهم، ولكنهم فى الغالب طبيون ولديهم الكثير من القصص الشيقة لتمضية الأمسيات. عند ذكر زملائه الضباط وجد هاميلتون إلزورث ذهنه مشتتاً. رفع بصره من على المنضدة التى يجلس عندها ليجد طائر الحباك يحط على عتبة النافذة.

بعد سؤر المجمع السكنى يمكنه أن يميز المبنى المنخفض لمصنع الخراطيش. كانت ساعة منتصف النهار والجنود يرتاحون بعد التدريب. كالعادة، استيقظوا فى الخامسة هذا الصباح وذهبوا إلى النهر حيث حركوا البواخر على السطح ليجروا إلى أبعد من نقطة التقاء النيلين الأبيض والأزرق. تلتقى البواخر فى سعادة وتشكل قمة على السطح لا تلبث أن تسعد إلزورث، رغم أنه ليس من المفروض أن يشارك فى التدريب كل يوم، كان يعرض خدماته فقط للاستمتاع بركوب البواخر. كان النهر باردا ساكنا فى هذا الوقت من اليوم ومحى للعناكب التى تعشش فى رأسه. كان من الصعب أن يتذكر أنه وراء ضفافه المنخفضة الهادئة ونخيله الكسول أمام المرء معركة عليه أن يخوضها.

كل يوم ينزلون من البواخر فى مكان مختلف ويبدعون فى التدريب. كان من المهم أن تتم رؤيتهم وهم يحتلون أكبر جزء ممكن من المنطقة المحيطة بالمدينة ليس فقط على أمل أن يعطوا العرب انطباعا غير محدد عن قوتهم وأعدادهم، ولكن أيضا ليؤكدوا للوطن نقطة إستراتيجية وهى سهولة انتشار القوات عن طريق الباخرة. يوما بعد يوم يمارسون الروتين بينادق نوردن فيلدز: يركبون الحامل الثلاثى القوائم ويلحقون صناديق الزناد التى تطلق منها الخراطيش. فى أحسن الأحوال يبدأ المرء فى رؤية الحبال التى تربط بها الوحدة القتالية فى أماكنها.

اليوم لا يمكن أن يعد الأمر أقل من كارثة. بدأ بوصول جنرال هيكس الذى رقى حديثا إلى المكان. كانوا على ارتفاع حصان أقل وتحولت بسرعة عجلتهم ليؤثروا فى الجنرال إلى حالة زعر. كان

الكولونيل فركر مشغولا يحاول لوم أحد الأشخاص على المراقبة، بينما السيرجنت المحاصر يصرخ "معهلش" محاولا إقناع الكولونيل باستخدام بغل كبديل.

خلال هذه الاستعدادات، كانت مجموعة من الفلاحين تنصب أحد مدافع النوردين فيلدز. تبعثر الرجال كالذباب عندما بدأ المدفع العمل فجأة؛ لأن الرصاصات كانت تطير في كل مكان. سقط بعض الجنود على الأرض، جرى آخرون وهم يصرخون ليقفزوا في النهر. لحسن الحظ لم يجرح أحد - ما عدا فرس أصابته رصاصة في ردفها. هاج هيكس. وأخذ يثب على فرسه إلى أعلى وأسفل وهو يلعن فركر أمام الرجال، بينما استمر السيرجنت في اعتذاراته. "معهلش لك أنت". رد الجنرال بالكلمة نفسها: "هؤلاء الرجال لا يستطيعون أن يحاربوا فرقة رقص للبنات، فما بالك بحشد صارخ من الهمج المتوحشين". ابتسم الزورث وهو يتذكر أحداث اليوم. "سيكون هناك بالتأكيد الكثير من المزاح هذا المساء في مسكن الضباط".

إذا أدار رأسه إلى الجانب وهو ينظر من النافذة يمكنه أن يرى المسافن (*) Dockyards غرب المدينة في الموجران Mogran، يحيط بها الحى القذر الذى يعيش فيه العمال. على الجانب الآخر، فى مواجهة المبانى المحيطة من الطين والخوص المقر الراقى للإرسالية التبشيرية

(*) المسافن: أماكن بناء السفن (المراجع).

الرومانية والمبنى من الطوب المصمت المتين. بينما ترقد على مكتبه عدة تقارير استخباراتية عليه فحصها، لا أحد منها، وهو متأكد، سيحوى أى شيء ذو قيمة أو حتى يمكن الاعتماد عليه. عندما أنهى قراءتهم بلغته العربية الضعيفة وكافح ليفهم ترجمة أخرى غير دقيقة، لم تكد النتائج تستحق أن يرسلها إلى القاهرة. كان مذهولا من درجة تناقض المعلومات بين تقرير وآخر حتى قبل أن يجف الحبر. فالخبرون غالبا عملاء مزدوجون أكثر من أى شيء آخر. يبدو أنهم يتذبذبون بين المعسكرات ويستبدلون الكلمات بالنقود. مثل الروائيين فى الوقت الحالى أو أعضاء الفرق الكوميديا المتنقلة. لهم قيمة طالما لديهم قصة يلفقونها. كان من الصعب جدا أن يثق المرء بالترجمين ومنهم التجار المتملقون، والأقباط واليونانيون وتجار الخيل السوريون الذين يفضلون أن يخبروك بما تحب أن تسمعه أكثر من أن يتفوهوا بالأخبار الدقيقة أو الحقيقية.

"أرى أنك تتأمل أسرار الحياة مرة أخرى" استدار الزورث ليجد جسد شروود لوث الممتلى الذى يثير الضحك إلى حد ما، نوع من الابتسامة المفقودة على وجهه تظنها ابتسامة ودودة لكن الزورث يشك أنه يرسمها لتغضى نقصا فى الذكاء. يرتدى مرة أخرى كالعادة بدلة بييج واسعة فضفاضة، يبدو أن لديه منها عددا كبيرا، طرزه خياط فى المتجر بالقاهرة، الزورث يستطيع أن يميزهم بالطبع من خلال البقع المتعددة التى توصم الكتان الردىء.

خييط رفيع من الدخان الأزرق الرمادى ينبثق من بين أصابع لوث عبر كتلة الشعر الأشعث الملتف فى اتجاه العوارض الخشبية. نظر

بعينين نصف مغمضتين وسحب سيجارة وسأل باقتضاب: "هل توجد،
أى فتات أخبار اليوم؟".

مال إلزورث إلى الخلف فى كرسيه وابتسم ابتسامة عريضة "هل
كلكم يا معشر الكتاب فضوليون هكذا، أو أنها سمة شخصية؟".

لوح لوث بيده فى الهواء متحيرا وأعلن قائلاً: "لا توجد أخبار تهم
قراء الكرونيكل". ثم رفع يده وهو يتثأب ليغطى فمه. أما إلزورث فقد
غير، وهو مدرك ما عليه مواجهته، ورقة نشاف حبر بشكل تلقائى.
"أعتقد أنها خطيبتك؟".

وقف إلزورث وهو يجمع أوراق عمله بضيق واضح. "على أن أقول يا
لوث إنك تكون فظا عندما يسيطر عليك الغضب".
"لوث فظ، هذا أنا. أنا آسف".

استدار الصحفى بعيدا عن المنضدة؛ ليخملق حوله فى الحجرة.
وقال: متأملا: "إنها عادة من عاداتى السيئة".

قال إلزورث بتردد: "كيف عرفت أن رسالتى موجهة إلى سيدة؟" هز
شيروود لوث كتفيه.

"إذا كانت رسالة عمل ربما كنت ستسمح لى بإلقاء نظرة. فأننا لا
أمثل خطرا على الأمن. ولكن أمور القلب ...". هز إصبعه فى الهواء ولح
عيني إلزورث وأحكم قبعبته على رأسه. وقال: "ما رأيك فى جولة على
النهر؟".

"لم لا؟" تنهد الزورث. سحب سترته الحمراء والتقط خوذته البيضاء عندما كانا يتجولان فى المر الطويل البارد.

سأل الزورث: "أنت من شيشير أليس كذلك؟".

ثرثر لوث "لا ليس صحيحا جرافيسند، للأسف. أبى كان تاجر جملة - رغم أننى سمعت أنها جذابة".

"ما هى؟".

"شيشير" ابتسم المراسل. كما أنها ليست بعيدة عن دربشير أيضا".

ضربت الشمس بشدة على أرض المنتزه الجافة وكان عليهم أن يواجهوا ضوءها الشديد المفاجئ بأعين نصف مغمضة. جندى مشغول بتلميع ماسورة المدفع. النحاس يلمع كالذهب. استدارا بعيدا عن المناطق الغنية حول الأسوار العالية المغسولة بالماء لسراى الحاكم العام وعبروا مستودع الأسلحة وابدعوا السير فى اتجاه الحوائط المبنية من الطوب والشوارع العريضة التى تميز وسط المدينة.

رجل يسوق ثلاثة حمير محملة بالحطب يسير فى الاتجاه المعاكس ورائحة تمزج بين البراز والتراب تملأ أنوفهم.

قال شيروود لوث وهو يمد يديه حتى كادت أن تسقطا سلة من على رأس فتاة صغيرة تسير بجانبها " أحب رائحة هذا المكان. إنها تشبه جوهر الحياة ذاتها. إنها رائحة أصيلة". هز الزورث رأسه فى يأس. كان

لديه إحساس أن نصف ما يقوله له لوث مختلق والنصف الآخر كذب محض.

"أشعر بالحرية هنا" استطرد واستدار لينظر إلى الزورث "أليس هذا غريباً؟ آلاف الأميال تبعدني عن وطني، وتحيط بي الطقوس الوثنية والتعصب في مجتمع لا يتحدث اللغة الأجنبية التي يلتوى معها اللسان ومع ذلك فإنني أشعر بمثل هذا الإحساس من الحرية".

أمال الزورث رأسه جانبا وهو غير متأكد تماما مما إذا كانت ساقه قد شبكت في شيء ما.

وتنهذ قائلاً: "أنت محظوظ لا يجب عليك أن تقلق بشأن كتابة التقارير وسؤال المخبرين" ثم رفع يده ليؤدي التحية العسكرية لجندي عابر.

دار لوث على عقببيه ومشى إلى الخلف وهو يضع يديه في جيوبه. "استمع إلي، الآن، أفكر أن أكتب سلسلة من البروفيل. تعرف نوع قصة الجندي أعني فلنأخذك كمثال. أنت شاب في بدايتك جسدياً وأنت جندي. أنت هنا على حافة أكبر مغامرة في حياتك. فرصة أن تختبر نفسك في مواجهة العدو". يؤكد كلماته بتلويحات قوية من ذراعه وهو يضرب الهواء يمينا ويسارا. "دع القراء يعرفون ما تشعر به في مواجهة هؤلاء المتوحشين الهمج وخطيبتك الحلوة تنتظرك في الوطن. أنت المرشح المثالي". كان الزورث يهز رأسه بالرفض ويبتسم ابتسامة عريضة. وبتنهيدة اعتراض، استدار لوث وواصل السير. وقال: "على الأقل فكر في الأمر قليلاً".

كانا فى ذلك الوقت يشقان الشوارع الضيقة الملتوية إلى المنازل الأقدم حيث يعيش التجار، تلك المنازل التى تتميز بجدرانها العالية ومشربياتها البارزة ذات النقوش الدقيقة التى تشبه أى مشربية فى القاهرة أو دمشق. ثم انعطفا إلى أحد الأركان وأدرك إلزورث حينذاك أنهما يتجهان إلى منطقة سلامات الباشا سيئة السمعة والتى تنتشر بها بيوت الدعارة.

"ظننت أننا متجهون نحو النهر؟" لوح شيروود بيده. "التفكير فى النهر جعلنى أشعر بالعطش".

توقف إلزورث ليتفحص بعض المصاييح وضحك قائلا: "انظر إلى هذا. هذا ما يفعلونه بالقواقع القديمة. يقطعونها وينحتونها ويصبح لديك هنا - نصف دسنة مصاييح سحرية".

لم يخلب الأمر عقل لوث "الحاجة أم الاختراع".

ركز إلزورث على الأمر الذى يشغل باله فى المقام الأول "أعتقد أحيانا أنك تنسى الطبيعة الجادة لمهمتنا هنا".

"مهمتك هى قتل هذا الرجل الذى يدعى المهدي واستعادة النظام".

"حسنا ربما ولكن الأمر أكثر تعقيدا وأكثر خطورة مما تجعله يبدو".

انتصب الرجل الذى ينتمى إلى الكرونيكل. ثم مال تجاه إلزورث حتى كادت أنفاهما أن تتلامسا.

"لا تشعر بالتنازل وأنت تتعامل معى أيها الضابط. أعلم ما يدور

هنا. بل أنا أكثر علما منك بذلك".

دهش الزورث إلى حد ما من شدة هذه المفاجأة وانحنى قليلا. ثم أذعن قائلا: "ربما أنت كذلك". سارا فى صمت لبرهة، والشمس ساحقة والغبار يثور فى شرائط وكأنه أمواج كثيفة. بغل يجر عربة ثقيلة. الذبائح تتدلى فى خطافات الجزارين. فى الوقت الحالى يوجد طعام كاف ولكن بعد شهر، ستة أشهر أو عام. من يستطيع التنبؤ؟

كانا يسيران إلى الجنوب فى اتجاه الأزقة الموحلة حيث المنازل أصغر وأقل صلابة. هنا جنود أقل والزورث لا يحب أن يأتى بهذه الطريقة بشكل عام. وهو يعلم أن شيروود لوث لديه معرفة أفضل بهذا الجزء من المدينة، حيث يعيش معظم السكان البالغ عددهم حوالى ثلاثين ألفا فى تجمعات مرتفعة الكثافة. من الصعب أن تعرف هؤلاء الناس حلفاء لمن والضابط عليه أن يكون حذرا. وإذا نحينا الانتماء جانبا، ما زال هناك كثير من الناس مستعدين لمهاجمة ضابط أعزل لمجرد نيل شرف امتلاك مسدسه. فى نهاية الشوارع البعيدة توجد أرض فضاء تؤدي إلى المقابر وبعد ذلك أرض خالية بشكل أكبر والحوائط المنخفضة للحصون إلى الجنوب. صبى يحمل صينية خبز سار بجانبهما. لوح بيده للتحية العسكرية بطريقة ساخرة، تصحبها ابتسامة عريضة.

"الأطفال حقا جذابون، ألا ترى ذلك؟ لطاف جدا".

"نعم خصوصا إذا كانوا لا يعانون من التيفود أو الجذام".

توقف الزورث. "كيف أصبحت قاسى القلب إلى هذا الحد؟".

استمر لوث فى السير. أجاب: "لست كذلك. فقط لا أستطيع أن أحتمل الشفقة". بينما يسيران، فكر الزورث مليا أنه لا يعرف سوى

القليل عن هذا الرجل. لقد سمع شائعات على المائدة المشتركة للضباط أن لوث لا يمثل فى الحقيقة أى صحيفة، ولكنه أتى هنا متطوعا، بأموال حصل عليها من صندوق ائتمان أو بالاحتتيال أو غير ذلك. قالوا: إنه سياسى راديكالى يؤمن بأن كل الممتلكات لا يمتلكها أى فرد ولكن يمتلكها كل الأفراد فى الوقت ذاته. صنفه المقدم ستيوارت كمؤيد للأشكال الراديكالية من الاشتراكية وحذر الزورث بالفعل؛ كى يبتعد عنه.

انعطفا إلى أحد الأركان وتوقف لوث. نظر حوله وحك رأسه. هذا خطأ، كان يجب أن نأخذ المنعطف الأخير. "بينما شرعا فى الرجوع، شاهدا طفلا صغيرا يجلس خارج منزل يحشوفمه بالتراب غير لوث اتجاهه وركع بجانبه، وهو يأخذ يده ويهز رأسه"، "لا، لا هذا يؤذيكَ" ثم نظر إلى الزورث متسائلا: "كيف تقول ذلك باللغة العربية؟". هن الزورث رأسه، متذكرا فجأة أنه كان يجب أن يكون فى مكان آخر، إن لديه حصة لغة عربية هذا اليوم بعد الظهيرة. "تعالى يا شيروود، إنه لا يهتم - ربما هو يقوم بذلك طوال حياته. فقط اضربه ضربة خفيفة على يده ودعنا نذهب".

قام شيروود بذلك وبدأ الصبى فى الصياح بأعلى صوته. ظهرت امرأة عند مدخل المنزل وبدأت تصرخ فيهما وهى تسحب الصبى من على الأرض إلى مفصل فخذاها فى حركة واحدة. تجمع الآخرون حول المرأة وحاولوا تهدئتها وهم ينظرون بعصبية إلى الرجلين. بدأ بعضهم فى الصياح ولوحت سيدة بضربهما بمقشة كانت تمسك بها. تراجع شيروود والزورث،، يحنيان رأسيهما وينكسانهما وهما يسيران. بدأ حشد من الناس فى التجمع حيث غلق المارة كأوراق الشجر عند أحد

الأركان. شق الرجلان طريقهما وسط الزحام وشيروود يرفع قبعبته معتذرا وإلزورث يأمرهم بقدر ما يستطيع من صوت عال وحزم أن يخلوا الطريق. جريا نحو الميدان وانعطفا عند أحد الأركان ثم فجأة وجدا نفسيهما منقطعي النفس وهما يضحكان خارج القنصلية الإيطالية. مسح شيروود جبينه بمنديل من المفترض فى وقت ما أنه كان أبيض ونظيفا. أمسك إلزورث من ذراعه. "تعالى يا كابتن أعتقد أنه حان وقت تناول مشروب مرطب" وافق إلزورث. وقاد لوث الطريق إلى البار - كافيتريا متواضعة فى الركن الظليل من الميدان مقاعدها ومناضدها يشغلها موظفون غير نظاميين يشربون كوبا من الشاي، أو تجار يناقشون أعمالهم.

رمى لوث قبعبته على أقرب منضدة والمالك اليمنى جاء مسرعا إلى المنضدة يضربها بمنشفة ليزيل التراب. كانت القبة شيئا له علاقة بجلد الماعز صنعها لوث لنفسه لتحميه من الشمس. لسبب غامض كان يرى الأمر علامة على التميز الفردى ويدافع عنه بحماسة.

وضع اليمنى كوبين من الزجاج الرقيق وزجاجة أمامهما "هينيسى كونياك ٣ نجوم" قرأ شيروود وهو يلف سيجارة بين أصابعه. "شئ جيد ألا يستطيع مستر هينيسى رؤيتنا. ربما كان سيصاب الشاب بأزمة قلبية حين يدرك التقليد المضحك الذى يرتكب باسمه". كان البراندى مصنفا محليا وليس تحت أى رخصة معروفة. وكان من الواضح أنه المشروب الوحيد بين المشروبات الروحية المعروض خلف البار وليس بكميات صغيرة. رشف إلزورث من كوبه بحذر. لم يكن رجلا يعشق الشراب حقا، إذا كان هناك شئ واحد يخلق مشكلات فى علاقاته مع

زملائه الضباط فهو تحفظه أثناء جلساتهم المسائية فى شرفة نادى الضباط. خلال ساعات قليلة، ابتسم لنفسه، سوف يرقد لوث فى سريره فى الفندق يحاول التعلق ببقايا الزجاجاة، بينما هو سيكون مرة أخرى فى مكتبه ليضرب برأسه حائط الجهل الصلب. دق قلبه وهو يتذكر إميليا والرسالة التى لم يستطع أن يكملها وباندفاع مفاجئ تجرع كأسه.

"اثبت أيها الرجل العجوز، إنك تخجلنى".

تنهد الزورث وفك الزر الأعلى لسترته الحمراء. "لا أعتقد أن الأمر يهمك يا لوث ولكنى أفتخر بأداء واجبى".

"مرة أخرى تفكر بذلك. لم أشك للحظة".

"ماذا تعنى؟".

مال لوث بمرفقيه على المنضدة. "تمتطى جوادك العالى". سكب شرابا آخر وأشار بإصبعه إلى الزورث. "اصنع إلى كلماتى أيها الشاب. استمر هكذا وسوف تتحول إلى ماسورة بندقية متميزة".

سحب الزورث قطعة قماش من سترته وربت على جبهته. "أسف ولكن الأمر مخيف جدا عندما لا يحدث أى تطور من جانبنا".

لم يوافق لوث. "بالتخلص من سليمان العجوز سمعت أن هيكس سيتحرك قريبا جدا".

حملق الزورث "كيف يحدث أن كاتب عمود لعين يعرف أكثر من ضابط فى قسم المخبرات؟ هز رأسه رافضا عرض بشراب آخر وفرقع أصابعه ليستدعى اليمنى. "أعتقد أنه من الأفضل أن أتناول قهوة".

"نعم يا سيدى، قهوة سيدى" أوماً المالك وابتعد وهو يخفض رأسه.
هز لوث رأسه رافضاً موقف الزورث. "هل تعرف أن عليك أن تسترخى. بمجرد أن تذهب إلى هناك بين الهمج الصارخين سوف تسعد بكل قطرة تستطيع أن تضع يدك عليها من هذا".

مال الزورث إلى الأمام وخفض صوته "لقد هزمتنا الماكشيف Makskif، مما يعنى أن الطريق مفتوح أمامنا حتى سنار. Sennar. وهى نصف المسافة إلى الأبيض".

"لقد كانت هذه انتفاضة محلية صغيرة، وليس أكثر. ليس من المضمون أن يستطيع هيكس تحقيق البراعة نفسها هناك. سيستعد المهدي فى الأبيض وما حولها، ليس لدينا عدد كاف من الرجال، والعدد الذى لدينا درب بشكل سيء".

"أنت وأنا نعلم ذلك ولكن المهدي لا يعلم. سيعتقد أن العقاب الإلهي هبط على رأسه عندما يبدأ رجالنا إطلاق النار من بنادق كراسب على حريمه" لمح الزورث أقرب منضدة، تلك الملتصقة بشجرة تين صغيرة، حيث يتحدث رجلان. ربما هذا ليس أفضل مكان للتحدث بهذه الصراحة فى هذه الموضوعات".

راقب لوث الأمر بشغف "لا توجد أسرار هنا. إذا كنت أعرف، فكل امرئ من هنا وحتى الأبيض يعرف، إنها بلدهم".

نظر الزورث بحدة ثم خفض عينيه نحو المنضدة. "فى كلتا الحالتين ستكون معركة كبيرة تماما فلدیه أكثر من عشرة آلاف رجل كما علمت".

"غير مدربين، والأهم أنهم غير مسلحين إلا ببنادق المسكيت القديمة والسيوف العتيقة ولا مثيل لبنادق ريمينجتون كما ثبت مع ماكشيف".

حك الزورث ذقنه "سيكون من المفيد الخروج إلى ميدان القتال".

ضحك الصحفي ممتلئ الجسم بصوت عال فاستدار الميدان بأكمله فى اتجاههم "اللجنة على بلد يصعب فيه التريض يوم الأحد".

"ليس لديك كثير من الإيمان، أليس كذلك؟".

هز شيروود كتفيه. "تلك هى الحقائق. الناس هناك يخشون النخاسين أكثر مما يخشون جنودك الذين تحركهم كالدمل. إنهم معتادون على المنطقة وأهلها بشكل أكبر مما يعرفه ضباطك".

قاموا ليغادروا المكان وبينما كانوا يسيرون فى ضوء الشمس احمر وجه لوث، يعرق بسبب الكونياك حتى إن بقعة مستديرة أخرى ظهرت تحت إبطى سترته المجمعدين بالفعل فى الأيام شديدة الحرارة.

أصر الزورث على التفكير بشكل إيجابى "دعنا نرى ماذا يمكن أن تقوم به هذه الحملة. فهيكس رجل جيد. سوف نوقف الرجل الذى يدعى المهدي".

"إذا استطعتم أن تجدوه، فذلك... همهم لوث، حينئذ ضرب الزورث على ظهره برفق. "ورغم ذلك وأقولها كجندى حقيقى. أتمنى فقط لأجلنا جميعا أن تكون على حق". وهنا رفع يديه بالتحية ومشى يترنح فى اتجاه الفندق والزجاجة نصف الفارغة بارزة من جيبيه.

٦ - محافظة كردفان

١٨٨٣

وفى كل مكان يذهب إليه حاوى، كان يسمع القصة نفسها. الناس يتحدثون عن هذا المهدي وكأنهم يعرفونه جيدا. وكأن حضوره يمر بحاوى كالشبح فى الرياح المحملة بالغبار. إنه يجلب الراحة للوجوه الحزينة، ويمسح دموع البائسين، ويجذب النظرات الجادة على وجوه أصحاب القلوب الخالية من الهموم الذين ينكتون فى الأسواق. يذكر الناس اسم النبي ويدعون الله أن يبارك فيه كلما ذكروا اسمه. يشيرون إلى مواضع فى الرمل كان قد وقف عليها. يخرجون ملاعق خشبية كان قد تناول بها طعامه عندما مر بهذا المكان، وأكواب رفعها لشفتيه ليشرب منها. كل شئ محفوظ فى ذاكرته المقدسة، لقد دخل إلى عالم الأساطير، كان فى كل مكان وليس فى أى مكان فى أن واحد.

إن قدرا من الحماس للمهدى ربما يرجع إلى سوء سمعته، فقد أسس اسما لنفسه بوصفه رجلا مطلوبا وخارجا على القانون تجراً على تحدى الأتراك المكروهين. وبهذه الصفات يمكنه أن يدعى أنه يمثل الفقراء والمطاردين. لقد أذهلهم بحكايات الموظفين البسطاء الذين عاشوا فى القصور التى تقع على الأنهار المتلائة، والخدم رهن إشارتهم، وحيث

الطعام الذى يكفى لإطعام قرية يمكن أن يقدم فى حفلة بإحدى السهرات. لقد حصل على تأييد الأغنياء أيضا: الجلابة Jellaba من الجزيرة، والتجار فى المدن الكبيرة. كانوا على استعداد لتأييد أى شخص يدعو للتغيير لضجرهم من الضرائب والإتاوات.

وكلاء المهدي مشغولون بالسفر بعيدا لنشر نشاطهم فى كل أنحاء البلاد. والقصص التى سمعها حاوى كانت كثيرة، ولكن كل واحدة تروى بإيمان راسخ لدرجة أنه أصبح من الواضح له فورا أن هؤلاء الناس ليسوا فقط معجبين لكنهم جميعا أنصار مؤيدون. هذه ظاهرة مثيرة فى حد ذاتها. بالتأكيد لا يمكن أن يسمح رجل، يدعى أنه يمثل الله وأنه خليفة النبى محمد، لهذا الإعجاب الذى يقارب العبادة أن ينمو حول شخصيته.

مهما كانت الحقيقة، ففى هذه المناطق الجنوبية الغربية كان حاوى يحرص على أن يتنقل فى ملابس المهاجر لأن ذكر اسم المهدي للفلاحين أو التجار فى أى قرية يؤدى فورا إلى مظاهر الكرم: تقديم أماكن للنوم وطعام. يتجمع الناس حول المهدي بشغف، حتى فى تلك المدن التى ما زالت تحتلها قوات الخديوى. ويذا حينذاك أن المهدي ليس رجلا واحدا ولكنه رجال كثيرون يستطيعون أن ينتشروا فى أماكن عديدة فى أن واحد. "أتى ليقوم بدوره هنا. منذ عام وربما أكثر، كان المهدي يمشى هنا على قدميه خفيفا مثل ريشة، مرتديا أسمالا بالية وكأنه أفقر رجل فى العالم، وممتلكاته أقل من ممتلكات كلب. فلا يمتلك سوى مدوناته الدينية ومحبرته، وهكذا يمكنك أن تعرف أنه كان عالما ، ورجلاً شديد الثقافة".

يقاطعه رجل آخر قائلاً: "كل واحد كان يشفق عليه وكانت سلطانيته تملأ عدة مرات يومياً". "لم تكن فارغة قط ولو للحظة. وحينما كان يبدأ الحديث كان الناس يتوقفون ليستمعوا إليه. وكأنهم يأتون إليه ويلتفون حوله بسحر يعجزون عن الشفاء منه. إنه مشهد يدهش المشاهد".

"هنا بالضبط. بالضبط حيث تقف، وقف وتحديث عن الكلمات المقدسة التي تحدث بها محمد وعن الأسلوب الذي سمح به الوقت بإفساد رسالته. بالطبع كان يقول: الحقيقة، كلنا نعلم ذلك. علينا فقط أن ننظر تجاه المكان الذي يعيش فيه الحاكم لنعرف أى نوع من العدل فى هذا العالم اليوم".

"كان يقول: الحقيقة" تدخل آخر قائلاً: "لم يقل أبداً أشياء غير حقيقية".

أحياناً يختلف الناس حول التفاصيل. يقول أحدهم: كان رجلاً قليل الحجم". "قصيراً" ويستطرد آخر: "لا تعرف ما القصر لأن رقبتك أطول من رقبة الزرافة". لقد كان طويلاً ونحيفاً أيضاً، ولكنه كان رقيق المشاعر يعكس ذلك ابتسامته وعيناه التي كانت ذات لون غامق ولكنها تحمل نورا أقوى من نور الشمس. كان مجيئه بالصدفة عبر الرمال ووقفنا جميعاً نحملق فى دهشة. "مثل ضوء نجمة لامعة جداً، مثل الذهب". أحياناً ينفجر الضحك عندما يحكى أحد الأفراد بتأثر شديد محاولاً وصف الأحداث. "كثير جداً من الشعراء حولنا هذه الأيام. لقد كان نحيفاً، لا يكاد اللحم يغطى عظامه، ولكن ليس نحيفاً كالسحلية. وعيناه كانت

تشع بالدفء ولكنها ليست متوهجة كالشمس أو أى من هذا الهراء وكان يتحدث بوضوح".

"كان يتحدث شعرا. شعرا حقيقيا نابعا من الروح. يتدفق من خلاله لدرجة أنك تشعر أن حديثه صادق مثل كلمات الرسول نفسه".

"لقد كان يتحدث بالألغاز. ومعظم الناس فى هذه المناطق لا يستطيعون فهم كلمة مما يقول: - كانوا فقط يومئون برؤوسهم ويبتسمون وكأنهم قطع من الماعز".

كانت المعارك تنشب لأن الأمر شخصى مثله مثل الإيمان.

"كان يتحدث بكلمات واضحة، يستطيع أن يفهمها الجميع حتى الأطفال. لماذا؟ قالها بنفسه. "إن الحقيقة أوضح من أكثر ساعة تسطع فيها الشمس"، إن كلماته هى التى أشرقت مثل الشمس وليست عينيه".

وبالتدريج تحولت الأيام إلى أسابيع وكبر القمر وابتلع الشهور، بزغت صورة معينة لرجل يأتى هادئا، دون جلبة، لا يطلب سوى الفتات لسلطانيته، ومكان يحميه من المطر أثناء قضاء الليل. كان يرتدى أسمالا بالية، جوبا بسيطة تغطيها البقع وخفا رفيعا. على رأسه غطاء مصنوع من وبر الإبل. تثرثر النساء ويعدلن أطفالهن على أردافهن، وهن يلوحن بأيديهن محركات أصابعهن فى الهواء. كان يحيطه سرب من اليمام الأبيض. يشكل دائرة من الظل تحت قدميه أينما سار. ربما كان هذا مجرد إدراك متأخر، ولكن بدا أن هناك إحساسا منتشرًا بأن الناس غالبا ما يتعرفون عليه فورا وكأنهم ينتظرون مجيئه. فى جبل شيكيدا

قابل حاوى تاجرا أخبره بالقصة التالية وحدثه بوصفه خبيرا فى الموضوع وقد بدأ حديثه قائلا: "تعرض لموقف مخزٍ مع الشيخ محمد شريف. لقد كان المهدي تلميذه، ولكن المهدي نقد شيخه لتفاهته فى الاحتفال بطهور ابنه". كان التاجر يجلس القرفصاء ويمد يده من حين إلى آخر ليهش الذباب عن كومة من البلح بمروحة منسوجة من الخوص، أطلق الشيخ عليه اسم الخائن وطرده من الطريقة. حاول المهدي الرجوع بكل الطرق ورأسه يغطيه الرماد. ارتدى نيرا خشبيا، شوبا، حول رقبتة كالعبد. لم يلبس أية ملابس سوى جلد الماعز حول خصره. أين يذهب؟ ماذا يفعل إذا طرده أستاذه؟ لم يندم الشيخ، ولم يوافق أن يسمعه. ذهب محمد أحمد إلى الشيخ قرشى الذى كان يسكن قريبا. وعندما سمع شريف أن تلميذه ذهب إلى منزل منافسه. بعث برسالة يسامحه فيها". ابتسم التاجر وهز إصبعه النحيف وقال: "لكنه الآن، لا يحتاج إلى شريف، لذلك أعاد إليه الرسالة قائلا: "لا أحتاج إلى عفوك؛ لأننى لم أخطئ". وهكذا بدأت القصة فى الانتشار، أن هذا الرجل رفض العفو من رجل عظيم كالشيخ شريف "اتسعت عيناه وتمايلت رأسه من جانب إلى آخر. "قالوا: إنه الزاهد، الناسك الذى يعتزل العالم. إنه يتحدث بالحقيقة وإن الشيوخ كلهم يعيشون حياة مرفهة جدا. حينذاك بدأ يطلق على نفسه اسم المهدي المنتظر".

"كيف فعل ذلك؟ كيف كشف عن رسالته الدينية".

لم يكن بحاجة إلى ذلك. ألم ترها؟ جديدة فى السماء، لامعة جدا. ألم ترها؟ إنها علامة".

نظر حاوى إلى الأرض حيث يزحف النمل. وقال: "هناك قصص كثيرة فى العالم".

ولكن التاجر ثابت على رأيه لا يهتز، هز كتفيه مستهجنا بسرعة وواصل قصته. "كان معروفا هنا منذ زمن طويل قبل ذلك. يقول بعضهم: إنه وصل فى أسفاره بعيدا جدا حتى جبل مارا. فى كل مكان كان يذهب إليه تمتلئ سلطانيته المستجدية. كانوا يستمعون إليه وهو يتحدث عن الظلم والمعنى الحقيقى للإيمان. كان يتحدثا لبقا ورغم أنه لم يفصح أبدا عن غرضه الحقيقى، كانوا ينتظرون. ثم جاءت النجمة"، حرك يده فوق رأسه "تنوهج عبر السماء، تملأ الظلام بالضوء، ولذلك عرفوا أنه جاء إلى العالم. كنا ننتظر منذ وقت طويل".

خيم الصمت على الرجلين ثم قال حاوى وهو يفكر: وصلنا إلى حيث بدأنا. شعر بذلك حتى النخاع، شعر بروح الرجل الذى كان يسعى إليه فى خشخشة الشجيرات الشائكة مثل خيط الحشرات الصغيرة التى تزحف عبر حبات الرمال، شئ عكر صفو الأمور هنا، أزعج السطح الهادئ للعالم. ولأول مرة فى مهنته كعالم دين، للمرة الأولى منذ أن أحنى رأسه على ثنيات الكلمات وخربشاتها تلك الكلمات التى حفظت فى قلبه. فيما بعد، شعر بما كان عليه الأمر فى البداية، فى لحظة الانتقال عندما ولد الدين، عندما ظهرت كلمات الله للإنسان. شعر بالرب. على مدار كل هذه السنوات، لم يشعر بشئ حقيقى كهذا. أغمض عينيه بإحكام وسحب نفسا عميقا. هذا اختبار له. ولهذا عاد.

الجزء الثانى

شايكان

٧- حصن دويم، النيل الأبيض

سبتمبر ١٨٨٣

سبب إطلاق النار فى المساء رائحة دخان وأومض داخل أقواس الحصن. رائحة الروث المحترق وطققة الخشب الجاف تخللت الأحاديث الهامسة بين الرجال المنتشرين فى المكاتب والثكنات وحولها. بوابات الحصن مفتوحة، تمددت القوة الاستكشافية عبر أرض الاستعراض العسكرى، إلى السهل المنتور بالنجوم خارج المدينة. بعد ثلاثة أيام هنا، هناك إحساس ضعيف بالنظام، بالنسبة لحشد الجنود، والتجار والعديد من الممولين والتابعين للمعسكر. يصحب نقيب الزورث فى جولاته مساعده، سبراتلنج وهو شخص قصير ممتلئ رغم أنه أصبح متيبس العضلات، بينما كان فى الماضى طيع ورشيق. فى شبابه كان سبراتلنج ملاكماً فى بطولات القوى وسبقته سمعته إلى الجيش. "العجوز الضئيل" كان يطلق عليه ذلك بطريقة عاطفية رغم أن الأسباب - وبعضها يعود إلى مهارات الملاكم، يفوت الزورث فهمها.

لا يشترك الرجلان إلا فى القليل، فليس لـديهما التجارب نفسها والخبرات السابقة والاهتمامات. سبراتلنج كان نائب عريف بحرى محترم وحازم. الضباط بالنسبة له ينتمون إلى صنف آخر. تعيينه فى المهمة غير المقنعة وهى رعاية ضابط من قسم المخبرات ليس لديه خبرة خارج أرض الاستعراض العسكرى كان أحد أنواع الظلم الذى تعرض لها سبراتلنج. وبينما الرجلان يسيران جنبا إلى جنب تحت النجوم، لم يبذل أى محاولة للاستجابة لحديث الزورث القلق باستمرار. سبراتلنج يومئ وينجز بهدوء قدر المستطاع وهو ينتهز كل فرصة ليصب جام غضبه على المجندين. "ارفع هذا الشئ عن الأرض أيها الجندى! إنه من المخزى أن تتسخ هذه القطعة من الصناعة الباهرة بهذا الشكل ولا ترد بكلمة "معهلش" اللعينة يا بنى".

قال أحد الفلاحين شيئا بصوت عال وضحك الآخرون. لوهلة رأى الزورث الأمر مرة أخرى: الإحساس بأن ما يجمع هذا السيرك كله معا خيط رفيع من عدم التفاهم المتبادل. هز سبراتلنج رأسه. "مجموعة من القرود اللعينة".

"إنهم أملنا الوحيد يا سبراتلنج فدعنا نصلى من أجل أن يحاربوا".
"نحتاج إلى ثلاثة شهور. ثلاثة شهور من التدريب ويمكننا أن نذهب إلى هناك". سدد سبراتلنج لكمة بقبض يد لراحة اليد الأخرى. كلام فارغ، صدم الزورث رغم أن هذا التفكير لم يكن ليمر بخاطره منذ شهرين فقط بالخرطوم. كان سبراتلنج درس تاريخ يمشى على الأرض، كما علق شيروود لوث بسخرية: إنه يتطلع إلى المعركة*.

كان الناس يجتمعون فى الموضع الملائم حول ضوء النيران يغنون ويقرعون علب الطعام المحفوظ الفارغة. الخيام تمتد بيضاء ومنتفخة محاطة بالظلام، حيث لا شئ سوى الأرض الواسعة ذات الأشجار الخفيضة والأدغال الشوكية التى يمكنها أن تقتلع المرء من فوق جواده وتمزقه إربا إذا تقدم. كم يتوق الزورث إلى الوديان الخضراء، وصوت الماء العذب يسيل سعيدا عبر جدول! تحت الشرفة المبنية من الطوب المحروق ينام جندى تحت مدفع وكلب هزيل يلعب بقايا عظمة مشوهة ملقاة على التراب. عبر الزورث وسبراتلنج الحراس عند البوابة الواسعة ذات الأعمدة ودخلوا إلى فناء أصفر بالقرب من أرض الاستعراض. كانت الأقواس الحجرية تضاء بمشاعل مزروعة فى الرمال. تجمعت مجموعة من الضباط فى الوسط بجانب خيمة بيضاء تتعارض مع ما حولها: مكتب جنرال هيكس الخاص. كان الضباط يتحدثون اثنان وثلاثة ورائحة دخان التبغ والأصوات العالية الحميمة للرجال الذين كانوا يشربون تملأ الرقعة المرصعة بالنجوم فوق رؤوسهم. كان من السهل تمييز الأوروبيين؛ لأنهم يأخذون جنبا ليس بسبب أى قواعد للنظام ولكن بحكم العادة. والمصريون يقفون متجهمين على جانب، غير قادرين على فهم الذكريات البريطانية والحنين إلى الوطن.

استأذن سبراتلنج واختفى. نظر الزورث حوله ليرى الجسد المألوف للجنرال وهو يتجول، سيجارة فى يد وكأس البراندى فى اليد الأخرى. يومئ هنا وهناك ويتبادل كلمات قليلة وحينما وصل إلى مركز الميدان رفع يده داعيا الآخرين للانتباه. "تجمعوا حولي أيها السادة من فضلكم".

سار الضباط جارين أقدامهم. عندما تأكد أنهم جميعا على مرمى السمع منه رفع كأسه التى تلالأت تحت الأضواء. أنجزنا عملنا جيدا أيها السادة بالنسبة لليوم. وياتحاد قوات الحاكم العام وقواتى أصبحت قوتنا الاستكشافية على أتم الاستعداد، "إننا ننوى أن نهاجم دون تأخير" صمت هيكس الذى لم يكن متحدثا لبقا. "تحت تصرفنا مجموع سبعة آلاف من المشاة، خمسمائة من سلاح الفرسان وأربعمائة من الفرسان غير النظاميين إلى جانب حوالى ألفين من أسلحة متنوعة" انخفض صوته تدريجيا وابتسم دون سبب، وظل محمقا للحظة فى حدائه ذى الرقبة العالية، وكأنه نسى شيئا ثم رفع بصره بحدة "سيرجنت برادلى أين أنت؟ أه نعم" كان السيرجنت كالعادة أمام عينيه "سيرجنت كم تعداد الجمال الأخير؟".

وقف برادلى مستعدا ذراعا إلى جانبه وقال: بصوت عال: "خمسة آلاف وأربعمائة وخمسة عشر سيدي".

ظهر على وجه الجنرال نظرة استمتاع. رفع كأسه وابتسم "هذا أيها السادة إجمالى مؤننا وذخيرتنا". بدت الوجوه المكفهرة أكثر لطفا حينما استغرقت فى الاستعدادات اللوجيستية التى تحدد مصيرها.

أخذ هيكس نفسا عميقا وحملق فى علاء الدين باشا صديق الذى وقف على جانب يدخن سيجارة بهدوء. "الحاكم وأنا" بدأ كلامه بشكل دبلوماسى "كنا نناقش أمر الطريق الذى نتقدم من هنا عبره. يبدو أن هناك مجرى مائى موسمى اسمه... شئ ما" ألمح إلى الضابط المصرى الأعلى، حسين مظهر الذى قام بواجبه بتذكيره بالاسم: "خور الهايل" Khor al Habil.

هذا هو الاسم الذى ضاع من ذهنى "قال هيكس ساخرا": على أية حال سنتقدم عبر هذا الطريق الجنوبي الذى سيمدنا بالماء بشكل جيد كما أكد لى الحاكم العام المبجل. إنه طريق طويل حوالى مائة ميل والأرض وعرة. كما تسكنها قبائل معروفة بتعاطفها مع صديقنا المهدي. سوف يقودنا، رغم ذلك إلى الأبيض من الجنوب وهذا سيعطينا عنصر المفاجأة". نظر الجنرال بعيون يملؤها الأمل وكأنه نصف متوقع أن يسمع صوت التصفيق. كان شيروود هو الذى أسرع بالسؤال الواضح "إذا كان الطريق أطول وأصعب، ما الميزة الحقيقية لاتباعه؟ بالتأكيد إذا أسرعنا عبر الأرض الخالية إلى الشمال سوف يؤدي الأمر الأثر نفسه بالنسبة لعنصر المفاجأة؟".

ابتسم هيكس برقة وكأنه كان يتوقع هذا السؤال بالضبط واستدار لعلاء الدين باشا ليمسك يده وكأنه يسأله النور التالى فى رقصة مسرحية غامضة: خطأ الحاكم العام ليتوسط دائرة الضباط وألقى بسيجارتته على الأرض. ولأنه كان سيوجه الحديث لضباطه باللغة العربية، أشار إلى مترجمه، وضع يديه خلف ظهره ووقف ورجليه بحذاء ركوبه ذى رقبة عالية متباعدتان إحداهما عن الأخرى فى الرمال. "حتى لا يشيع الشك بينكم لا بد أن تعرفوا أن الاختيار ليس سهلا. فى هذا الوقت من العام ربما تكون الآبار الخاصة بالطريق الشمالى عبر باره جافة، Bara ومن غير المحتمل، على الأقل، أن يكون فيها من الماء ما يكفى لاحتياجات مثل هذه القوة الكبيرة. أما الطريق الجنوبي فيضمن لنا فرصا أفضل للعثور على الماء. كان الحاكم يتحدث بثقة ورغم عدم

معرفة الجيدة بالبلد كان يتحدث فيما يتعلق بتضاريس الأرض مما حقق الهدف. نظر إلزورث فى اتجاه شيرود لوث، ولكن المراسل الصحفى كان يتراجع إلى الوراء، وهو يكتب بسرعة غاضباً فى مذكرته، ويخطو على أطراف أصابعه بطريقة غير متقنة. نمت بينهما جفوة منذ أن تركا الأمان النسبى للخرطوم - شئ له علاقة بحقيقة أن جزءا كبيرا من وقت إلزورث ابتلغته واجباته اليومية، ولكن أكثر من هذا بسبب أن آراءهما حول هدف البعثة وفرصها فى النجاح كانت مختلفة. إن علاء الدين الذى يتحدث بوضوح، كانت له الكلمة الأخيرة. إذ قال: "ليس هناك طريق يضمن لنا الأمان الكامل أو مصدرا للماء معروف ويمكن الاعتماد عليه. ولذلك يجب أن نسير فى حذر". حيا علاء الدين الرجال وأضاف نون أن يحمل حديثه أثرا للسخرية: "ليكن الله معكم ويرشدنا إلى الأبيض".

إن الليل بارد الآن والنيران خفتت متحولة إلى فحم متوهج. الريح المحيطة بالساحة تدفع الرماد الأبيض وجذواته نحو السماء المظلمة. تفرق حشد من الضباط وهم يتهامسون فى الخارج. الرجال ما زالوا يغنون، الأصابع التى لا تتعب ترتجل وتدق على الطبول. تبدو النجوم فى السماء وكأنها تحدق من فوق حافة الكون، وتجعل هذه الحملة من رجال الجيش تبدو فجأة تافهة وبلا معنى. كانت هذه هى الأفكار الأخيرة لعلاء الدين باشا صديق حينما تمدد على سريرته النقال يحاول أن ينام.

٨- مدينة الأبيض

١٨٨٣

تستيقظ أسوار المدينة مضجرة مع الفجر. تميل الشمس إلى أعلى، تصفر الصخور المتناثرة، ويهدأ الهواء. تطلق الغربان في السماء، ترفرف أجنحتها غير المنتظمة مثل أسماك بالية بيضاء وسوداء. كل إنسان مصنوع من الأسماك البالية كما يقول: المهدي.

إلى الأسفل من ذلك بمسافة بعيدة، مجموعة صغيرة من الأكفان بدأت تتحرك. أطرافها متيبسة ومتجمدة من برودة المساء والسرير الصلب من الصخور والرمال الذي كانت تريح عليه عظامها. الأطفال، ما زالوا جوعى، يحكون أعينهم والتراب يجعل الدموع تنبثق منها. يلف المهاجرون أقمشة خفيفة حول وجوههم التي تركت عليها الرياح علاماتها ويبحثون بأصابع طويلة عن أمهاتهم، آبائهم، وأبنائهم وبناتهم ويرون إذا كان الحب ما زال حيا يتنفس أو أن الحياة قد هربت بينما هم مستقلون يحلمون.

أخيرا يرون مطلبهم أمامهم: تقف الأبيض كإجابة مخيبة للأمال بائسة وناقصة. توقفوا عن المشى بجدية بعد هطول الظلام الليلية الماضية. لأنه ليس هناك معنى للتوقف بينما ليس لديك طعام لتعده، أو شئ تتطلع إليه ولكن ساعات من الانتظار حتى يأتى الصباح مرة

أخرى، انتشروا فى الغبار مثل حفنة من الريش أسقطها غراب، متعبين لدرجة أنهم لا يقوون على التحدث، صامتين تحت شبكة النجوم لا يقدرون أن يتحدثوا عن أسوأ أفكارهم.

أتى الفجر باليوم الحادى عشر. غموض إرادة الله يزداد. الطريق طويل وهم غير مستعدين له. ليس لديهم سوى إيمانهم ليبقيهم على قيد الحياة ولا شيء سوى إيمانهم أيضا سيفقدونه. يتذكرون أن المؤمنين الأوائل أيضا قاموا برحلة عبر قفور الصحراء ولهذا يهتمون بالشكر لكل يوم يمر عليهم وهم أحياء، لكل خطوة يخطونها. الله سيهديهم. لقد أعطاهم الله معزة تدر لبنا حامضا، وأطفالا يسقطون على الأرض الحارقة وأعينهم تحلق إلى أعلى. كانوا يدفنون هؤلاء الأطفال بسرعة، يحفرون الأرض الصلبة بأصابعهم، بأى قطعة خشب تقع عليها أيديهم؛ لأن الله أرسل لهم مجموعات من الكلاب المسعورة التى تتبختر خلفهم وهى تنبح فى الظلام وتنبح فى أكوام الحجارة التى تركت لتكون علامة على أماكن الدفن. هناك حكمة من كل هذا لأن الله يعلم كل شئ ويرى كل شئ.

جلس حاوى منتصبا ولف رباط رأس بنى قذر حول جمجمته. إنه مهاجر يتجه إلى مدينة النور. يتحرك إلى الأمام والخلف، يثنى ذراعيه ويفردهما محاولا أن يستعيد قليلا من الدفء.

اقتربت المدينة، هيكल مطبوع فى الرمال. الأسوار الطينية التى حمت المدينة أضعفها موسم المطر. مرت تسعة أشهر منذ سقطت المدينة، أو حررت. بوابات الحصن مفتوحة وأى شخص حر فى الدخول أو الخروج. المدافع التى تم الاستيلاء عليها يعمل عليها الجنود أنفسهم

الذين صوبوها نحو الأنصار عندما هاجموا المدينة؛ لأنهم أفضل من تعود استخدام مثل هذا النوع من الأسلحة. لقد أقسموا على الولاء فمرحبا بهم.

تجمع الرجال يحملون الرماح والمداري حول مدخل المدينة، يتحدثون بصوت مرتفع. بعضهم تميزه الندبات التي تركتها المعركة على الجسد والروح. أحدهم فقد ذراعه. تحمل مثل هذا الجرح معجزة في حد ذاته، فكر حاوى. يرتدون جوبات مرقعة، السمق البسيط الذى يغطى ملابس التجول يضفى إحساسا بالفموض بالنسبة للرجل العادى، يرفعه بدوره إلى مرتبة النبلاء. يحملون تفانيهم بكبرياء. ودهش حاوى مرة أخرى بانحراف النظام الذى يشهده. مجتمع جديد يتكون - بدون حدود ينمو فى داخل الناس أنفسهم، مجتمع إيمان، ولكن أكثر من هذا. مجتمع أمل. ما كان يوما صلبا ثابتا أصبح الآن سائلا متحركا.

الصغار يطاردون بعضهم بعضا، يضحكون ويتدحرجون على الأرض وهم يقلدون المحاربين. صبية صغيرة ترعى قطيعا من الماعز فى اتجاه بئر. تاجر يتهادى على قطع من البغال التى تحمل العطور والتوابل الحريفة من التلال المليئة بالذهب نحو الجنوب. يبدو أن الحياة اليومية تسير بشكل عادى رغم التهديد الذى يحدق بها. المهاجرون الجدد يطوفون حول البوابات دون أن يعوقهم شئ. يسيرون وكأنهم فى نوم عميق فى اتجاه وسط الزحام. الوجوه التى أصبحت مألوفة فى الأسابيع الأخيرة تذوب، تتلاشى مع غيرها الآن منسجمة فى كيان كامل.

إن المدينة قد هجرها أهلها، وجردتها الحرب من كل شئ. يبدو أن

بناء العالم الجديد يتطلب هدم القديم. المباني التي تحيط بالساحة أتلقت أثناء الحصار الذي انتهى بما يعرف الآن بمعركة يوم الجمعة. كل شيء تغطيه علامات وسواد بسبب الدخان والنار. بقرة نحيفة تقف على سلالم المقر السابق للحاكم وهي تحملق بكسل في المارة. شمس منتصف النهار التي تتخلل الفتحة التي تحل محل السقف السابق تضيء الداخل.

ساحة السوق هي أيضا مكان عمل منفذ عقوبة الإعدام. جسد منتفخ يتدلى من المشنقة يهتز إلى الأمام وإلى الخلف بثقل الغربان رمادية اللون التي تستقر فوقه. رغم صيحات التجار والصخب اللامتناه وصرخة درويش من حين إلى آخر يدور بسرعة، معلنا تفانيه، رغم كل هذا هفاك جو قاتم يحيط بالمدينة. أمسك حاوي بكتف رجل يسير وهو يحمل دجاجتين في كل يد.

"منزل الشيخ عباس؟" سأله بصوت أجش.

ضحك الرجل "كل الشيوخ الذين أعرفهم في المقابر" عض حاوي شفطيه. "المقابر"، أعاد الكلمة وهو يفكر. هو الآن وحيدا. وكأن المدينة عادت بالزمن حوالى مائة عام. استدار وسار عبر الأطلال المتفحمة، الدبش المتبقى من المعركة، محاولا أن يستعيد بذهنه كيف كانت قبل ذلك.

كان الوقت بعد الظهر عندما دخل الحجرة ذات السقف المنخفض تحت الأرض حيث أجساد الموتى يتم غسلها قبل الدفن. شمعة مصنوعة من الشمع الحيوانى مشتعلة، وخيوط من دخان البخور تصدر من مقبرة لتساعد على القضاء على الرائحة النتنة.

"الشيخ عباس؟ هل هو هنا؟"

زوجان من العيون التى لا يعرفها واللذان تركزان على قماش مربوط بإحكام استدارت فى اتجاهه ثم نظرت بعيدا . تمتص صاحبهما تمتمة غير مفهومة وابتعد فى الحجرة الطويلة، حيث الأجساد تتمدد على أرضية من الطين الرطب يتم تبريدها بالماء. أشباح إنسانية يغمرها الظل تعبر فى الظلام الذى لا يقطعه سوى شعاع رفيع من ضوء الشمس الذى يدخل عبر فتحة ضيقة فى السقف. شعر حاوى بمزيج من الفزع والاشمئزاز لقد كانت الحجرة مثل المقبرة، باردة ومثيرة لذلك الخوف الذى تثيره الأماكن المغلقة.

اقترب شبح رجل عجوز متيبس مع تقدم العمر وناقد الصبر، وربما غاضب فقط؟ لقد بدا فى عجلة لينهى عمله. من يحملون الموتى يسرون بطريقة سيئة، يتخبطون بعضهم فى بعض ليباعدوا عن طريقه. اقترب الرجل العجوز أكثر. رفع رأسه ليجد أن شيئا ما يسد طريقه ويعوقه، أشار إلى حاوى أنه يتخذ جانبا، واندفع فى طريقه مارا به ثم توقف فجأة. استدار ببطء وبدأ وجهه يميل فى اتجاه ابتسامة. أوماً بضعف فى اتجاه الخروج وتحرك هو وحاوى نحو السلالم دون أن ينطقا بكلمة وهم يحييان أحدهما الآخر. فى هذه اللحظة حدثت فوضى: بعض الرجال الذين كانوا ينزلون فقدوا قبضتهم وانزلقت الجثة التى كانوا يحملونها على الأرض. وبينما هم يحملون، سقط الجسد المنتفخ بالعفن على جانبه وانشقت البطن وهى تصطدم بأرض الحجرة، وملأت الحجرة بغاز خانق كرية تشبه رائحته رائحة المستنقعات.

امتدت الأيدي فى ذعر، وسحب الميت بدون طقوس ورأسه تضرب على الأرض إلى الحجرة الطويلة وسط جلبة من الأصوات المثارة. شعر حاوى بغصة فى حلقه. شق طريقه إلى الهواء الطلق ومال على الأرض، وهو يتقيأ.

عندما نظر إلى أعلى كان الرجل العجوز بجانبه. فتح الشيخ عباس ذراعيه على اتساعهما وحضن حاوى. "الآن، تأتي؟ الآن، حين ينهار مركز العالم تختار أن تعود؟" وأمسك أحدهما بالآخر بطول ذراعيهما، كانت أعين الشيخ العجوز تلمع بالدموع.

٩- بعثة هيكس

فى الطريق

الماء والتفائل يجفان. الزورث يستلقى على ظهره وهو يحملق فى لوحة السماء. من مكان ما على بعد يستطيع أن يسمع الصوت الذى أزعجه على مدار أسابيع: أنين الجمال. ملأ رأسه فى الصباح والمساء، مع الرائحة غير المحتملة. الحرارة غير محتملة، رغم الأقمشة المرطبة الملقوفة حول جبهته التى يرش عليها ماء اللافندر من حين إلى آخر لكى ينعشه. شعر وكأنه يطفو على تيار من الهواء الخانق داخل فرن. ليس هناك أية نسمة فى هذا الوادى ذى الأسوار المنخفضة الذى حبسوا فيه. رفع الأقمشة من فوق وجهه واستدعى سبراتلنج. يغمره إحساس خانق من الذعر. إنه يموت. استولى عليه اقتناع تام بذلك. وكأن يدا تخنقه.

حلم أنه يموت. إنه مات فعلا. جسده ثقيل كالرصاص يغرق فى الطين الدافئ الطرى. كافح ليقيم نفسه واستطاع أن يقلب الغطاء على جانبه. لقد كان يتبول فى المبولة. أدرك هذا ببعض من الارتياح، إذ كان مقتنعا لوهلة أنه دم. قال لاهتا: "سبراتلنج". ثم كانت هناك أيد تمتد إليه وصوت مألوف، دافئ مثل صوت أمه، يقول: "هيا يا سيدى إنك على صواب". "هل هى الحمى، سبراتلنج أيها الرجل العجوز هل أنا أموت؟". "تماسك يا سيدى". سبراتلنج رابط الجأش مثلما هو دائما يساعد

إلزورث ليقف على قدميه، وأخذته متلطفا نحو حاشية الخيمة "لا يوجد هواء فى الخيمة اللعينة يا سيدى. سوف نخرج فى الهواء الطلق وسوف تشعر أنك معافى".

"نعم، نعم طبعا، شئ سخيى منى" كان إلزورث يتحدث بصعوبة، كل شئ يبدو غائما وبعيدا، وكأن أذناه يملؤهما الشمع. "كان هناك رنين أيقظنى، مثل الغناء. هل هناك شخص يغنى فى مكان ما يا سبراتلنج؟". "غناء يا سيدى؟". عبرت وجه المساعد الرزين نظرة قاتمة. "لا" أجاب بسرعة: "لا أحد يغنى".

وحيثما خرجوا من الخيمة، بدت الحرارة فعلا أقل حدة. يستطيع أن يتنفس على الأقل. بدأ العرق يجف فى ظهره. كان سيطلب كوبا من الماء ولكن المؤن قليلة والمفترض أن يكون الضباط مثلا لغيرهم لقد كانت آخر الأبار التى وصلوا إليها فاسدة الماء حيث ألقيت بها أمعاء متعفنة، لم يجرؤا على استخدامها. الأبار السابقة المملوءة والمغطاة، التى كلفتهم ساعات لإخراج الماء منها لم يجدوا بها سوى كمية ضئيلة من الماء، لا شئ يبدو أنه يكفى لعشرة آلاف رجل.

نفض إلزورث الغبار عن خوذته ووضعها على رأسه. تصرف سبراتلنج بتلقائية وأخرج مزادة(*) الماء. رفض إلزورث وهو يشعر بأعين الجنود المصريين الغاضبة تركز عليه. كم مر من الوقت قبل أن يفيقوا

(*) مزادة الماء: حافظة للماء وغيره من السوائل يستعملها الجنود (المراجع).

من إغماعتهم ويحاولوا التمرد؟ كانت هناك سلسلة من حوادث التمرد. لقد أطلقوا النار على رجلين منذ أسبوع لاعتدائهما على ضابط. وهذا النوع من الإجراء لن يقضى على المشكلة. بينما يعدل إلزورث سترته شعر بالجسم المطمئن لمسدسه الأدمز على وركه. يشعر المرء فعلا بما قاله جنرال هيكس بذلك شديدا وبشكل غير لائق "مثلما شعر عيسى المسيح بين اليهود". دار بعينه عبر المعسكر. خرائب أخرى: أو؛ يبدو أنهم ألقوا عن فكرة سير المارش العسكري على هيئة مربع.

الخيام والمؤن والرجال مع الإبل الباقية، متناثرين في جيوب بين مجموعة الأشجار غير النامية والشجيرات الشائكة. هذا بلد تنتشر به الأفاعى، كما قيل له إنها تحب الأعشاب الباسقة والظل: إذا كنت بحجم الأفاعى تستطيع أن تجد بقعة ملائمة من الظل في هذا البلد.

قال: "إننى أسير بعيدا لأرى إذا كانت هناك أى أخبار عن المستكشفين اللعناء". ولأنه ما زال مشوش الذهن قلقاً اختار طريقه عبر أرض غير مستوية. الجنود ممدون على الأرض مرهقون. زيهم ممزق وغير معتنى به وهذه هى أول علامة على انحلال النظام. التقى إلزورث بمجموعة من حوالى عشرة جنود كانوا يلعبون لعبة مثيرة يخلطون فيها الأحجار حول كومة من الرمال. نظروا إلى أعلى عندما ظهر وعلق أحدهم تعليقا لم يسمعه إلزورث. انفجر كورس من الضحك وأخذ آخر حربا ودفعها لاعنا بين قدميه حتى إنها وقفت خارج انفراج ساقيه كالمبنى. أدى هذا لدورة أخرى من الضحك. اختار إلزورث أن يتظاهر أنه لم ير أو يفهم واستمر فى طريقه. كان فى منتصف الطريق نحو شجرة

البأوباب (*) الضخمة التي أقام حولها جنرال هيكس مركز قيادته، عندما وصلتته أخبار الفوضى. نظر حوله فى حيرة أشار شخص ما إلى مجموعة الخيل، دوت طلقة. دون تفكير هبط الزورث منحدرًا صغيرًا وسقط فى خندق. غطى التراب حذاءه ذا الرقبة العالية، وامتدت الأشواك للملابسه. دوت طلقات أكثر: واحدة ثم اثنتين كرد فعل. عاد المعسكر للحياة من حوله. الجنود يصيحون والبنادق تحشى. طالب شخص ما بالتحرى عن الأمر وجاءت الإجابة، "اذهب وابحث بنفسك". ولكن كل شىء كان يحدث ببطء جدا وكأن الهواء الخائق تحول إلى مادة لزجة يخوضون فيها.. لم تسرج أية جياد. لم تنطلق أية رشاشات أو مدافع من حوله.

اصطدم بشجرة سنط غير نامية، فسحب الزورث مسدسه، كان فى أرض مقطوعة الشجر حيث يرقد جنديان قتلى، مقطوعى الحلق قطعًا طوليا. الدم يتدفق فى الرمال قرمزياً ناعماً. أخذت بنادق الحارسين وأحزمة الذخيرة الخاصة بهما. ثم لمحهما: هيكلان بشريان يتحركان بسرعة عبر الأعشاب، مثل الظلال تحت الشمس، يرتديان أسمالا بالية بيضاء وأقمشة حول رأسهما ووجهيهما. اختفيا عن النظر وجرى الزورث إلى الأمام. رأهما، ومعهما البنادق، يعتليان بسرعة صهوة الخيل التي كانت تنتظرهم مع رجل ثالث. كانت الخيل كبيرة: اثنان رماديان وفرس سوداء. فكر الزورث كم هى خيل جيدة. كان يظن أنهم ثلاثة رجال ولديه فقط خمس طلقات فى مسدسه. يجب أن يقترب قليلا حتى لا يخطئ

(*) البأوباب: شجر استوائى عريض الجذع. (المراجع).

المرمى. لم يكن هناك وقت ليضيعه؛ لأنهم كانوا سيذهبون فى ثانية واحدة. شق طريقه وهو يطلق رصاصة، إطلاق سريعاً جداً. لمح وجوههم. راكب الفرس أدارها حتى ترنح شعر عنقها. كانت فرس قوية طويلة الأطراف. قفز الرجل بجواده إلى الأمام ليلقى بالزورث على الأرض، وبطلقة واحدة استدار الثلاثة وانطلقوا. كافح الزورث ليقف على قدميه وهو مذهول وأطلق رصاصة أخرى. لعن حظه. وفجأة وجد سبراتلنج بجانبه على حصان ويعطيه لجاماً آخر. رأى الزورث عينى الرجل العجوز تلمعان. "هذه المرة اللصوص فتيان يا سيدى". وتجولاً عبر الأرض الوعرة حذرين من الأخاديد عبر النباتات المتناثرة ثم صعدا مائلين منخفضاً على حافة الوادى حيث حوافر جياذ الجنود المغيرين واضحة. أشار سبراتلنج "هناك". يمكن رؤية الركاب ثلاث ريشات تتموج من التراب الطافى. كانوا يتقدمون بسهولة. لم ينظر الزورث خلفه فى اتجاه المعسكر، الذى اختفى الآن عن النظر؛ بسبب الطرق الملتفة التى ساروا فيها. رأى فقط الأرض الخالية إلى الأمام والركاب الثلاثة.

صاح الزورث "لقد فروا منا".

رد سبراتلنج "لا يا سيدى لم يفروا".

تبع الزورث الجانب المحتجب عن الريح، وجواده يأخذ خطوات واسعة عبر الرمل الرخو. الأرض إلى الشمال مهجورة وخالية لأن الشجيرات كثيفة الأغصان ضمرت، شجرة سنط واحدة أو اثنتان عن بعد ولا شىء غير ذلك.

كانت الأرض المستوية صلبة تحت الأقدام وزادت الخيل من سرعتها بقوة وثقة. كان إلزورث يشعر بثقة أن الآخرين خلفهم مباشرة وأن هؤلاء اللصوص سيقودونهم إلى صيد كبير من العدو. بعد كل هذه الأسابيع من القنص والمشاحنات والكفاح اليومي على بعد ميلين فقط، هذه المرة سوف يجعلونهم يدفعون الثمن. لم يكن ليستطيع التوقف حتى ولو أراد. شقوا طريقهم في أرض صخرية ضيقة، بين عمودين مهشمين، تبدو كأنها وجه قد غارت وجنتاه. على هذه الأرض الأكثر صلابة يصبح الأثر أقل وضوحا وأبطئوا سرعتهم إلى درجة الخب. في نهاية الهضاب اختفى الأثر تماما. مضت ساعة ثم أخرى، دون أن يلاحظوهم. ثم، وللعجب، اكتشفوا طريدتهم مرة أخرى - بعيدا إلى اليسار في منخفض غير عميق. يبدو أنهم كانوا قد توقعوا عن الحركة.

قال إلزورث وهو منقطع الأنفاس: "وجدناهم الآن، يا سبراتلنج". اندفعا إلى الأمام. عندما وصلا إلى حد معقول. سحب سبراتلنج بندقيته وأطلق عيارين. وتعبه إلزورث مطلقا رصاص مسدسه ورأسه تدق وأدرك صرخة عن بعد. لقد أدهشه أنها صدرت منه بشكل عفوي ولا يمت بصلة لما تعلمه في التدريب العسكري ولكن صرخة بدائية كالنباح. جرت الخيل بسرعة وانتظام. رفع مسدسه ورأى هذه المرة هبوبا مفاجئا للتراب بالقرب من أحد الهياكل الإنسانية التي ترتدى الأسمال البالية. عندما أوشكا على الاقتراب منهم، قفز الركاب الثلاثة على صهوة الفرس وكأنهم مدرسة في حركات السمكة الفضية واستداروا في ومضة وفروا في زاوية حادة.

"أسقطوا شيئاً يا سيدي" أشار سبراتلنج على الأرض. توقفاً. الجوادان، واهنان بسبب السير لمسافة طويلة. نال منهما التعب - يغطي جسديهما العرق المزبد، وأرجلها تنتفض من الركوب القاسى. توقف، ونزل إلزورث من على صهوة جواده وسلم سير اللجام لسبراتلنج. ركع، كانت الأرض مبللة وتعلق الرمل الندى ببنتلونه القصير الخاص بركوب الخيل. شعر ببرودة الخوف تتملكه. نظر إلى الجياد المرهقة. نظر إلى السماء والشمس الفارقة وتساءل كم ساعة استغرق ركوبهم. وقف ولف فى دائرة محملاً فى الأفق الخالى وقال: لنفسه: "لقد خطتوا لذلك".

رفع سبراتلنج مزادة جلد الماعز الفارغة لأعلى وقد سكب منها الماء. كانت الجياد تلعق الرمل، متلهفة على تلك القطرة الغالية وهى تتلاشى فى الرمال.

"فى أى اتجاه كانت الشمس عندما بدأنا التحرك يا سبراتلنج؟".

نظر العريف العجوز فى اتجاه سقوط طبق النحاس الذى يغطس، فتح فمه ليقول شيئاً ثم أغلقه مرة أخرى. "أظن أننا اتجهنا نحو الشمال الشرقى". استدار لينظر إلى الطريق الذى أتوا منه، ولم ير سوى الصحراء الفضاء. هز العجوز رأسه بحزن وجلس فجأة على الرمال مثل دمية متحركة قطعت خيوطها وغمغم "يسوع المسيح، يا الله".

أخذ إلزورث ذراعى سبراتلنج وساعده ليقف على قدميه. "تعالى أيها الرجل العجوز. من الأفضل ألا تضيع ما بقى من ضوء النهار. بدأ يتعقبان خطواتهما. هبط الظلام سريعاً. وقبل أن يمر وقت طويل كانا

يهيمان على وجهيهما بأثسين. بالطبع تحت النجوم غير المألوفة بدا كل شيء مختلفا. فقدت آثار أقدامهما فى التراب الذى هب على السطح. تحول الرمل تحت أقدامهما إلى شئ زجاجى بارد عندما أوغل الليل. التقا بطريقة لولبية إلى جانب جواديهما، رأسيهما تترنحان وسيقانهما تقفزان وهما نائمان. امتصهما الليل مثل الدوامة، مثل حلم كئيب عبر النجوم وفس أصابعه داخل رأسيهما بطريقة ماكرة.

١٠ - شمال كردفان، وادي الميلىك

أكتوبر ١٨٨٣

يقع المنزل فى نهاية منطقة غربية فى شارع طويل، تحطم إلا أجزاء استقرت على بقايا قرية مغمورة. نفس الرجال والنساء والأطفال الذين عاشوا هنا يوما يهب عبر المداخل الخالية. تغطى آثار أقدامهم على آثار هجين البشر الذين انتقلوا إلى القرية الآن. لا أحد من السرية التاسعة أو ما تبقى منها كان مهتما بشكل خاص بفحص أحشاء هذه الخلايا المهدامة. كانوا يشعرون بالخزى والذل. لقد فصلوا الواحد تلو الآخر من المواقع العسكرية التى حاولوا العودة إليها. ورغم ذلك يبدو أن بحثهم لا ينتهى. علم الخديوى لا يمكن رؤيته فى أى مكان، على كل مدينة يصلون إليها ترفرف أعلام المهدي الرثة.

يتامى مثلما يبدون الآن بدعوا يصنعون لأنفسهم حياة جديدة. ينتقلون بكسل أملىن أن ينصرفوا شمالا نحو العاصمة ويسرقوا أو يأخذوا ما يحتاجونه، أو بالأحرى ما يجدونه. كانوا ينتقلون فى نواتر دائمة الاتساع حتى يتجنبوا العدو؛ لأنه أمل ضعيف أن يتسامح المهدي تجاه الباش - بوزوك المكروهين. فى الجزء النحيل من الغابة على حافة الحقول المتفحمة، يسىرون وهم يجرون أقدامهم، الجياد تدفع بعضها بعضا فى الحر الجاف ليس لديها صبر على التوقف عن الحركة.

تبدو هادئة جدا . همهم زنزير، رجل ضئيل . عظامه عظام عصفور وأصابعه طويلة ونحيفة. كان من أبناء بيجا بمرتفعات البحر الأحمر وشعره طويل ومجدول فى صفائر باستخدام الزبد الفاسد وقد دس فى الصفائر ريش طيور ميتة. لديه خنجر طويل يتدلى من خصره، وآخر على مرفقه. يبدو أنه هجر زيه مفضلا سترة من النوع المصنوع من جلد النمر.

قال رازق بصوت يشبه صوت الخنزير: "هدوء. إنه ملىء بالثعابين. إننى أستطيع أن أشم رائحتها".

بجانبيه، بصق فارس ومسح فمه بيده . "تعرف يا رازق إنك دائما تتكلم. لا تفعل شيئا سوى الكلام. أنت لا تحب هذا أنت لا تريد ذلك".

تجاهل زنزير الاثنين واستدار إلى وهاب. "ماذا تقصد؟ هز البمباشى الكبير رأسه دون أن ينبس بكلمة. لقد اعتاد مؤخرا أن يمر بفترات من الصمت الطويل. نظر زنزير إلى الأرض، وجهه عادة، لا يمكن قراءته، قادر على إخفاء فزعه. يتبقى منهم عشرة الآن. وأصل فارس ورازق نقاشهما مثل ديكين عجوزين. تنهد فارس وقال: "يا إلهى لقد دار هنا قتال".

"أتفق معك فى هذا الأمر يا أذى. لا شىء تبقى هنا". نظر شزرا وقال: "ما ذلك؟".

"كلب" أجاب فارس ثم خطرت له فكرة: "يمكن أن نأكله". وهاب يئن، أغلق عينيه فعلا. "لقد سئمت من أكل الكلاب". سحب سير اللجام

وأدار الحصان؛ ليبدأ السير بعيدا. نظر الآخرون بعضهم إلى بعض. كان هناك ستة منهم، ليس بينهم سانجاك جوما الذى ما زال مربوطا إلى السرير النقال يسحبه جواد عبد التوم خلفه. لم يكن وهاب قد تقدم سوى عشر خطوات عندما توقف وسحب سير اللجام بشدة. توقف صامتا وهو يحملق فى زنزبير. أصفى الرجل البيجى الرشيق دقيقة ثم أومأ. الهواء يلسع، هناك صوت ضعيف مثل نقر الماء على الزجاج الرقيق. ذبابة تطن فى وجه كادارو. كل منهم يتابع الرقيب.

قال فارس بصوت يشبه فحيح الأفعى: "ما هذا؟". تجاهله الآخرون. وهاب يتجه إلى القرية، خطوة خطوة، وابتسامة على وجهه. نظر إلى زنزبير، واكتشف كادارو ابتسامة باهتة على وجه زنزبير أيضا. يتحرك الرجلان الآن فى اتجاه حافة الحقول المتفحمة. قال فارس وهو يهز رأسه فى دهشة: "ما زلت لا أسمع أى شئ لعين".

"لا تسمع أيها الأحمق، شم" مد رازق يده ليقرص أنف فارس. فدفعها فارس بعيدا بعنف. نظر كادارو إليه: ستندلع معركة فى لحظة. انتفضت الجياد تتقدم إلى الأمام وتعود إلى الخلف بعصبية. "رائحة؟"

بصق رازق على الأرض من خلال الفجوة التى كانت تشغلها أسنانه الأمامية "النساء! لقد تركتم هذا الصبى يتجول كثيرا. لقد نسيت ما هى رائحة النساء".

بدأ فارس ينتبه. كرر الكلمة "النساء؟".

هز رازق يده بعنف. وفى هذه اللحظة نفذ صبر اليمباشى. ركل جواده وهو يصرخ لينطلق. وبدأ يعدو فى الشارع. لعق شفثيه بعصبية ونظر إلى رازق قائلا: "لقد جن".

”استحوذ عليه الجن“.

بعد ذلك أصبحوا غير قادرين على المقاومة فركلوا جيادهم وانطلقوا خلف وهاب. وتبعهم الآخرون برفقة عبد التوم الذى كان فى المؤخرة يسحب السانجاك الجريح على محفة. يتهادى كادارو بجانبهم على الفرس العجوز، يمكنه أن يرى أمامه الآخرين يجرون فى ذيل ضعيف من التراب - شعر أعناق الجياد فى الريح، وذيلهم أثناء الخبب ترفرف بالأعلام. تجرى الخيول بكامل سرعتها بعيدا. فى هذا الشارع الطينى مثل الأشباح أو مثل صفحات من التاريخ القديم عادت إلى الحياة بنوع من أنواع السحر، عبر أزرقة القرية وأوصالها الممزقة نحو البيت الكبير فى النهاية البعيدة.

بناء قديم فخم من الطين المحروق والمداخل المقوسة. كان فى يوم من الأيام قصرا يمتلكه تاجر جلود مغربى. بنى مثل الحصن. وفوق الجدار الخارجى العالى طابق أعلى له ممرات ظليلة كانت تهب عليها النسمات فى يوم من الأيام من خلال ستائر حريرية على نوافذ مصنوعة من خشب الصندل تشبه المشربيات. إنه شاهد على عصر آخر، ولكنه أصبح خرابا منذ وقت طويل.

وفى موجة من الطين قفز الرجال فوق سور البيت دون أن يتوقفوا؛ ليلتقطوا أنفاسهم. الذكرى التى مرت بخواطهم جميعا، مثل شكل من أشكال الجنون الجماعى، لم تمنعهم من التردد فقط، ولكنها أيضا دفعتهم إلى الهجوم المباشر، وكأنهم لا ينقضون على طين وقش فقط ولكن يحاولون أن يقفزوا على الزمن نفسه وأن يتجاوزوه. للحوائط الجافة

تفتت تحت أقدام الجياد حيث يفحص بعضهم المكان وآخرون يندفعون عبر وسطه، أخذين تحت أرجلهم القش والقصب مع كتل الطين وروث الماعز، اندفعت أعشاش الطيور وبيضها تطير في الهواء مع قطة مذهولة وعدة فئران حمراء.

أحاط ركاب الخيل بالبركة التي في منتصف الفناء المستطيل، وهى الآن مكشوفة فأطلقوا أعيرة بنادقهم فى الهواء. امتطوا جيادهم عبر الشرفات، وهم يسحبون معهم حبال الغسيل والأثاث البالى. قدور الماء الفخارية تنفجر فى أعقابهم وتقفز القطط بعيدا عن طريقهم وكأنها تحترق.

فى الوقت الذى وصل فيه كادارو وعبد التوم كانت هناك فوضى كاملة: فالنساء نصف عاريات، وبعضهن عريهن كامل، يجرين فى كل اتجاه. ويطفى على التراب ورائحة الجياد عبير العطر وعبق البخور الذى يمتزج بعرق الرقص والغناء على نحو يذهب العقول.

قال عبد التوم متسائلا: "أستغفر الله العظيم، ما الذى يحدث هنا؟".

أجابه رازق بصوت يشبه نباح الكلب وقد اصطدم بالفعل بامرأة تستلقى تحت جواده: "إنه بيت دعارة أيها العجوز الأحمق". تدور الجياد حول الفناء الطويل الممتلئ الآن بالأسرة والقدور المكسورة وبقايا الطبل والأعواد الممزقة. اندفع سرب من الحمام من حفرة فى الأرض بينما تثب الماعز هنا وهناك. ما يمكن أن يوصف بمناورة عسكرية منذ دقائق

مضت يشبه الآن مشهدا ساخرا يقدمه مجموعة من المحتالين والسحرة. فى وسط الدائرة، يجلس وهاب، يخلو وجهه من أى تعبير. وحمامة تقف على كتفه. نزل من فوق جواده وسار بخطوات ثقيلة عبر الفوضى؛ ليجلس على الأرض فى الركن ونام ورأسه بين يديه وهو يحلم فقط بالعودة إلى البيت.

صبنى، أكثر نحافة من عود القصب تقدم من الجانب وبأذنين كبيرتين لدرجة أنهما ترفرفان فى الهواء تقدم إلى الأمام وعلى وجهه تكشيرة عجيبة. يضرب بقوة على الطبله، وخلفه فتاتان ثم ثالثة يرتدين قمصانا داخلية من القطن الرقيق، وهن أيضا يعزفن آلات موسيقية ويغنين فى كورس الآن. الموسيقى غريبة وغير مألوفة، ولكن التوم لا يكاد يلاحظ ذلك. لقد ناولته امرأة عجوز، اتضح أنها مالكة المكان، سلطانية فخارية بها ميرسا ذات لون غامق. رفع السلطانية إلى شفتيه وتذوق الفخار، ما دفعه ليشرب بإسراف. شرب السلطانية جرعة واحدة طويلة، يميل رأسه إلى الورااء والسائل يسيل فى قطرات من جانبي فمه.

يهبط الليل عليهم ومعه الانتقام، يشعلون مصابيح الزيت والنيران، تصبح الساحة كلها حية زاخرة بأشباح رشيقة الحركة تطير من ركن إلى آخر. أوضحت العجوز الشمطاء لعبد التوم قائله: "الآن، وبعد مرور أسبوع، حاولنا طرد الجن من هنا لكنه مشاكس جداً".

أدار عبيد التوم لسانه فى أركان فمه؛ أملا أن يجد بقايا مذاق التبغ. إذا كان الأمر كله يرجع إليه كان سيأخذ الرجال ويمتطون جيادهم خارجين فى هذه اللحظة بصرف النظر عن الظلام. ولكن وهاب

يجلس فى المكان نفسه الذى يجلس فيه منذ وصولهم، فى الركن مستندا إلى الحائط، حيث تقدم له سلطانية وراء أخرى من المريسا. يجلس كتمثال، منتفخ ومثقل بالهموم، ثابت لا يتحرك.

سألت المرأة: "من أنتم؟". وعندما أخبرها عبد التوم، تحدثت بصوت مرتفع "باش - بوزوك" مضغت تبغها. "إن شكلكم لا يخيف قطة". وصل صوت الضحك إلى النجوم. انبعثت رائحة كمنجا Kamanga من أكثر من غليون مرت بالقرب منهم.

" أى فتاة هى التى استحوذ عليها الجن؟".

أشارت المرأة العجوز، وعيناها يملؤها الدخان إلى شابة أطول من الأخريات لها سيقان طويلة وطريقة سير تفتقد الرشاقة وأكثر شبها بالرجال. حملق كادارو عبر الفناء.

وجد نفسه يسألها "ما اسمها؟".

أخرجت المرأة العجوز ساق البايب من فمها وفحصت الصبى وقالت: "نون"، وهى ترسم علامة الحرف فى الهواء "لدى أولاد كثيرين توقفت عن تسميتهم واكتفت بالرمز إليهم بحروف" ثم خطرت ببالها فكرة "هل تود أن تنام معها؟".

"إنها أنظف من كل بناتى. الرجال يخافون منها". همهمت بعيدا لنفسها وأعادت حشو البايب فى فمها وهى تتنهد. أصدر عبد التوم صوت بصقة "النساء والجن يثيرون أعصابى".

حملق كادارو مسحورا عندما بدأت الفتاة فى الرقص. لاحظ الطريقة التى تقلب بها يداها حول رأسها ثم أسفل إلى الجانبين

والخلف، تتمدد، أعقاب القدمين تتحرك مع الموسيقى بشكل محدود ومقطع، مثل الحصة على الماء الساكن سأل التوم أن يريه كيف يكتب حرف اسمها الوحيد.

من المحفة التي بجانبهم سمعوا صوت أنين سانجك جوما. يقوم بذلك كل مساء رافضا الموت رغم أنه الآن مجرد شبح كئيب قاتم لإنسان. تفوح حوله رائحة تعفن فحج. البطانية التي تمتد بين العمودين غير المستويين اللذين يتم سحبه عليهما تغطيها طبقة من الدم والشحم والبراز. يبدو أنه يستنفذ في البطانية وكأنه قبل مرور وقت طويل كل ما سيتبقى منه هو العظام. يكشر بطريقة غبية، كل أسنانه سقطت، عيناه تتورمتان بالغضب. لم يعد يتحدث "لحست الحمى عقله" قال عبد التوم وهو ينظر إليه. يرمى السانجك مثل أم ترعى طفلا مسكينا: "إنه الشيطان الذي يبقيه على قيد الحياة. كعقاب لنا. لا يتبقى منه شيء سوى السم". راقب كادارو عبد التوم وهو يسحب بطانية على جوما ويثبثها بعناية حول ذراعيه. أرخيت الحبال التي يوثق بها الليلة، إلا أنه لم تتم إزالتها أبدا. رغم بقايا تعاطفهم مع قائدهم السابق فإن أى رجل من السرية غير مستعد أن يخاطر بتحمل مسئولية تجول خيال مائة فى الظلام بينما هم نائمون. لا يعلم أحد ما يستطيع أن يفعله هذا النوع من الكراهية.

على الجانب الآخر من الحائط، رفعت المرأة العجوز البايب من فمها، وغمست أصابعها فى سلطانية عطر ورشتها على الفحم المتوهج فى المبخرة. سحب من البخار اللاذع ارتفعت فى الضوء بألوان قوس قزح الزرقاء والخضراء.

١١ - حملة هيكس

جنوب الأبيض

رفع جنرال هيكس بصره عن آخر صفحة فى التقرير الذى كان يكتبه. توهج مصباح الزيت على المنضدة جعل عينيه تشحبان. تساءل لو كان قد استطاع أن يظل موضوعيا بما يتلاءم مع مركزه فمن الصعب أن يوازن المرء بين الوصف الموضوعى والعدو العاطفى، من الصعب أن يتحرر بينما العالم كله يتأمر ضده على كل جبهة. أعاد قراءة الأسطر الأخيرة:

بعد أن استعدنا الأبيض وأصبحت البلد أكثر استقرارا نتيجة لذلك، فمن المتوقع أن يتم إرسال قوة صغيرة من هناك عبر الطريق الأقصر الذى يمر بشات Shatt لتقابل مجموعة من الجنود قادمة من دويم Dueim بمؤن وغير ذلك من الاحتياجات. والماء الكافى لقوة صغيرة يمكن الحصول عليه بفتح الآبار التى ملأها العرب.

كلها افتراضات واعتراضات، وفى النهاية فإن استعادة الأبيض بدأ لهم مطلبا صغيرا. كان هذا هو هدفه الأول وبدونه لا شىء لسيه. والبديل لا يمكن التفكير فيه. ولا ينصح بأن يقترح فى تقرير عسكرى أن لديه

شكوكا جدية فى احتمال انتصارهم. فإذا تم إعاقه إرسال التقرير سيعطى العدو ثقة أكبر فى النفس. وإذا لم يحدث ذلك سيضعف التقرير مكانته عند إرساله إلى القاهرة.

وضع ريشة الحبر وتنهيد التفكير فى الفشل يدور بخلده ألف مرة كل يوم. يقبع فى داخله بشكل دائم. لقد بقوا على قيد الحياة بفضل برك المطر المتناثرة فى هذه المنطقة الكريهة. عليه أن يقدر العدو لوضعه تكتيك حربى جيد. يبدو أن ما أراده لا يمكن الوصول إليه وبالتالي فقبضته على قيادة هذه الحملة تخضع لسؤال لا يثير الراحة أبدا. المرشدون المحليون لا يمكن الوثوق بهم، لا يمكن أبدا للمرء أن يتأكد إلى أى جانب ينتمون. كيف تتقدم فى أرض إذا كان الرجال الذين يرشدونك هم أنفسهم الذين يدفع لهم العدو؟ كل قضية لوجيستية ترتبط بالعقدة الميئوس منها التى أثرت على هذا الجزء من العالم. البسكويت والذخيرة الحربية التى تأتى من دويم وكانوا يعتمدون عليها لن تأتى قريبا. وسمو الحاكم العام أخبره حينئذ أن أملا ضعيفا يأتى إليهم عبر هذا الطريق. لماذا لم يوضح الرجل قصير القامة الذى يثير الغيظ هذه النقطة من قبل؟ لماذا ينتظر حتى الآن؟

كان هيكس فى حالة يأس. تحاصر تفكيره العسكرى تفاصيل تثير الأعصاب فى محتهم. كان لا يكاد يستطيع النوم أكثر من نصف ساعة حيث نزلت به كارثة عدوه القديم، البواسير، الذى اختار هذه اللحظة ليعود بقوة - السبب بلا شك قضاء أيام طويلة على صهوة جواده. خرج النظام عن السيطرة. كم شهدوا من حوادث التمرد؟ الجنود المتطوعون

من المؤكد أعداء للخديوى والبريطانيين. من صاحب الفكرة الحولاء
بإرسالهم إلى هنا فى المقام الأول؟

حتى ضباطه يخذلونه. خيب فركر أمله بشكل خاص. فلم يعضده
الكولونيل فركر فى الاجتماع الذى عقد الليلة الماضية. رأى الرجل، يشك
هيكس، لم تكن أبدا مباشرة ليبدأ بها، لكن أن يدور عند هذه المرحلة
الحاسمة ويبدأ حديثه بكلام أحقق عن "الظروف العسكرية الغامضة"،
فيسرح بالرؤية المشوهة بعيدا. كان ضابطا مميزا، من الدرجة الأولى
حقيقة، ولكن فى الأمر الحاسم وهو إسقاط مراكز للمراقبة فى الخلف
لتحمى مؤخرة الجيش، اختار أن يعارض هيكس. لا يمكن فهمه. ليس
فقط أن هذا يسيء إلى مكانة هيكس ولكن أيضا هو أمر ضد كل قاعدة
فى الكتاب. إنه بالتأكيد أمر شديد الوضوح. لقد بدأ يخطر ببال هيكس
أنه أحقق لعين لموافقته على قبول هذه القيادة. فلدیه رجال لا يمكن
الاعتماد عليهم لتبوء منصب لأكثر من الوقت الذى يستغرق صفا من
صفوف الجند ليغيب عن النظر خلف منعطف فى الطريق. ليس لديه
إمدادات، ماء قليل ثمين القيمة وضباط يكرهونه لاختياره لقيادة زملائهم
من المصريين. كانوا يهيمون عبر أرض لا يألّفونها مع مرشدين يدعون
لحظة أنهم يعرفون الأرض مثلما يعرفون ظهر أيديهم، ويقسمون برحمة
أمهاتهم أنه كان هناك ماء فى الأفق واللحظة التالية ينكرون أنهم قالوا
ذلك أبدا.

أبو نومة المرشد فُقد. ذهب مع خمسة وعشرين جنديا إلى المحطة
التالية حيث وجدوا ماء. وبينما هم فى طريق عودتهم، أدرك أبو نومة أنه

ترك بندقيته بجانب البئر. ولأنه يعلم أنه سيعاقب لترك بندقيته تقع في أيدي العدو، عاد ليأخذها. انتظره بضعة رجال وعندما لم يظهر واصلوا طريق عودتهم إلى المعسكر. صدر الأمر بتقدم الصف إلى محطة البئر. وجدوا أبو دومة يجلس تحت شجرة، وسرب من الطيور حوله مثل مثل شال حي، وريشها يتنفس مع النسيم الرقيق. كان أبو دومة يحملق في فخذه، وقطعت كلتا يديه من معصميهما.

عندما تقدموا بدأت الأرض تتغير. كل صباح تظهر أمامهم أرض جديدة تنتظر أن يكتشفوا غموضها. وبمعنى ما، يبدو أنهم كانوا يمرون بمنطقة تعكس بطريقة ما حالة الروح. فكل خطوة محفوفة بالخوف المروع حتى إن المرء يمكن أن يواجه نفسه في أية لحظة.

في اجتماع هيئة أركان حرب بعد ظهيرة هذا اليوم اتجه الاهتمام إلى موضوع تكوين المربع القتالي. لقد كان من المستحيل الاحتفاظ بهذا التكوين الصارم في الأرض الوعرة التي ينتقلون فيها. حيث يمزق المربع كميات كبيرة من النباتات ويؤدي إلى تغييرات طبوغرافية، والتي تجعلهم يدورون مثل الغسيل المتبعثر في المستوى المنبطح، على مدى واسع.

مال هيكس إلى الأمام بينما دخل الضباط وهو يضع مرفقيه على المنضدة وعقد أصابعه على هيئة برج وأخذ يتفحصهم وهو متجهم. "أيها السادة"، العدو يتبعنا بسرعه ويبدو أنهم لا يهتمون بوجهتنا. يحتلون كل معسكر في اليوم نفسه الذي تترك فيه المكان، أحيانا ينتظرون لمدة ساعات. فقط الآن أراح يديه على المنضدة وقال: "ماذا نستنتج من هذا الأمر؟".

وقف الحاكم العام وتحنح. "ربما أيها الجنرال، هذا وقت مناسب لنراجع أمر تكوين الصف. هز هيكس رأسه وقال: شيئاً غير مفهوم. واصل علاء الدين باشا حديثه: " من الآن فصاعداً يجب أن نتقدم في حذر بقدر ما نستطيع. بينما نحتفظ بحماية مؤخرة جيش محكمة، يجب أن تكون لدينا مرونة مناسبة لتضاريس المنطقة". أوماً إلى مساعده أن يترجم حديثه، قبل أن يواصله. "أود أن أقترح أن نتبنى التكوين المثلثي في القتال".

"مثلثي" همهم جنرال هيكس، وهو يبعد البوصلة جانبا، وكأنها تلمع بالسخونة. انحنى علاء الدين وسحب الرجال حوله. بدأ يرسم خطوطا على الأرض بإصبعه. "ثلاثة مثلثات، كل واحد نقوده نحن. أحدهما تقوده أنت يا جنرال، والثاني أنا والثالث يقوده أكبر الضباط الموجودين". هبت في هذه اللحظة ريح عاصفة من الصحراء، وهي تجلب التراب والحيرة لمركز القيادة المؤقت. تعرض الجنرال لأسوأ ما في الهبة حيث سرت في عينيه وأعلى أنفه. وقف على قدميه ومشى مضطربا كالأعمى واصطدم بالمنضدة جانبا. امتدت الأيدي لتساعده على الوقوف باستقامة، ولكنه أبعدا بضربة عنيفة وهو يصيح بصوت عال: "اتركوني وشأني! عودوا! عودوا!".

استطاع أن يقف معتدلا وهو ينظر كالبومة بأعين محتقنة بالدم وعصبية.

بدأ علاء الدين باشا، وهو يأخذ نفسا عميقا، يوضح إستراتيجيته "مثلث يضم ثلاثة مثلثات أصغر داخله". رسم مرة أخرى في الرمال.

"وسوف يغطى سلاح الفرسان الأجنحة هنا وهنا بالمدافع والذخيرة فى الوسط. وبهذه الطريقة تكون كل وحدة آمنة".

بدا كلامه معقولاً لكل الحضور، ولكن الجنرال، وعيناه تملؤهما الدموع وقلبه مثقل بالشعور بالخزى، لم يستطع أن يقنع نفسه بالموافقة. سقط فجأة على كرسيه وهو يلفظ أنفاسه، يكرر ويكرر بصوت لا يتعدى الهمس كلمة "مثلثات".

الآن تأكل الجمال القش من فوق أجسام بعضها؛ لأنه لم يعد يسمح لها بأن ترعى خارج أمان المربع. الخوف يأكل قلوب الرجال. الأرض نفسها بدأت تتعدى على حقوقهم، لا أحد يغادر حدود المنطقة الخارجية إلا فى حالات الضرورة القصوى؛ لأن العدو ماهر فى التخفى بين الشجيرات الشائكة وفى شقوق الأرض وثناياها لدرجة أن مائة رجل يمكنهم أن يكمنوا تحت أنفك مباشرة دون أن تراهم.. وصلت الأمور إلى حالة محمومة لدرجة أن بعض رجال العدو يتسللون عبر مراكز الحراسة ويتجولون بحرية فى المعسكر ليلاً بينما الجيش نائم. الأشياء تختفى بشكل غريب: ممتلكات شخصية، صابون، شفرة حلاقة مفضلة أو مرآة، كتاب أو جريدة، زوج من الأحذية طويلة الرقبة، جوارب، رسائل من الوطن وحتى مسبحة من الخرز. ونتيجة لذلك، تندلع المشاجرات بين الرجال ناهيك عن أن أعصابهم مثارة بالفعل.

وتستل الحراب وتسفك الدماء أكثر مما كان يتمنى المرء. لقد واصلوا طريقهم حتى شايبكان Shaykan، حيث توقفوا لتكوين دفاعات

أفضل؛ لأن الليل بدأ يهبط. الآن هم محاصرون، وبينما حل الظلام بدأت تسمع أصوات طلقات متفرقة. لجأ الرجال للزحف من مكان إلى آخر بدلا من المشى. كانت الطلقات تضرب في الأشجار، وتجعل الفروع تنهار فجأة دون سابق إنذار. رحلت كل الطيور، لا يوجد خفاش واحد. من وقت لآخر يصاب أحد الأفراد ويبدأ الصراخ. لا أحد يود الحركة خشية أن يجتذب قناصا من الأعداء. الجرحى يبكون أو يصرخون وحدهم في بؤسهم لساعات طويلة حتى يموتون أو يتم نسيانهم. أصيبت ناقة وواصلت الأنين حتى تحرك أحد الأشخاص وقطع رقبتها بهدوء.

النوم لا يأتى بسهولة. تُرعى الساعات لفاتها الدخانية حول الرجال بطريقة أكثر إحكاما. والنجوم تبتلعها السحب الممطرة الخفيفة.

إطلاق النار توقف مع الصباح، ونوع غريب من السلام بدا أنه يهبط على العالم. الهواء منعش مع الرطوبة، رائحة التراب المبلل تتصاعد بسبب المطر الخفيف. كانت الشمس تصعد نحو مركزها والقمر لا يزال مرئيا، بقعة زرقاء فى الأفق.

عبروا أرضا خلاء ممتدة حيث التقدم أفضل وبدعوا يصطفون فى اتجاه الشمال الشرقى دون أى ظهور للعدو. ثم بزغت الأشجار من الأرض مرة أخرى: الأغصان غير مكتملة النمو، والجنوع جافة متشققة عبر الأرض. اقتربوا من سلسلة تلال منخفضة يمتد بعدها واد متسع يحيطه من الجانبين منحدران تكتنفهما الأشجار. توقف الحاكم العام لينظر خلفه إلى مثلثه. لقد أصر أن يثبت لهيكس العنيد جدا أن

إستراتيجيته بتكوين ثلاثة مثلثات أصغر يحميها سلاح الفرسان إستراتيجية عملية. كانوا أكثر مرونة ينعطفون مع الأرض بدلا من أن تبعثرهم. تقدم علاء الدين باشا فى طريقه إلى الأمام وهو يمتطى جواده مقررا أن يومهم كان يوما طيبا.

جرى الحادث المفاجئ بعد أقل من نصف ساعة عندما كانوا يصلون إلى قمة التل. أخذ جواده خطوة خاطئة وتعثرت ساقه فى فجوة، وغرست فى طبقة ضعيفة من الطين والعشب. سقط الجواد على جانبه وأوقع علاء الدين تحته. أسرع الجنود للمساعدة. انكسر قلب الحاكم العام. "اعتنوا به. أنا بخير". أبعاد الرجال جانبا وكأته يبعد ذبابا.. "اعتنوا بالجواد". الجواد الرمادى معه منذ سنوات طويلة وكان مغرما به. الأمر أكثر من مجرد حظ، ترك الحادث إحساسا سيئا. لقد كان يخدع نفسه. تبخر تفاؤله، مثل صورة غائمة تتلاشى أمام المرء وهو يقترب منها.

"يا سيدى إنه جواد عجوز أصبح طائشا". أدخل البمباشى خرطوشة فى مؤخرة بندقيته. "الساق مكسورة".

"إذن، تقدمه لحما للعشاء"، قال أحد الحاضرين مازحا. أوقف علاء الدين الجندى الذى كان يستعد لإطلاق الرصاص على الجواد.

"ليس بالبندقية أيها الجندى سوف تجذبهم الضوضاء إلينا - استخدم الحربة".

"سيدى إنهم يعلمون بالفعل أين نكون" أشار الجندى بمنطق الجنود الغبى.

أضيف الإحباط إلى متاعب علاء الدين. "أعطني هذا واخفض رأسه" تلقف الحربة بيده. عينا الجواد الكبيرتان ظلنا ثابتتين وهما تراقبان علاء الدين يقترب. ربت على رأسه برفق. وقال وهو يهدئه: "لا تبالى، إن هذا أفضل". يمكنه أن يشم رائحة الخوف تفوح منه. ثم غمد نصل الحربة فى رقبتة بسرعة. تدفق الدم على يديه.

ظل على ركبتيه بجانبه. شعرت يده بالرجفة تسرى فى جسده. رفس بساقيه مرة ثم سكت. مسح النصل على باقة من العشب وناول الحربة مرة أخرى للجندى. وقال: وهو يمسح يديه فى سرواله: "أحضر مدنى حتى يضمه لعربة الإمدادات".

أحضر جوادا آخر ونقل إليه السرج. ثم امتطاه وأشار باستعدادهم للتحرك.

"فى النهاية" غمغم هيكس على رأس الصف "حتى الجياد اللعينة تعبت من هذا البلد الكارثى" ركل ركوبته إلى الأمام وبدأ الجواد الأسود الثقيل يتهادى رأسه إلى أسفل فى اتجاه تجويف الوادى الواسع وفى ذهنه سؤال مزعج يبدو أنه يتجنبه. تقدم إلى الأمام قليلا قبل أن يفاجئه: الطيور، أين ذهب كل الطيور اليوم؟

١٢ - وادى المليك

مرت ثلاثة أيام، الطقوس تتكرر كل ليلة، والمرأة العجوز تجلس على كرسى عالى الظهر منحوت من خشب الأبنوس الإثيوبي. هى من جوندار تتحدث من خلال فجوات فى فمها حيث تجعل السن المفقودة الهواء يصفر بطريقة غريبة لا يستطيع أن يفهمها سوى التوم. لغة غير مألوفة. تمسك بيد البايب المحشو بالكمنجا المسكرة الحلوة وبالأخرى سلطانية المريسا التى ترشفها من خلال أنبوية فضية رفيعة. وفى منتصف الفناء النساء يتلوين ويشكين ويرقصن ويضربن بأخمص أقدامهن.

عندما استيقظ كادارو، كان الصباح باردا والهواء خفيفا، ونسمة رقيقة تهب من الجنوب من بين ثغرات الحوائط. الجياد ترعى على مقربة، تخربش فى التراب باحثة عن بذور وبراعم النباتات المتناثرة. حمل الهواء رائحة الرطوبة، إنها تمطر فى مكان ما. على الجانب الآخر من الحائط المحطم، بقايا عريضة الليلة الماضية. الرجال متناثرون ينامون فى الظل. سحر غريب ألقى بظلاله عليهم؛ لأنه لا يبدو أن أيا منهم يخشى أن يؤخذ على حين غرة هنا. ربما أنهم لم يعودوا يعبأون. نام سانجاك جوما نوما سيئا غير مستقر. كان يعوى ويصرخ طوال الليل مناديا على أمه ومقسما أن يطاردهم حتى نهاية الأرض. يصرخ "حتى نهاية الأرض"

وتسقط بعض الحروف؛ بسبب سقوط أسنانه. ورغم ذلك فقد كان في أغلب الأحيان يئن مثل الرضيع. الآن بالطبع هو ينام مثل رضيع. وضع عبد التوم سعفة نخيل فوقه؛ ليمنع شمس الصباح الباكر من إزعاجه وسمع كادارو الرجال يتناقشون إذا ما كانت أم جوما سورية داعرة، وهو ما يعلم الجميع أنه غير حقيقى؛ لأنها كانت يمنية. لقد كانوا يريدون أن يمسكوا زمام الأمور، فلقد تحملوا ما يكفى. لن يأخذ الأمر سوى طعنة سريعة بحربة. ولكن كادارو يعرف أنه لن يقدر أى منهم أن يقوم بذلك.

مشى عبر الأنقاض ووجد نفسه بعيدا عن المنزل. الرجال والناس، والأولاد والأطفال أشخاص غرباء لم يلاحظهم الليلة الماضية ينامون فى الأركان المنعزلة، ويحتشدون فى مجموعات. عبر بفارس يرقد ووجهه إلى أسفل قابضا على إبريق ميرسا فارغ.

بعد فترة وجد نفسه خلف المنزل. هنا مساحة مغلقة وبعدها حطام أكثر: جوانب من منازل نصف غارقة، أجزاء من منازل الناس. هناك رائحة نتنة لبراز آدمى وبراز جياذ أيضا. الريح تمزق سلاسل من التراب، صفحات من عصير الأرض تطفو ثم تسقط وتختفى. هناك برج دائرى منخفض مصنوع من الطين، من الأصوات المنبعثة عرف أنه قن دجاج.

نزل كادارو وزحف ليقترب أكثر، ألام الجوع تقرصه. حدق فى قوس صغير وهناك وجد مكافأته: لامة، بيضاء وناعمة مثل لؤلؤة. مد يده، أخرج بيضة. ثم وهو جالس بأرجل مثنية كسر أعلى البيضة ومص

المحتويات كثعبان. ابتسم لنفسه الآن، ولف يده على بطنه ثم حملق مرة أخرى.

استطاع هذه المرة أن يكتشف عددا أكبر من الأشكال اللامعة التي تبزغ من حزم القش الصغيرة. مد ذراعه ليكافئ هذه المرة بنقرة حادة على ظهر يده. لعن حظه وجلس يضمد كبرياءه الجريح، مستمتعا بسقوط الشمس على وجهه.

شيء ما جعله ينظر لأعلى حيث كانت الفتاة. ترتدى قميصا بسيطا من القطن الأسود، توقفت على مقربة، تراقبه. قفز وكأنه لدغ. نادته "إنك تسرق بيضنا". رفع يده ليظلل عينيه وبدأ ينفخ الغبار عن سترته ذات الأذرع والأزرار المفقودة. ورغم ذلك ما زال فخورا بها.

"كنت جائعا" صرخ مندهشا.

اقتربت. "إنها البيضات الخاصة جدا".

"ماذا" كان يراقب حركتها، الطريقة التي تبدو بها ساقاها دائما متزنة، ساقان تشبهان ساقى غزالة. يشعر بساقيه ثقيلتين وعنيدتين مثل الجذور.

أجابت: "أى رجل يأكلهم يظل هنا عبدا لنا بقية حياته". توقف عن التظاهر بتعديل زيه ووقف صامتا، يداه إلى جانبيه لا يستطيع أن يحكم إذا كانت ما تقوله حقيقة أو مزاح. لقد أصبحت الآن على بعد ذراع منه. لم تكن ممثلة، - رغم أنها أطول منه بحوالى رأس. كانت واقفة تراقبه. لقد كان مخطئا، فعيناها بركتان داكنتان لا تلمعان. لقد انخفض صوته الآن إلى حد الهمس. وهو يقول: "لقد أخذت واحدة فقط".

ضحكت وشعر برائحتها على جلده، مثل ريش طائر صغير يطير عبر أوراق الشجرة العطرة. بشرتها بلون الليمون، وبذلك تجذب الضوء. قالت: "كنت ستأكلهم جميعا إذا لم أحضر"، وكأنه لا يمكن لشئ في العالم أن يؤذيها.

كان يحملق فى شكل رقم سبعة الذى تلتقى فيها رقبتها بياقة ملبسها. جعلته خفقة هناك يفكر بإحساس عصفور صغير على راحة يد المرء. لم يستطع أن يواجه نظرتها المحدقة، ولكن وجد عينيه مثبتة على الخفقة المترجرجة. أفزعته بالطريقة التى يفزع بها حصان كسرت ساقه. فكلاهما يتصرف بطريقة غريبة، قد يركلان دون سابق إنذار، لا شأن لذلك بطبيعتها الوديعة. شعر بالنسيم يجفف عرق عموده الفقري من خلال السترة الممزقة، شعر بالشمس تسقط على شعر رأسه الحليق. كان صغيرا ولا يملأ مركزه.

قالت: "تفوح منك رائحة جياد".

أجاب: "أنا جندي مثلى مثل الآخرين، أعنى أئننى شجاع مثل الباقين وربما أكثر شجاعة".

نظرت إليه بشغف. ما اسمك أيها الصبي؟

"كادارو".

"ما هذا الاسم، من أين حصلت عليه؟".

لعق شفثيه الجافتين. من أين تأتي الأسماء. لماذا لم يفكر فى الأمر من قبل؟ شئ واضح بهذا الشكل، أن يسأل المرء من أين اشتق الاسم،

وأن الأمر لم يخطر بباله مطلقا ولا مرة طوال حياته. هز كتفيه، شعر بثقل وتورم فى يديه. " إنه اسم ملائم للجيش".

قالت: "أنا نون Noon" ولكنه يعرف اسمها، عين الشمس تطفو على السماء. عرف اسمها؛ لأنه أعاده لنفسه طوال الليل أثناء نومه، حتى انطبع فى ذهنه مثل الوشم. نون التى تحمل بروحها أسرار الكلمات والكتابة، نظرت إلى الخلف فى اتجاه المنزل.

طوال الأسبوع أجبروها على استنشاق دخان تمام وأعشاب محترقة. جعلوها تشرب تركيبات غريبة لا يعلمها إلا الله، محاولين إخراج الجن المؤذى من جسدها. كانوا يعذبونها؛ لأنها لم تكن مثلهم، لأنها كانت شابة صغيرة وجميلة ولأنها كانت أحيانا تسقط على الأرض وعندما تسقط يبدأ جسدها فى الاهتزاز والارتعاش وكأن إبليس نفسه هو زوجها. الدم يتدفق من فمها وجسدها يرتفع عن الأرض وكأنها ستطير. رأت نفسها وكأنها حقا تطير فى الهواء، تنظر إلى أسفل إلى نفسها وهى تعض لسانها، ولا تستطيع أن تفعل شيئا لتوقف ذلك. اعتادت على الأمر، ولكنهم لم يقبلوا به أبدا، أينما تذهب يقومون بالطقوس نفسها معها، منذ أن كانت طفلة.. ولكنها لم تعد تخاف من السيدات العجائز وجرعات دوائهن؛ لأنها تدرك أنه مهما كان ما بها فإنهم لا يستطيعون أن يلمسونه، أو يعالجونه، أو يتخلصون منه. إنه شىء خاص بها. فهمت وتحملت.

نون وكادارو يقفان هناك فى صمت. وهو صمت من النوع الذى لا يعرف كادارو ماذا يفعل معه.

سمعا صوتا: سعة مكتومة، صوت الدجاج، وهديل الحمام، وحفيف الأشجار التي تتخللها الرياح. رفع كادارو يده طالبا منها الصمت، ولكنها كانت قد سمعت الصوت بالفعل. تلاقت أعينهما وتحركا معا نحو الركن المنهار الذي كان يوما منزلا.

كان هناك هيكلان بشريان يجلسان فى ظل ما تبقى من السقف. ضوء الشمس يسقط عبر عوارض السقف المنهار على شكل ألواح طويلة مثلثة. كانا فى الشريط الضيق من الظل، نصف جالسين، يستندان إلى الحائط المصنوع من الحديد والطين، نصف ممددين على الأرض، تكسوهم طبقة من التراب. ريش صغير يتجمع مع روث الطيور يغطى جديهما ويغير لون ملابسهما. تساءل كادارو لماذا لم يلاحظ الرائحة الغريبة التي تفوح منهما؛ لأنها قوية وغير مألوفة. نظر بدقة أكثر. وجوهها حمراء سلختها الشمس. عيونهما مغلقة ومنتفخة، مثل عيون فاقدى البصر الذين لا يحتملون أن يروا العالم أكثر من ذلك. جلد أيديهما ووجوههما ينسدل فى رقائق طويلة، تنتفه الرياح العاصفة التي تهب حول الركن. هذان الهيكلان لا يشبهان أياً من مخلوقات الله على الأرض.

سألته وكأنها تتحدث عن أفكاره: "ما هما؟".

همس: "عفاريت".

كانا يشبهان رجلين من الطيور bird - men سقطا من السماء. مهما كانا فهما يبدوان مثل الأموات لا الأحياء. زحف كادارو ليقرب

أكثر، حتى أصبح قريبا بدرجة تسمح له أن يلمسهما. لا توجد استجابة. ثم تحرك الشخص الأبعد حركة بسيطة. تدلت رأسه إلى أحد الجوانب ثم إلى الخلف ثانية؛ لأن الذباب أخذ يطن حول منخاريه. كان الساتر مليئا بالنمل والذباب. ذراع الأقرب كانت منتفخة وتنبعث منها رائحة عفنة. الآخر كان أطول وأكثر نحافة. وبينما كان كادارو يراقب، سرت بجسد الرجل رجفة. اهتزت رأسه وكأنه يحلم وصدر عنه صوت، الصوت الذى سمعاه من قبل، والذى لم يكن سعلة ولكن صوت يشبه الأنين. فى هذه اللحظة، لاحظ كادارو المسدس. جسم معدنى ذو لمعة كئيبة يرقد مكشوقا على راحة يد الرجل، المستلقية على جذعه. مسدس مثل الذى كان يحمله الميجور حنتوب.

لعق كادارو شفثيه وتقدم بسرعة حتى كادت يده أن تمسكا المسدس. ولكنه اخطأ تقدير المسافة واحتاج إلى أن يحرك قدمه اليمنى ليصبح أكثر قريبا. وبينما هو يتحرك استيقظ الرجل. بريشت عيناه وانفتحت وجلس منتصبا وكأنه يشد بجبل. ارتفعت اليد التى تحمل المسدس وفجأة كان كادارو يحمل فى ماسورته، قريبا جدا لدرجة أنه استطاع أن يرى نملة تزحف حول القمة. عينا الرجل تتقلب فى رأسه. همهم الرجل، وصدر عنه أصوات غريبة لم يستطع كادارو فهمها وسقط مغشيا عليه. حك كادارو راحتي يديه الرطبتين فى سرواله.

همست الفتاة من خلفه: "ما هذا؟". لم يقل كادارو شيئا، ولم يتحرك ولم يرفع عينيه عن المسدس قال: مفكرا "سوف يموتان".

قالت الفتاة: "يجب أن نسقيهما". استدار كادارو لينظر إليها. ما الذى تفكر فيه؟ أصابع الرجل تقبض الآن، بإحكام على المسدس، كان على كادارو أن يسلبه من قبضته.

سحب نفسه إلى الخلف خارجا من الساتر. وقاد الفتاة أبعد قليلا نحو شجرة تين صغيرة. سألته: "هل أنت خائف؟". هز رأسه بالنفى وهو يراقب حدقتى عينيها الداكنتين. قالت: "إنهما يكادا أن يموتا، لا يستطيعان أن يؤذيا أى شخص".

أوما قائلا: "أعلم ذلك، رغم أن الأمر يبدو عذرا واهيا".

"من أين أتيا؟"

لا أعرف. قد يكونا عميلين سريين أجنبيين، جاسوسين للسلطان".

"إنن يجب أن تساعدهم".

لم يكن كادارو متأكدا. حملق خلفه فى الساتر الطينى. يجب أن يخبر الآخرين. عبد التوم سيعرف ما يجب أن يفعله. سمع نفسه يقول: "هم فرنجة".

ضحكت نون.

ماذا يفعلان هنا "واصل حديثه ولماذا يختبئان هناك، حيث المكان قدر وذو رائحة كريهة؟".

أجابت بثقة لإخفاء أثرهم بالطبع".

"عن من؟".

"أى شخص. اللصوص، الدراويش، الجواسيس، نحن".

أتى أنين آخر مفاجئ من خلف الحائط. وقفنا ساكنين تظللهم أوراق الشجر. قررت نون وبدأت تسير نحو حوائط المنزل المرتفعة.

سألها: "إلى أين تذهبين؟".

"قالت وهى تسير: "يجب أن نسقيهما وإلا سيموتان".

جلس مستندا إلى الشجرة، وهو يلقي بالأحجار حتى عادت وهى تحمل قدر ماء صغيرة تحت ذراعها. قدماها الحافيتان تركلان حاشية ثوبها الطويل وهى تسير.

"ألست خائفة؟".

نظرت إلى عينيه مباشرة. وقالت: "لماذا أخاف؟".

دفع بغصن كان يمضغه من بين أسنانه إلى خلف أذنيه، وتبعها. لماذا قلت إنه يجب أن أساعدهم؟".

استدارت لتواجهه، وهى تخفض قدر الماء؛ "لأنه لو ساعدتهم سوف يكافئوك وتعيش فى القصر مع السلطان".

ألقى كادارو برأسه إلى الخلف وضحك، ثم وقف ساكنا.

رفع القدر عنها وتقدم فى الطريق. عندما وصلا إلى الساتر توقف.

قال: "من الأفضل أن تظلى هنا، قد يحاولان القيام بأى فعل".

"لم ينجح معى أى رجل فى هذا الأمر" أجابت بهدوء: "أنا محمية".
فكر كادارو فى ذلك لوهلة ثم أشار إليها بالانتظار بينما نظر حوله ليرى
إذا كان الوضع آمنا.

"هو مجرد صبى" همس الشخص النحيف "مجرد صبى". حمل
كادارو القدر له ليسقيه. شده الرجل ليجعل كادارو يقفز إلى الخلف
وكأنه إنذار.

هاميلتون إلزورث، هيكل رث الآن بالنسبة لحالته السابقة، حمل
القدر وأوماً ناحية سبراتلنج. ولكن الرجل الأكبر سنا لم يستطع أن
يشرب حتى حملا رأسه وألقيا رشقات فى فمه.
همست الفتاة "انظر إلى ذراعه".

مال كادارو إلى الأمام. "شوكة. لم يخرجها فى الوقت المناسب.
الذراع بأكمله مسموم الآن" قال: ذلك بثقة شخص يرى مثل هذه الأشياء
دائما، رغم أنه لم ير إصابة إلى هذا الحد سوى مرة واحدة من قبل فى
غزال، أكلوها ما عدا الساق المصابة بالطبع. الناس عادة يستطيعون
إخراج الشوك الملتف فى الوقت المناسب.

تبع كادارو نون نحو المنزل. قالت: "إذا أخبرت الآخرين عن هذا
الأمر سيقتلونهما". نظر إليها. فقالت: "عدنى أنك لن تأتى إلى هنا
دونى؟". أخيرا، أوماً بالموافقة. ضحكت وسارت، واختفت عبر الباب
الصغير فى حائط البيت الكبير. تبعها كادارو وهو يركل الأحجار.

١٣- شايكان

نوفمبر ١٨٨٣

اندفعت طيور الحباك من الأشجار مع شروق الشمس، مثل أفكار مختارة تنفجر من ذهن غير منظم. انتشرت، ثم عادت بقوة مرة أخرى، مالت إلى أعلى وأعادت الكرة على شكل حرف الواو. إنها علامات نعرف من خلالها معجزة الوجود. الحروف التي نتعلمها، اللغة التي نستخدمها لنصف العالم والتي تصفنا بدورها .

أمر غامض، بدأ الرعد يتحرك وتوقف العالم عن الدوران. على رقعة أرض مرتفعة منبسطة وجافة احتشدت مجموعة من راكبي الحيات. أذيال الحيات ترتعد من سرعة الجرى، تهتز إلى الخلف وإلى الأمام بعصبية. نزل الركاب من فوق جيادهم وتحركوا بسهولة على أقدامهم فى اتجاه حافة التل، إلى نقطة حيث الريح تهب عبر شجرة سنط ذات شكل غريب تميل إلى الأمام وكأنها ستسقط فى الهاوية إلى أسفل. تملأ الوادى حركة آلاف النمل الصغير، أربعين ألف بالتحديد، إنهم الأنصار يتحركون عبر الشجيرات الخفيضة كثيفة الأغصان والأشجار، مشغولون بالاختباء فى جوانب التل والمنحدرات البسيطة؛ ليختفوا عن النظر وكأن الأرض قد امتصتهم.

فى وسط مجموعة الحاضرين رجل نحيف فاتح البشرة مما يميزه عن الآخرين. فك الغطاء القطنى الأبيض الطويل الذى كان يلتف حول رأسه ووجهه. تراب الركوب تغلغل فى خطوط وجهه الرقيقة. الشمس تميز عينيه الداكنتين اللتين تنفذان إلى القلب والهواء تملؤه رائحة المر غير المميزة.

وبجانبه رجل أطول ونو بشرة أغمق، عريض المنكبين كمحارب ومرن الحركات كمصارع، يقف صامتا. له ذقن رفيع نحيف سلكى الشعر. ملامحه أكثر صرامة وعيناه يبدو عليهما اهتمام وذكاء أكثر من الرجل الآخر.

يتحرك دون هواده، ويراقب بثبات. حملق فى السهل البعيد ورفع ذراعه مشيرا "هذا معسكرهم يا سيدى" أنحرفت عينا محمد أحمد المهدي فى اتجاه السهل غير الواضح. لم ير سوى الرمال وقليل جدا من الأشجار. أوما برأسه. لمس واد النجومى كتفه، صحح "أبعد قليلا إلى اليسار". شكر المهدي أميره، وظهر عليه قليل من الضيق، واستدار للآخرين "ها هم" أكد "فليرحمهم الله". صدرت همهمات الموافقة، ابتسم المهدي قائلا: "لا يخاف أى منكم الموت اليوم، فالنصر لنا". رفع يديه أمام وجهه "الرسول محمد معنا وجيش من الملائكة سيحارب إلى جانبنا".

جعل يده على شكل كوب ووجهها إلى أذنه وهو يبتسم ابتسامة غريبة "تستطيعوا أن تستمعوا إلى غنائهم". أبو أنجا موجود، وهو قائد قوات الجهادية المدربة: الجنود الناجون من معارك الخديوى وأسروا من

حصون الأبيض وبارا. استدار ليتلقى رسالة من أحد الملازمين الأوائل الذى أتى قفزا بشكل رياضى إلى أعلى التل. الشمس تصعد فى السماء. الرجال فى أماكنهم، حامل الرسالة أخبره بالأمر. استدار أبو أنجا، رجل قوى البنية ورزين، لينقل الأخبار ولكن المهدي المنتظر كان قد سمع. فخطا عابرا أبو أنجا ليضع يديه بثبات على كتفى الملازم". أخبر جنودك أن الله يؤكد صدق شرعية هدفهم. إن الرجال القادمين هم سادتكم السابقون، الذين كانوا يستعبدونكم. أخبر رجالك أن كل المؤمنين متساوون أمام الله. تلالأت الشمس فى عينيه، الابتسامة الغربية ما زالت على وجهه، لدرجة أن واد النجومى نفسه رغم خبرته العسكرية وقوته البدنية أثر فيه وجود المهدي .

كان هناك حقا نور حول هذا الرجل. إنه هو نفسه لم ير أبدا ملاكا طيلة حياته، إذا كانت هناك لحظة شعر أنهم قرييون، هذه اللحظة هى الآن. ألقى نظرة خاطفة حوله على المجموعة المحتشدة. أولا هناك الخلفاء الثلاثة، والحائز الأكثر على الثقة فيهم هو عبد الله التاعيشى، البدوى الذى كانت رحلته من الأراضى الغربية ليجد معلمه المختار، أسطورة حقيقية.

يقول بعضهم: إنه أول رجل يدرك أهمية بعثة المهدي. ثم هناك محمد شريف من دنقلة وعلى واد هيلو من كنانة، الذى عرف محمد أحمد منذ الفترة التى كان ينتقل فيها فى هذه المناطق مع إخوته؛ بحثا عن أخشاب لبناء مراكبهم. يصحب كل خليفة. أميرا؛ وهم بالترتيب يعقوب وأدم ونجومى نفسه. المهدي هو المحور أو النقطة الثابتة التى يدورون

حولها جميعا. كان يضرب الأرض بأخمص قدميه لا يطيق صبورا؛ ليعرف ما إذا كانت كل الترتيبات قد تم الاعتناء بها. سأل "هل صدرت الأوامر لأبى جرجة وعبد الحليم، أكد نجومى ذلك: "سوف يهاجمان مؤخرة الصف، فى الوقت المناسب" أوما المهدي بسرعة ثم تفحص الوادى بدقة مرة أخرى ليرى كيف تجرى الأمور. نظر الآخرون بعضهم إلى بعض. قال: محمد شريف ملقنا الآخريين بحماسة الإحساس بالذات، "النصر لنا". "إن ملاك الموت يركب معنا".

كان محمد شريف أصغر سنا من الآخريين والأكثر قريبا إلى محمد أحمد من ناحية قرابة الدم، وبخه محمد أحمد وهو يستدير إلى مجموعة الرجال قائلا: "يجب أن تتذكر يا محمد، أن هذا نصرٌ صغيرٌ". سوف نتقدم من هنا. نظر حوله إلى الآخريين، وهو يشير بيديه. "إلى مصر والقاهرة. وإلى الأراضى المقدسة، إلى مكة والمدينة". صدرت من الآخريين همهمة كورس: "إن شاء الله". هز رأسه قليلا وكأنه يتساعل عن عظمة كل ذلك "أصلى من أجل أن يرى الكفار أنه لا معنى لمقاومة إرادة الله. تذكروا" أضاف وهو يرفع إصبعه "ليس هدفنا أن نقتل هؤلاء الأجانب الدخلاء، ولكن أن نعيد إرادة الله إلى الأرض. إن مهمتنا قد بدأت الآن، "الله أكبر!" صدرت عن على واد هيلو. كبر الآخرون بصوت عال، ما عدا نجومى، فقد كان صوته ضعيفا. استدار المهدي فى اتجاهه وابتسم ابتسامته المحبة "ولد نجومى يفكر فى إستراتيجيته العسكرية. لا تقلق ذهنك، إنك محارب عظيم وأثبت جدارتك عدة مرات. لقد واجهت فزع المعركة أكثر من أى واحد منا، ولديك إيمانك لتحتمى به، دائما تذكر أنك

لست وحدك". ارتبك واد النجومى وخطا إلى الخلف وهو يحنى رأسه
"الله رحيم وكريم"، سمع نفسه يهمهم. أوما المهدي وقاد الطريق نحو
الجياد .

ارتفعت الشمس فى السماء واقتربت سحابة الغبار الصغيرة، والتي
تعلن اقتراب العدو، فى الأفق. كان الوادى إلى أسفل ساكنا. بقى
الرجال مختلفين، أعلى وأسفل جانب التل ومتناثرين أيضا فى مجموعات
أسفل الوادى نفسه والذي يجب أن يسير خلاله الجنود. لا شئ يتحرك.
خطا المهدي تجاه حافة التل واستل سيفه. رفعه عاليا فى الهواء لدرجة
أن الشمس التصقت بشفرته وصاح، والرياح تحمل صوته: "لا إله إلا
الله". وجاء الرد ملتفا من الوادى من أسفل. كان صوت الرجال غير
المرئيين يغنى مثل صدى، يلتف من تحت الأرض. يأتى من التربة التي
تحمل الجذور، من بين شقوق الطين الذى حرقته الشمس يأتى مع
النسيم الذى يتعلق بالرايات المعلقة على أطراف الأشواك الحادة. والرد
كان عميقا وخفيضا وبقوة أربعين ألف فرد "الله أكبر" - كانوا
مستعدين.

١٤ - وادى المليك

نوفمبر ١٨٨٣

لم يلاحظ أى من رجال السرية التاسعة من فرسان الخديوى غير النظاميين غياب يد الإسطلب الصغيرة الخاصة بهم. الجياد لا تموت أو تشتكى، بل يتم إطعامها وسقيها بانتظام. ولا أحد يهتم بشكل خاص بالجياد هذه الأيام، إنهم مشغولون أكثر بالنساء والمريسا المخمرة المسكرة التى يبدو أنه يوجد منها مخزون غير محدود فى الحجرات المظلمة الباردة تحت المنزل. أثناء النهار يجلسون فى الشمس فى أشكال متعددة من العرى أو يرقدون على ظهورهم فى الظل ويحملقون فى الشمس. من حين لآخر تندلع معركة ولكن لا أحد لديه طاقة ليعارك، ولذلك كانوا يشتمون بعضهم بعضا لوهلة ويعدون بالاهتمام بأمر العمل فيما بعد. حتى النساء لم يعدن يجذبن اهتمامهم كما كن فى بادئ الأمر، ما عدا فارس الذى نادرا ما يأتى من الحجرة العلوية التى اغتصبها لنفسه. كانوا يرونه مرة واحدة كل يوم يقف فى الشباك الواسع يمد ذراعيه ويتمطى قبل أن يستدعى إحدى الفتيات لتأتى إليه. ملت منه الفتيات ولكن لحسن الحظ مع وجود تسع عشرة فتاة هناك ما يكفى ليظل مشغولا. معظم الرجال كانوا يفضلون النوم، وهاب يجلس فى الشمس ينظف بندقيته أو يصلح سرج حصانه، يثقب كل القواقع التى

يجدها فى حزام الرصاص الخاص به ويفليها . لا أحد يفكر فى الجياد؛ لأنه إلى أين يذهبون من هنا؟ ولا أحد يعير اهتماما إلى مكان الصبى ما عدا عبد التوم، الذى أغرم بالمكان ويقضى وقته إما بالتجول صعودا ونزولا بحثا عن أشياء يصلحها أو بمساومة العجوز الشمطاء، التى تقول دائما وهى تسحب ماسورة البايب الملساء الناعمة المصقولة المصنوعة من العاج المنحوت من بين لثتها الحمراء وتلصق شفيتها إحداها بالأخرى باستمتاع: "أنا حريصة جدا على وضوح حساباتى وسوف أرسل بهذه الفاتورة إلى الخديوى ذاته".

أصلح عبد التوم النوافذ التى كانت معرضة للسقوط على رعوس الناس. كان يلف الشرفة العلوية ليبدل أعمدة السور المحطمة. بدأ منزل الباشا فى تلقى بعض الاهتمام الذى كان يتوق إليه منذ عدة سنوات.

يوما ما وبينما هو على السطح يحاول ترميم بعض الشقوق بالقش وطبقة مخلوطة من السعف والطين، لمح كادارو يخرج من جدار أحد الأبنية المحطمة خلف المنزل ومع الفتاة الغريبة، نون، التى تنظر إليها المرأة العجوز بوصفها لعنة عليها؛ لأنها نقلت عدوى مرض تناسلى خطير لكولونيل تركى عابر، فى العام السابق لمولدها سأل عبد التوم نفسه: "ماذا يفعلان الآن؟".

هذا المساء وبينما كان الآخرون يأكلون تبعهم عبر باب المدخل فى الجدار الخلفى، نادى "كادارو"، ليووقف الصبى فجأة وهو يثب. وقفت الفتاة بجانبه ساكنة. "ماذا لديكما هناك؟"، ظل "كادارو" و"نون" صامتين. تقدم عبد التوم خطوة إلى الأمام ولكن الفتاة اعترضت طريقه.

نظر الرجل العجوز جيئةً وذهاباً بينهما. بدأ يضحك، ضحكة خافتة صادرة من حلقه "ما هذا؟" سأل "هل وجدتما جرواً صغيراً؟" غمز بعينه، "أم أنكما تتعلمان كيف تصنعونهم؟"، لم يجب أحد منهما.

قال: عبد التوم بهدوء: "دعونى أرى". تنهد "كادارو" الذى يحمل الصينية وهز كتفيه دون مبالاة. خطت نون خطوة إلى الوراء ورفعت المسدس. نظر الرجل العجوز نظرة غريبة من عينيه الصارمتين ذات اللون الفاتح اللتين تشبهان الكهرمان المصقول. "من أين حصلت على هذا؟" شعر كادارو باضطراب فى معدته. لم تتحول عينا الرجل العجوز إليه مطلقاً بل ظلت مثبتة على الفتاة التى لم تصدر عن معصمها النحيف أية رعشة "ماذا قلت لك يا فتى؟ همس. "فليحمننا الله من النساء؛ لأنهن بالتأكيد أغرب المخلوقات التى خلقها الله فى هذا العالم على الإطلاق".

وقف ثلاثتهم هناك. غير عبد التوم موضع قدميه. فقد تبيست ساقاه "إذا كنت ستطلقين على الرصاص فهيا قومي بذلك" قال: بعد فترة. تفحص كادارو قائلاً: "سوف تكتفى بالوقوف هناك؟"، تردد كادارو، ممزقاً بين الرجل العجوز والفتاة. "سردارين من الفرنجة" أفشى كادارو السر دون تفكير.

"ضابطان من الفرنجة هل أنت متأكد؟ ليسا تركيين؟".

تجاهل كادارو لمعة عيني الفتاة وأوماً برأسه بسرعة.

"من أين أتيا؟" حك الجندى العجوز الشعر الأشيب فى فروة رأسه. أشار إلى المسدس "أعطوك هذا؟".

"أخذته" ردت بإصرار. "إلى أين ستأخذانهما، أسيراكما؟"، قال الصبي: "إلى الخرطوم". ضحك عبد التوم واستدار مبتعدا. مشى بخطى بطيئة بأرجله المقوسة عبر الظلام نحو البيت، وهو يقول مقررا: "فقط احرصا على هذا المسدس، فمهما وعدكما ضابطاكما فسوف تحتاجان إليه".

فى منتصف نهار اليوم التالى جاء زنزير ممتطيا جواده بسرعة جدا إلى الفناء. فقد رأى سحابة تراب تتحرك بسرعة تتلاعم مع حركة فرسان، تآتى فى اتجاههم.

"قد يكونوا فرساننا" نخر فارس، الذى لم يكن يريد أن تنتهى حالة الرضا والطمأنينة التى يعيشها.

إلا أن وهاب وقف مسرعا وقال: "إذن تخبرنا عندما تكتشف الأمر". "لن أنتظر".

انقسم الآخرون على أنفسهم إلى حد ما ودارت مناقشة قصيرة. "ماذا عن الفتيات؟" سأل رازق. اثنان من الآخرين، مخدرين وساكتين؛ بسبب إقامتهما، غمغا بموافقتهما.

أذعن قائلا: "تأخذ أكبر عدد يوافق منهن على الذهاب معنا". تحركوا بسرعة الآن، يجمعون أشياءهم بعضها مع بعض، ويجمعون البنادق وأكياس الذخائر الحربية. "ماذا عنك أيها الصبي؟" سأل وهاب وهو يصعد على سرج جواده. هز كادارو رأسه. هز البمباشى كتفيه. "إنها حياتك".

ساروا فى صف يسارعون الوقت، تبدو الجياد متربة ونحيفة أكثر من أى مرة رأها فيها. الفتيات اللاتى ركبن كل اثنتين على العدد الفائض من الجياد، كن يبكين لسبب ما. رفع زنبير بندقيته للتحية قبل المغادرة. كان فارس ورازق فى وسط معركة. ظهر عبد التوم وهو يقود الجواد الذى يجر المحفة التى تحوى بقايا سانجاك جوما. "إنك تكاد أن تكون أكثر طولاً منى الآن" قال الرجل العجوز لكادارو: نظر إلى العنان فى يديه لحظة، ثم نظر إلى الأفق وهز كتفيه.

وهكذا تقرر الأمر. لأول مرة يبدو عبد التوم طفلاً إلى هذا الحد. تذكر أول مرة التحق فيها بالباش - بوزوك. كانت أمه قد باعته للجيش، رغم أنه لا يعرف الظروف بالضبط، كان يتذكر فقط رائحة دافئة ومريحة تأتى إليه فى الليالى الرطبة فى موسم المطر وهذا هو أقسى أنواع الحزن أو الفقد التى شعر بها.

كان التوم هو الذى استقبله واعتنى به وكأنه ابنه. وكان التوم الذى يتأكد من أنه قد حصل على طعام كاف، وهو الذى حماه من الأصابع الضالة لهؤلاء الذين يبحثون عن من يستقلوه لمتعتهم الشخصية. تحدث عبد التوم إليه كإنسان كبير وليس كطفل. كان يقرأ له من القرآن، وكان يتحدث إليه عن الدين، سر الأسرار. وعندما كان يتحدث كان حديثه يبدو منطقياً.

"لماذا حتى الرسول محمد نفسه لم يكن يعلم ما رسالته".

"سمع كلمات الملاك جبريل".

"نعم ومتى بدأ عقله يدرك هذه الكلمات الرائعة، عندما بدأ وهو الرجل الأُمى، يتدفق بشعر بهذا الجمال والحكمة، تصور ماذا كان شعوره؟ لقد كان يتعذب".

"إلى متى يجب على أن أنتظر؟".

"حتى تتأكد أن الصوت الذى تسمعه هو الصوت الحق".

كان البيت خاليا الآن. الريح تهب عبر الحجرات الكبيرة. التراب مستقر على أرض الحجرات فى الأركان وعلى المرأة العجوز التى تجلس وحيدة على كرسيها الكبير تنتظر. نون تنتظره فى الخارج عند خن الدجاج، بين الجدران المحطمة والطيور الميتة. انتظرت وذهب إليها مثل الحلم. كان معهم الحيوان الوحيد الذى تركه الآخرون، بغل عجوز وجدوه يتجول بين الأشجار الشائكة خلف المنزل. الأصغر سنا من "الجنرالين" كان مستيقظا استطاعوا معا أن يركبوا الأكبر سنا، وهو الذى كانت ساقاه أضعف من أن تحمله على البغل وربطوا معصميه إلى البغل ليحموه من السقوط. ثم استدار كادارو وقاد طريق الخروج من القرية المغمورة. لم ينظر أحد منهم خلفه ولو لمرة واحدة.

١٥- معركة شايكان

من ٣ - ٥ نوفمبر ١٨٨٣

وبينما هم يسحبون الجواد الميت على طرف الوادي، اكتشف مدني مجموعة من أغصان شجر الدردار وفكر فوراً "حطب الوقود". قفز من العربة الكارو، وحث البغل العجوز على التوقف وهو يسلم العنان للصبى الذى كان يجلس بجواره. ثم مشى بجانب العربة وهو يجمع الأغصان ويلقيها فى الكارو. وبعد فترة نادى على الصبى؛ كى ينزل لمساعدته. ثبثوا غصنا خلف إحدى العجلات ليعمل كقرملة. "دع هذه الكارو تستمر فى الحركة" نادى بمباشى يمر عليهم، ولكن مدني لا يعبأ بالالتزام بشكل الصف، إنها مهمة شخص آخر.

أوماً قائلاً: "نعم، نعم". "يقولون ما يشاعون" همهم لنفسه، ولكنى أعرف على من يلقي اللوم عندما لا يكون الشاى جاهزاً؛ لأن الخشب رطب جداً وداخن. كان بالفعل راكعاً على الأرض يسحب جذع شجرة سميك ليمرره من تحت شجيرة مسكيت خفيفة عندما بدأ إطلاق الرصاص، صخب هائل وكأنه يصدر عن انهيار جبل تحجر قلبه. "فليهدم الله منازلهم". كان على وشك الوقوف عندما انطلقت رصاصة ضالة عبر أوراق الأشجار فوق رأسه وارتطمت بشجرة محدثة صوت مكتوم. ألقى بنفسه على الأرض وبينما هو يقوم بذلك رأى الصبى يتسلق إلى داخل

الكارو ليرى بشكل أفضل. كان على وشك أن يناديه، ليقول له أن يجلس عندما انحدر الصبى إلى الخلف لينزل على كومة من الأكياس فى مؤخرة الكارو. لا بد أن الرصاصة قد اخترقت صدره مباشرة، لم يصدر منه أى صوت.

مدنى يستلقى ساكنا ووجهه مضغوط فى الأرض. الرصاصات تطير فى كل اتجاه والرجال يندفعون فى كل مكان وهم يصيحون. سمع صوت انطلاق أحد المدافع الرشاشة الكئيب. زحف إلى الأمام ورأسه ملتصق بالأرض حتى استطاع أن يحدق إلى الوادى. كلا الجانبين وقاع الوادى مليئان بدخان البنادق. النيران تأتى من كل الزوايا. زحف إلى الخلف فى التجويف الذى كان يستلقى فيه، شبك يديه فوق رأسه وأغمض عينيه وبدأ يصلى.

إلى أعلى، بغل التحميل الذى يركبه شيروود لوث بدأ فى الفرار مذعورا وألقاه من على ظهره وهو يركل ويصهل. اختفى بين الأشجار الخفيضة الكثيفة. تاركا إياه على ركة واحدة تحيطه من كل جانب حالة من الهياج. فى كل مكان ينظر إليه يرى رجالا يتساقطون، إما جرحى أو قتلى لا يستطيع أن يحدد بدقة. بجانبه يستلقى جمل ورأسه مشقوق لسبب غير معروف. سمع صوت صراخ ولم يدرك لوهلة أنه يصدر منه، صراخ بأعلى صوته. رأى العدو أيضا. من المداهش مدى بساطة مظهرهم: عجائز، ورجال طوال ونحاف، وصبية صغار بالسيوف الصدئة نفسها والبنادق التى عفا عليها الزمن، حفاة يرتدون ثيابا خفيفة ممزقة مرقعة، رأى الجنود يشكلون صفوفًا محاولين تنظيم نسق إطلاقهم للنار

بأفضل ما يمكن. وضابط عار الرأس يصدر أوامر الالتزام بالنظام بجانبهم حتى سقط أيضا في فوضى الدخان والأجساد.

كان العدو يحيطهم من كل مكان. ينفجرون ببساطة من تحت الأرض. أصدر الجمل الميت رائحة بول دافئ. جوانبه ممزقة مسلوخة الجلد حيث حفرتها الأحبال والسروج. كان الناس يقفزون فوق شيروود. رأى رجلا جريحا تتدفق الدماء من رأسه، وآخر وحالة من عدم التصديق على وجهه محاولا سحب رمح من صدره. شئ ثقيل سقط على ظهر شيروود وانتابته حالة زعر. تلوى وركل بسيقانه وأخذ يلکم ويتقلب حتى أصبح حرا.

اكتشف فيما بعد ما كان يضغط عليه، جسد ميت. الآن فقد سمعه تقريبا، دقت أذناه بصوت انفجار البنادق المستمر. كان الجنود يطلقون النار بأسرع ما يمكنهم إعادة حشو بنادقهم من طراز ريمينجتون ولكن الأنصار كانوا أسرع من أن يستطيع الجنود أن يصرعونهم.

وبينما هو يزحف محاولا أن يحفر طريقه في الأرض وهو يتشبث بحفنات منها بقبضة يديه، استقرت يده على بندقية أسقطها جندي. كانت ماسورة البندقية دافئة وكأنها عضو حي ملقى على الأرض. أحاطتها يده لحظة ثم دفعها بعيدا بسرعة. سقط على الأرض أمامه رجل جريح يتدفق الدم من ثقب في صدره.

كل مرة يحاول فيها التنفس، تنبثق موجة أخرى من الدم. تدلت رأسه إلى جانب وتعلقت عيناه وهو يسقط بشيروود وجمدته في مكانه.

تلقي المثلث الأمامي الوطأة العظمى لأول موجة من نيران حاملي البنادق. لقد كانوا يصلون إلى أعلى الهضبة الحجرية الصغيرة التي تميز نهاية قاع الوادى عندما بدأ إطلاق النار. رأى الجنرال هيكس الأرض أمامه ترتفع فى نوبة من الرجال غير المدربين الهمج والتراب: موجة من الرجال بينما منذ دقيقة كانت الأرض ساكنة. بجواده، اندفع جندى إليه، منتهزا الفرصة وحاول سحبه من السرج؛ لتأمين هروبه. سحب هيكس سيفه وصرع الجندى فى فورة من الطعنات السريعة. صاح أمرا الآتين من الشمال فى اتجاه جناحى الجيش الأيمن والأيسر. ظهرت مجموعة من الأنصار من بين الأشجار تحركوا فى اتجاهه. ظن أنهم يشبهون الطواويس بالملابس ذات الرقع الملونة التى يرتدونها.

إلى الخلف على الجانب الأيمن للجيش كان علاء الدين باشا يكافح لينزل من فوق جواده الذى يدور مفزوعا. عانى ليسيطر عليه، لقد قطع سير اللجام، قطعه صبى انحنى تحت رأس الجواد لتجنب ضربات سيفه. حرر إحدى قدميه ولكن الأخرى علقت. تملكه الذعر، صرخ وركل بقدميه واستطاع أن يحرر نفسه. سقط على الأرض وسحب مسدسه فى الوقت المناسب ليرى لحية رمادية عجوز لرجل ظهر خارجا من تحت الأرض وجرى نحوه وهو يحمل رمحا طويلا. وهو شبه مغيب عن الوعى رفع ماسورة مسدسه وجذب الزناد فاخترفى الرجل عن النظر. كل ما حوله كان صرخات تطلب النجدة لرجال يموتون.

نادى على البمباشى ليجمع الجنود وسحبت الإبل إلى حاجز. كان يحتاج إلى أن يعرف كيف سارت الأمور مع هيكس ولكن فى صخب

الرجال والحياد كان من الصعب أن يرى المرء أبعد من ياردات قليلة. كانوا في أرض خالية صغيرة بين الأشجار تحيطها الأعشاب والأشجار الخفيضة الكثيفة. سيحتاجون إلى استجماع قوتهم والانسحاب لأعلى المنحدر خارجين من الوادي. هيكس ورجاله كانوا في المنخفض في قاع الوادي. في شرك تام.

حدثت معجزة، هدوء في القتال. ضعف إطلاق النار في جوانب التل وأصبح يجيئ شيئاً فشيئاً. بدأ الجنود يستجمعون قواهم، يظهرون من بين الأشجار، يزحفون على بطونهم، يجرون وكأن الشيطان نفسه خلفهم. يسقطون على وجوههم، يلتصق بعضهم ببعض يركعون وظهورهم ملتصقة بعضها ببعض، يطلقون النار يحشون أسلحتهم بالطلقات، ويسحبون جثث البغال والحياد الميتة حولهم لحمايتهم. الصمت مثل معجزة هبطت عليهم. لا يجرؤ أحد على الحركة؛ خشية أن يقطع فترة الراحة ويسقط عليهم النار مرة أخرى. أحدهم يبكي، نشيج متقطع. الهواء ثقيل مع طنين الذباب. رائحة البراز والدم والموت معلقة عفنة فوقهم. تنبعث من التراب والعشب. يتشبثون بعضهم ببعض، كتف إلى كتف. عيونهم تبحث عن أى حركة ولكن ليس هناك حركة. جاء السكون فجأة واختفى الجحيم.

اقترب الغسق وبدأ الضوء يخفت. تحرك علاء الدين بين الجنود. ارتفعت العيون الشاحبة لتلتقى بعينيه ثم تنظر بعيداً. هناك همس أعلى الأشجار. أجنحة تخشخش في العشب الطويل. يتوقف هنا وهناك ليطمئن الجنود. أية كراهية كانت بين الجنود والضباط انتهت الآن.

يغطى الذباب الذى يطن بوحشية جثث الحيوانات الميتة، وتدور الصقور فى دوائر متواصلة. هبط الظلام. تم توزيع الطعام القليل المتاح. وتقسيم حقيبة ذخيرة حربية. وعزفت الكلاب المفترسة سيرنادة من العواء وهى تحدق بأعين حمراء ومتلهفة من بين العتمة، بعضها جرؤ على المجيء وأخذ يتشاجر ويمزق فى الجثث، ظلت طوال الليل تعوى دون هواده. من حين إلى آخر يفقد أحدهم أعصابه فيطلق بعض طلقات فى الهواء على النجوم غير المألوفة التى تومض بين الأشجار.

طوال الليل أصوات تنادى برقة من جوانب التل تحثهم على تسليم أمرهم لإرادة الله. صبى يتلو آيات من القرآن من سورة الفاتحة بصوت جميل جعل الجنود المحاصرين يبكون.

جاء الفجر ومعه إطلاق النار. أية جنوة من الأمل قد يكون خيالهم قد لمسها فى الظلام الموحش انطفأت على الفور. لقد حوصروا. لا يستطيعون الحركة سواء إلى الأمام أو إلى الخلف. فكر علاء الدين أنه أمر غريب. "يبدو أنهم غير متعجلين. ليس لديهم أى خوف منا على الإطلاق".

فى وقت متأخر بعد الظهر كانت هناك فوضى بين الأشجار إلى أعلى. مجموعة من الجياد والإبل جاءت مندفعة إلى الخلاء. بين الصخب لمح علاء الدين جنرال هيكس لا يزال راكبا جواده يلوح بسيفه بيد ويطلق مسدسه بيده الأخرى. كان يقود الحيوانات كدرع أمام رجاله المرهقين. يحاولون اختراق خطوط العدو. "اصعدوا" صرخ علاء الدين وهو يقف.

"يجب أن نساعدهم". قام الجنود ویدعوا يتحركون معا إلى الأمام. "جنرال" لوح علاء الدين بيده وصاح. ظن لثانية أن هيكس نظر إليه وابتسم، ولكن في هذه اللحظة ظهرت مجموعة من الأنصار من بين الأشجار مثل جماعة من النحل. ومثل رجل يحاول أن يسبح ضد التيار، كافع علاء الدين ليتقدم. بدا الجنرال على حافة السقوط في أيدي العدو. كان مسدسه فارغا. رآه علاء الدين يلقيه على الأرض وبدأ يضرب ضربات متوالية رجلا يحاول بسرعة جدا الانحناء تحت رأس جواده من جانب لآخر وكأنها لعبة ثم سقط الجواد ونزل هيكس إلى بحر الأذرع والوجوه ليختفى. اندفع جمل وكان على علاء الدين أن يقفز بسرعة ليتجنب أن يصرع. احتدم إطلاق النار محدثا ضجة لدرجة أن صراخ علاء الدين مثل المجنون لم يكن يسمع مطلقا.

وجد علاء الدين نفسه وحيدا فجأة. استدار ليرى صبيا لا يزيد عمره عن اثني عشر عاما يقوم من على الأرض ويدفع سيفا قصيرا عريضا بين ضلوعه. شاهد شفرة السيف غير المنتظمة تختفي وشعر بألم شديد ثم خدر. انتزع السيف القصير من يد الصبي بينما الحاكم العام قد ترنح إلى الوراء. استجمع الصبي قوته واندفع إلى الأمام وأسقطه على الأرض. استلقى علاء هناك. مقبض السيف الحديد مربوط بسعف النخيل. وليس حتى بالجلد المدبوغ. أسره شكله وملمسه. رفرقت شعرة في الهواء. فكر أن هذه هي الطريقة التي يموت بها الناس منذ قرون طويلة. يستطيع أن يسمع الهواء يهرب من رثته المنقوبة مثل صخب بحر عن بعد. كان العالم ساكنا، ما عدا هذا الصخب الذي يصدر في

أذنه وكأنه من صدفة بحر. نفحات من دخان الأعيرة النارية ما زالت تثور من جانب التل، منظر جميل مثل حقل القطن يلوح عند الشمس، وقف الصبى لدقيقة ثم انقشع الشك من على وجهه وخطا إلى الأمام متهللا مبتهجا. وضع قدمه الحافية على سترة الرجل المقتول وسحب سلاحه ورفعها إلى أعلى. أدار رأسه وصرخ "النصر لنا".

عندما توقف إطلاق النار كان مدنى الطباخ يستلقى على بطنه تحت مجموعة من الأشجار الكثيفة المنخفضة حيث قضى ليلته. الأشواك تنقر فى لحمه ولكنه لا يشعر بألم. النمل يزحف فى خط طويل على ساقيه ويقرصه حتى انتفخ كل جسده، إلا أنه لم يطلق أى صوت. يغطى وجهه التراب حيث دفن نفسه فى الأرض. جواد لا يمتطيه أحد يصلصل، ساق متدلّية من ركاب. وكان يريد أن ينتظر حتى هبوط الليل ولكنه خشى أن يتم اكتشافه. حرك السترة التى كان يرتديها وخلعها وألقاها بين الأشجار فى الخلف. زحف إلى الأمام حتى وصل إلى جسد رجل ميت. عندما دار الجسد وجد النمل يزحف من محجرى عينيه. "فليحرسك الله ويهديك يا ابن الكلب" قال: بينما تصطك أسنانه. كانت أصابعه ترتعد وهو يخلع القميص الملطخ بالدماء ويلفه حول رأسه. رائحته عرق وحياة رجل آخر، إنه ملكه الآن. مشى متعثرا وهو حافى القدمين فى اتجاه الوادى حيث كان ينتظره منظر مذبحه. كانت الجثث مكومة واحدة فوق الأخرى. لم يكن يدرك ما يحدث، ليس بالضبط، ليس بمعنى الثمن الإنسانى لكل هذا البارود والصخب.

مشى متعثرا إلى الأمام وهو يبحث عن وجه مألوف، شئ يتعرف عليه وسط هذا الحصاد الغريب. مسح وجهه فى كفه. حصان فقد

استخدام ساقيه يدور من جانب لآخر محاولا أن يقف قبل أن يسقط مرة أخرى على الأرض. راقب مجموعة من الأنصار وهم يسحبون هيكلا بشريا متسخا من تحت كومة من الموتى. كان الرجل الإنجليزي يصرخ ويزحف مثل الرضيع، يغطيه الدم من رأسه حتى قدميه ولكن يبدو أنه لم يلحق به أذى. كانوا يدفعونه ويوجهون له أسئلة وهم يصرخون، ولكنه يبدو مخدرا أو فاقد الحس وكأنه مغشى عليه سحبوا الحقيبة من على كتفه وبحثوا فيها، لم يجدوا سوى الكتب. ألقوا بها جانبا محاولين البحث في قبعته بدلا منها. وفي النهاية وثقوا يديه معا واقتادوه بعيدا.

تنقل مدنى إلى مكان آخر وقابل سريعا مجموعة من الرجال يركعون حول صندوق طبي. رأى رجلا يغمس إصبعه فى زجاجة مرهم ويرفعه نحو فمه، ومن الواضح أنه يعتقد أن المرهم نوع من أنواع الطعام. بتلقائية مد مدنى يده ليمنعه. استدارت الوجوه نحوه، أوضح بضجر "إنه سم". وضعت الزجاجة مرة أخرى فى الصندوق ومسح الرجل إصبعه بعناية فى سترته.

امتدت يد لتقبض على كتف مدنى وهو يزعم الرحيل. ابتسم الصبى قائلا: "انتظر". استدار مدنى لينظر إلى وجهه. كان صغيرا وذكر مدنى بابن أخ لم يره منذ سنوات. "كيف عرفت ما هو". هز مدنى كتفيه بلا مبالاة ونظر حوله باحثا عن إجابة. أشار إلى الطريق الذى جاء منه وقال: "رأيتك من قبل لقد كنت أتجسس عليهم". اقترب رجل آخر "من هو أميرك؟" نسى أمر الصندوق الطبي حيث وجهت الجماعة اهتمامها إلى الرجل العجوز المرتبك. "من أين قلت إنك جئت؟" يستطيع أن يشم

سخونة دمهم. أخذ يتنقل بعينيه من وجه غير مألوف إلى آخر، وأصبح أكثر حيرة. "سقطت". وضع مدنى يده على رأسه وأخذ يحملق فى الأرض. الآن مد الرجل الأول يده ليهدئه قائلاً: "لا تقلق أيها الرجل العجوز". ولكن مدنى انسحب إلى الوراء وتمزقت الجوىا لتكشف عن قميصه العسكرى. أخذوا يهاجمونه الآن حيث انتابتهم موجة من الحمى. "اشنقوه". "ابن الكلب أحد الأتراك الملحدين" بكى مدنى قائلاً: "لا والله شاهد على". ناشدهم "يا إخوة!". امتدت الأيدى لتنال منه. فجأة، ظهر رجل طويل. "ما هذا؟" رفع مدنى بصره ليرى واد النجومى يقف أمامه. أسرع الجمع يعرضون قضيتهم. رفع الأمير يده طالباً الصمت. خطا إلى الأمام "أيها الرجل العجوز هل أنت كافر؟". هز مدنى رأسه بالنفى. وغمغم قائلاً: "لا إله إلا الله. محمد رسول الله".

"إنه خائن" تذر أحد الحضور.

"أنا لست جندياً" تتمم مدنى. "أنا مجرد طباطخ".

أوماً نجومى. "تعالى معى أيها الرجل العجوز، لقد سال ما يكفى من دماء اليوم". وبذلك استدار وتقدم الطريق.

١٦- النيل الأبيض

ديسمبر ١٨٨٣

"سيموت خلال ثلاثة أيام" قالت: الفتاة وكانت على حق. لقد افترسه السم الذى فى نراعه. جفت شفثاه وأصبحت مثل الجلد المدبوغ وتورمت. اسودت عيناه مثل السيج. جلس الإفرنجى الآخر على التراب مرهقا جدا لدرجة أنه لا يدرى بما يدور. حفر كادارو حفرة فى الرمل وبنيا جبلا من الصخور الحادة على الرجل الميت. مشوا ثلاثتهم ببطء فقد كانت البغلة الوحيدة التى يملكونها تعرج بشكل مؤلم. كانت تسير مترنحة عندما يأخذون دورهم على ظهرها. الريح تمسد برفق حاشية ثوب الفتاة وتمحو برقة أثار أقدامهم عندما يذهبون.

كان كادارو يوضح ما يعرفه عن الأتراك. "هم دائما يكافئون الرجل عن العمل الجاد، هم عادلون" اعترضت نون على نظريته بهزة من ذقنها. قالت: "إنك لا تعرف شيئا عنهم، إنك جندى، صبى، الجندى يقوم بما يطلب منه؛ لأن هذا واجبه. إذا ألقيت إليه عظمة يصبح شاكرا أبد الدهر". نبهت هذه الفتاة النحيلة صغيرة السن كادارو إلى الخطر مرة. تساعل كيف تجول كل هذه الأشياء فى رأسها الصغير؟ إنها تعرف أكثر من عبد التوم الذى يفوق عمره عمر الصحراء. استدار لينظر إلى الطريق الذى أتوا منه. عبر الأرض المنبسطة الطرية التى لا يقطعها

سوى أشجار السنط الصغيرة المتناثرة، يستطيع أن يرى هيكل الإفرنجي. كان يترنح، يسير ورأسه تجاه الشمس، يسير متلويا مثل طائر. بهذه الطريقة لن يتقدموا كثيرا. بينما الفتاة تمشي متنزهة إلى الأمام وكأنها فى سوق. تنهد وشد الحبل للدابة مرة أخرى، ناداها "انتظري". استدارت لتتظر إليه ثم استمرت فى السير. ضرب جانب البغل وهو يلعن وأسرع ليلحق بها. "لماذا لا تنتظري عندما أناديك؟". "لأن الطريق يأخذ وقتا طويلا جدا". "أنا المسئول هنا". قال وهو يضرب بيده على صدره: "لا يمكنك أن تسيرى وحسب قد تنتهى". أجابت "أنا لست فى جيشك، إذا أردت أن أسير أستطيع أن أسير". "هذا ليس صحيحا" كان كل ما استطاع كادارو أن يقوله، وهو يهز رأسه ويسأل نفسه لماذا كلما فتح فمه ليتحدث مع هذه الفتاة يشعر وكأنه ضرب بالسوط بعنف.

أضاف "أن هذا فقط غير صحيح". "يمكن أن تنتهى بكل سهولة".
"أعرف الطريق".

"إنك لم تأت إلى هنا من قبل. لقد أخبرتني بذلك".
"لا". لا يستطيع أن يفهم سر السحر الذى تأسره به. كل شيء تقوله من الصعب أن يخالفه.

فى لحظة يريد أن يقتلها وفى التالية..... "أعرف الأرض" قال:
أخيرا. "لقد سافرت. أعرف كيف.. يكون".
رفعت يدها لتحمى وجهها من الريح المتربة. قالت: موافقة: "حسنا".
"أى طريق نسلك؟".

بلغ كادارو ريقه. كان حلقه جافا وقدميه متعبتين. أنحرف نحو الجنوب: "تلك الأشجار هناك. أعتقد أنها تصبح أكثر كثافة في اتجاه الشرق. نتبعها".

استدار كلاهما ليُنظر إلى الخلف. كان الجن الأصفر يرقص في دائرة، يغنى عويلا غريبا غير متناغم، مثل فتى غر يموت. بصق كادارو على الأرض وهز رأسه. "لقد فقد عقله".

راقبوا سحابة الغبار وهي تقترب. نمت من بقعة صغيرة في الأفق، تندفع مع الريح لتملأ السماء بلونها الأصفر الغامق. الريح تجذب ملابسهم بقوة، ورائحة الغبار - القديم المضجر، خفيف الحركة مثل السنين ومظلم كالقبر - كانت بالفعل فوقهم. استلقوا على الأرض، لا يوجد مكان يمكنهم الذهاب إليه. استمرت العاصفة ليلا. جعلهم كادارو يغطون رؤسهم بأى شيء يجدونه؛ كالبطاطين وأغطية الرأس. كانوا يستلقون كالموتى الذين يدفنون ببطء.

مرت رياح الهبوب. بربشت عينا كادارو منفتحة. سقطت الشمس والعالم الذي تحرر من شدة حر الظهيرة أصبح أكثر هدوءا. شيء ما أيقظه. كانت الفتاة نائمة على جانبها، قطعة صغيرة غامقة اللون من القماش ملقاة على الرمال. الجن الأصفر كان أيضا نائما، خارج حدود الظل على وجهه، ذراعه وساقاه ممددة مثل رجل ميت. جلس كادارو مستندا إلى جذع الشجرة. الأشجار هنا أكبر حجما وأكثر كثافة. فروعها الجافة الحادة تخشخش مثل سيقان الحشرات الطويلة التي تحك بعضها بعضا. يمكنه أن يشم رائحة النهر.

فى الأسابىع الأخرىة قادهم كادارو بحذر عبر الأرض القاحلة؛ لىكتشفوا الماء، حىث من المستحىل أن ىتخىل المرء أن ىوجد، وىجدوا الطعام على شكل جذور الفاجو فى الأرض أو قرون فاكهة الدوم الجافة التى ىمضغونها. لأول مرّة ىبدو أنه يفهم الأرض. بدأ ىرى أشياء لم ىكن ىلاحظها من قبل: صغىرة، تغىرات طفىفة فى لون التراب والهضاب الموجدودة بىن السهول. أمىال لا ىمكن حصرها من الرمال والصخور العظىمة الجافة بدأت تتحدث إىله. لا ىستطىع أن ىفسر الأمر ولا يفهم لماذا ىحدث ذلك الآن. ىشم رائحة الأشجار نصف ىوم من السىر بعىدا، أراض متشققة من الطىن الجاف ىسقط فىها الماء عندما ىأتى المطر، حبوب صفراء صغىرة حىث سىظهر العشب ىستطىع أن ىحدد آثار الغزال والكود kudu*، وىرى الكرات الصغىرة التى تدل على وىجود فئران حمراء، وهى التى ىمكن أكلها أىضا. بدأت الأرض تكشف أسرارها أمامه.

أخذهم الطرىق شرقا، ثم أنحرفوا شمالا ثم جنوبا إىلى الطرىق الذى أتوا منه، قبل أن ىجنحوا شرقا مرّة أخرى. لا ىوجد معنى لذلك ولكن الطرىق ىعس بها مجموعة من الرجال الىقظىن* الذىن ىتنقلون لجمع الأخبار ونشرها. كانوا ىنامون فى الخلاء أو فى حماىة القرى المهدمة. وىقابلون قلىلا من الناس، وكان من ىقابلونهم مرعوبىن مثلهم من الاتصال بالآخرىن. كانوا ىتحركون فى دوائر واسعة وكأنهم ىشتركون فى طقس رقصة قدىمة لىس لها اسم. -

(* الكود: بقرة وحشىة أفرىقىة. (المراجع).

هش كادارو الغربان بعيدا عن وجهه وانحرف فى اتجاه أزهار الميموزا البعيدة المترنحة. كان فى أرض ممتدة منبسطة، إلى الشرق ارتفاع طفيف وبينما هو يصعده رأى صفا من قصب السكر الذابل، أعواده صفراء ومجففة. لقد كان يعيش هنا شخص ما، ربما فلاح وأسرتة. توقف ليفحص نباتا غريبا ذا أوراق كبيرة تسقط من فروعه قرون منتفخة خضراء. مد يده ليلمس إحداها وضغطها؛ لتخرج سائلا أبيض ينز فى أصابعه مسحها بعناية فى سرواله.

شئ ما سحر عينيه، حركة ما. سقط على ركبتيه وهو ما زال يقبض على الكرات الخضراء المنتفخة إلى صدره. تحته النهر يتلألأ. كان هناك شخص ما فى المياه الضحلة: إنها الفتاة نون. كانت تستحم، جسدها العارى ليس به عيب مثل منارة تشع ضوءا. بلغ الماء ركبتيها بينما كان يرى شعاع الشمس ينعكس من جلدها وهى تصب الماء على جسدها. بدت كأنها تشتمل على كل ألوان قوس قزح، الأحمر والأزرق والأخضر. كان جلدها مثل شعاع من الضوء ينتشر فى أضواء كثيرة منفصلة بعضها عن بعض. شعر أن أفكاره أصبحت غير أخلاقية حينما هاج جسده وانتصب ذكره. كانت أجمل شئ وقعت عليه عيناه على الإطلاق. تحرك وأدت الحركة إلى اندفاع طائر الحباك من بين أعواد قصب السكر. استدارت ونظرت فى اتجاهه. قفز قلب كادارو فى فمه. ألمه صدره لدرجة أنه أصبح يتنفس بصعوبة. كانت تقف هناك، تومض فى ضوء الشمس، وكان يعرف فى هذه اللحظة أنه لن يستطيع أن يخطو إلى الأمام فى الضوء. أحنى رأسه بسرعة وبدأ يجرى.

لم يعرف كادارو إلى أى مدى سار، استغرق فى معرفته البسيطة بالنهر. شعر بالأمان هنا وبدأ سريعا ينسى. هكذا التقى بالركب. مركب صغير. يقف رجلان فى الماء الضحل يزيلان عنه الحمولة: أحدهما قصير قوى ممتلئ الجسم، والآخر أطول أكثر من متوسط الطول العادى، له كتفان قويان ويدان كبيرتان. استطاع كادارو أن يرى وجهه وهو يصعد من النهر: إنه وجه أرهقته الرمال والرياح. بشرته غامقة اللون وناعمة مع شعرات صغيرة فى ذقنه، أنفه كسرت من قبل تميل إلى الانبساط إلى جانب واحد. مسح كادارو يده عبر فمه وشعر بالجوع. لاعنا نفسه لعدم إحضاره المسدس معه. كان الرجل القصير يحاول أن يسحب المركب عبر الضفة ولكن تيار ماء تحته أعاقه وأخذ يكافح. كانت مقدمة السفينة تهتز فى المجرى المائى بينما الرجل متعثر حتى فخذيه فى الماء، ساقا سرواله مرتفعة دون فائدة الآن؛ لأن الماء يدفعه إلى الخروج أكثر وأكثر. عض كادارو شفتيه، سيكون حقا سيئا حقا أن يراقب المركب وهو يسير بعيدا فى النهر. فبالركب يمكن أن يصلوا إلى العاصمة فى خلال يومين. استعد لينزل النهر ويساعد الرجل المتخبط؛ لأن زميله، دون أن يدري بمحتته، ما زال يسير إلى أعلى المنحدر فى اتجاه الأشجار حاملا غزالا ميتا على ظهره. اهتز المركب مرة أخرى وبدا أن الرجل القصير يفقد ثباته فجأة وهو يدخل الماء حتى خصره.

وقف كادارو وجرى. ركض إلى أسفل المنحدر ناسيا كل شئ؛ ما عدا المركب. شق طريقه فى الماء. اندفع إلى الأمام وقبض على جانب بدن السفينة. نظر الرجل القصير إليه. "ماذا تفعل باسم النبى؟". الآن

المركب تحت سيطرته ومساعدة الصبي أصبحت غير ضرورية. حرث الأرض عائداً بالمركب إلى الشاطئ بينما كادارو يبذل ما فى وسعه ليبدو ذا فائدة، يدفع فى اتجاه بدن السفينة. عندما أصبح المركب على الرمل. حول الرجل اهتمامه إلى الوافد الجديد. "أى شق ثعبان خرجت منه". نفخ كادارو الماء عن ذراعيه ورأسه. "كنت أسير ورأيتك. بدا أنك فى مشكلة". بصق الرجل على الأرض وأراح يديه على خصره السمين وقال: "أتعامل مع المراكب قبل أن تولد أمك".

من أعلى التل جاءت صيحة، كان الرجل الطويل فى طريقه إلى أسفل. "من هذا؟" سأل وهو ينظر من أحدهما إلى الآخر منتظرا الإجابة

هز الرجل القصير كتفيه. "يقول إنه كان يسير".

"يسير؟" كرر الآخر.

"تحت، هناك" أشار كادارو.

"تسير إلى أين؟" نظر الرجل الطويل إلى صديقه ولم يتلق إجابة عدا هزة كتف مستنكرة. نظروا جميعا إلى النهر. لم يروا سوى طائر الكركى وهو يشق طريقه طائرا برشاقة على الأمواج التى ضربتها الريح. استدار الرجلان ليختبرا الصبي. مد الرجل الأقوى يده ليلمس أطراف سترة كادارو البالية. "إنه جندى".

"كنت" أوضح كادارو "لقد تركتهم....." بدا أن توضيحه قليل القيمة. نظر الرجلان حولهما وهما يتفحصان الأرض المحيطة، الأشجار

التي ترتفع على المنحدر الضعيف والطين الفضى المصمت الذي يجرى على طول حافة الماء.

"ربما ليس وحده". قال: الرجل الطويل وهو يتحدث بأفكار الرجلين.

لعن الرجل القصير "ليس لدينا وقت للجنود".

ألقى الطويل بنظرة فى اتجاه كادارو. "هل هناك آخرون معك؟".

لعن الآخر هذه الغباوة. "هل تعتقد أنه سيخبرنا أن مائة منهم مختبئون بين هذه الأشجار؟".

"ماتوا" أجاب كادارو. "لقد قتلوا. أنا وحدى". تحرك الرجل الطويل مغيرا موضع قدميه "أليس لديك أسرة؟".

هز كادارو رأسه "ماتوا".

ملأت نظرة تعاطف وجه الرجل القصير. حك أذنه، وشعر فجأة بالحيرة. وسأله "كلهم؟". أوما كادارو بالإيجاب.

"كيف وصلت إلى هنا؟".

"مشيت".

راجع الرجلان الموقف فى صمت وأسرع الأطول إلى المركب. كردد ليس لدينا وقت للجنود". ثم سحب الحبال وبنندقية قديمة ولكن محفوظة جيدا. ناول كيسا لكادارو. "أحمل هذه. بها طعام يكفى بطن ثلاثة. ولكنى أحذرك، حرك يده محذرا. "إن خميس صقر عندما يتعلق الأمر بالصبية الصغار". ضحك الرجلان معا وهما يسيران إلى أعلى المنحدر الصغير.

بعد أن امتلأت بطنه، جلس كادارو محمقا في النار المشتعلة. تحولت أفكاره إلى الآخرين الذين كانوا هناك في الظلام ليس لديهم طعام وهذه المعلومة لم تكن دون إحساس بالارتياح أو الرضا عنها. لم يعره الرجلان اهتماما. جمعا خشبا وأشعلا النار وبدءا يقطعان الغزال إلى شرائح لشيها. من حين إلى آخر يتفحصانه ويلقيان إليه قطعة. كانا يشربان من جلد ماعز خمن أنه يحتوى على شيء أقوى من الماء. علت أصواتهما وأصبحت أسئلتهما أكثر هجوما "أنتم أيها الجنود تحبون أن تقلون كلى النساء والأطفال الصغار؟" قال: الرجل القصير وهو ينظر شزرا بطريقة كريهة وفمه يتسخ بالدهن.

قال الرجل الآخر ساخرا: "هؤلاء ليسوا الباش - بوزوك، إنهم الجنود العبيد - الجهادية".

هز الأثقل وزنا كتفيه بلا مبالاة ونظر إلى كادارو نظرة باردة "لا أحب الجنود" لاحظ كادارو أن عينيه تزداد ضيقا كلما تقدم الليل.

"اعتدت أن أقوم برعاية الجياد" قال: كادارو بجرأة. صمت الرجلان ليراجعا ما تتضمنه هذه المعلومة. أدارا وجهيهما واستمرا في مضغ الطعام، وهما يتفحصانه من وقت لآخر. "هل رأيت الكثير من القتال؟" سأله الأطول. أوما كادارو بالإيجاب وهز كتفيه. "هاجمنا الأنصار". هز رأسه في أسى "قطعونا إربا". "هاها". ضحك الرجل القصير خميس بصوت عال. "قطعوهم إربا". أوما لشريكه. "قلت لك سوف يقومون بذلك". صاح "قلت لك". كان الرجل الآخر أقل انبهارا. "لا تجعل ضيفنا يرى

مدى حماقتك يا خميس. لا يوجد اختلاف بينهما، سواء كانوا جنود السلطان الصبية، وأشار تجاه كادارو، أو أتباع المهدي، تعطى أى رجل سلطة الحكم فى بلد فتلعب السلطة فى رأسه". ضرب رأسه بعظمة. " بدعوا يظنون أنهم ليسوا فقط على صلة بالله ولكن هم الله".

حفر خميس الأرض بين ساقيه وهو يجلس القرفصاء بعود. "على الأقل المهدي رجل منا".

رفع الرجل الطويل نو الأنف المائل بصره. "ما اسمك أيها الصبى؟".

"كادارو".

"ما هذا الاسم؟". ضحك الرجلان ضحكة خافتة.

"رجل منا!" بدأ الرجل الطويل يحشو بايب بالتبغ. وصل إلى النار وأخذ غصنا ليشعله. نفث الدخان بعيدا بسعادة لفترة. "لن يكون لى صلة بأى منهم. كل ما أريده هو حرية الحركة مثلما أحب. إن كل ما يحتاجه المرء، حرية أن يذهب أينما يريد ويفعل ما يريده". جلسوا فى صمت لفترة. قطعة من اللحم تفرقع وتذبل ببطء على النار. لا أحد لديه شهية ليتناولها.

سألها كادارو: "ماذا تصطادان؟".

نظر إليه الرجلان ثم إلى بعضهما. حدد الرجل الطويل مجموعة من ذوات الجلود "الغزال، الكود والثعابين. ونذهب جنوبا لأشياء كجلد النمر ولكن فقط إذا كانت مطلوبة".

ابتسم الرجل القصير ابتسامة سريعة ولوى أصابع قدميه. "إن الناس يحبون استخدامه فى صناعة الخف".

تنهد الطويل بملل. "أحيانا أمل حديثك" همهم. "إنك تذكرنى بامرأة عجوز فى السوق". على الأرض بجانب ساقيه الممددتين مسدس قديم مزخرف. غمد خنجر يبرز من كفه فوق مرفقه. استند كادارو إلى الشجرة وفكر فى خططه. الآن بعد اليوم الطويل واللحم غير المعتاد يشعر بشدة بالنعاس فى ظل دفاء النار التى تقرع وتهسهس وتطقطق مثل محادثة. بدأ يشعر بثقل شديد فى رأسه وأفكاره بدأت تتكرر.

استيقظ فجأة. انطفأت النار. لم يتبق سوى خيط من الدخان الكئيب يطير متلويًا عبر الأشجار الكثيفة. كان الصياد الطويل على ركبتيه، مأسورة المسدس النحاسية الطويلة موجهة نحو ظل الأشجار المحيطة.

بدأ كادارو يتحرك. المسدس مصوب فى اتجاهه. رفع الرجل إصبعه إلى شفتيه وأشار إلى أن الصبى يجب أن يبقى فى مكانه. كان هناك شخص يتحرك بين الأشجار، يقترب ببطء وكأنه حذر. كل شيء هادئ وساكن.

اختارت النار هذه اللحظة لتتوهج فجأة حيث أمسكت قطعة خشب باللهب. أحاطهم انفجار الضوء ببقعة ضوء صغيرة. "اطفئها" همس أحدهم. لمح كادارو عين الصياد الطويل. لعن الرجل القصير وتحرك ليسكب حفنة من الماء على النار. فى الوقت نفسه خطأ هاملتون الزورث

إلى بقعة الضوء. كان من الواضح أنه غير متأكد ماذا يحدث، ولكنه كان يحمل مسدسا، يلوح به دون مبالاة. خرجت طلقة. زمجر خميس وألقى بنفسه في اتجاه الزورث، واستل مديته. ملأت بقعة الضوء سحابة من الدخان. استلقى كادارو على الأرض وعيونه مغمضة ويداه على أذنيه. عندما رفع بصره كان الفرنجى يقف فوقه يشير إليه بمسدسه. حرك كادارو نفسه ببطء وهو يتلوى على الأرض. انزلق التراب والأغصان المكسورة على رقبتة. قلق لوهلة خوفا من العقارب. كان سيموت. لوح بيديه إلى الأمام وهمس قائلا: "لا يا سيدى! كادارو صبى ماهر!". "ماهر يا سيدى. كادارو أحضر مركبا!". رأى لمحة شك فى عيني الفرنجى. استدار وبدأ يخربش بقدميه فى التراب. "مركب! مركب!" رسم على الرمل. ترنح إلزورث، سقطت ماسورة المسدس. مال ليتفحص الرسم التخطيطى. قال: شيئا لم يفهمه كادارو وأوماً برأسه. سقط كادارو إلى الوراء واستلقى هناك، يلهث متنفسا الصعداء. شاهد إلزورث يبتعد والفتاة صامته بشكل غريب تتبعه مطيعة.

يستلقى الصيادان ممددان فى بقعة الضوء. سقط القصير ووجهه على النار. احترقت ملابسه وخطوط الدخان تخرج من تحته ملتفة. أما الطويل فاستلقى متمددا باسطة ذراعيه ورجليه، فتحات فمه وعيناه مفتوحة للفراش والنمل. وقف كادارو ببطء، ساقاه تهتز وتتشنج، يمكنه أن يسمع النهر عن بعد، يهدر ويضطرب، يهمس بإيقاع لا يتوقف فى رأسه: شمال ... شمال. الشمال ينتظرهم.

الجزء الثالث

الساعة

١٧- سهول الجزيرة، جنوب الخرطوم

١ سبتمبر ١٨٨٤

على مدى البصر كان السهل منقطا بالخيام البيضاء الرثة والسواتر نصف المكتملة. غبار تثيره حوافر عشرة آلاف من الخيل والإبل، عربات المدافع التي تجرها البغال وعربات المطبخ ومواكب الجنازات والأطفال والزوجات والأيتام والعبيد يختلطون في سلسلة لا تنتهي من السلب.

سأل واد النجومى نفسه وهو يتنهد، متى يبدأ الجمع فى أن يشبه جيشا وليس معسكر غجر؟ يومه سلسلة متواصلة من الإشارات والمقابلات، يظهر الرسل وهم يلهثون إلى جانبه، يلهثون ويلفظون برسائلهم وكأن حياتهم ومصير العالم يعتمد عليها، أحيانا ربما، ولكن ليس اليوم، اعتاد أن يمزح حول زهو الملازمين الأوائل وغرورهم. كم منهم يستطيع أن يعتمد عليه عندما تبدأ المدافع فى الضرب؟

أرسل واد النجومى طلبا لكل الشيوخ الذين تعهدوا بالولاء للمهدى؛ لكى يرسلوا إليه أفضل أمرائهم وأكبر عدد من الجنود يستطيعون أن

يجمعوه. منذ خمسة أشهر وهم يتجمعون هنا فى بطن السهول الرطبة جنوبى العاصمة. هل عددهم كاف؟ كان يتجول فى المعسكر بشكل دائم، محاولا أن يقدر ما لديهم وأين. يتبعه فى تجواله المستمر مجموعة من المساعدين والحاشية، والكتاب المشغولين بكتابة الملاحظات، يأخذون الأوامر والرسائل ويحصدون الواقدين الجدد. لم يكن الرجال من الجنود المدربين، لقد كانوا من الأنصار؛ التابعين؛ لا يعرفون شيئا عن النظام. كان لديهم ميل ليندفعوا مثل قطع من الماعز، يصرون على إحاطته بأذرعهم أو تقبيله على كلتا وجنتيه. النساء يلقين الرضع بين ذراعيه من أجل أن يباركهم الله. كان النجومى دائما مهذبا جدا لا يمكنه أن يرفضهم ولذلك كان يقف عاجزا وعلى وجهه نظرة ضياع. يبدو للجمع مثل شخص ساذج ركله بغل فى وجهه. طاف بين الجموع التى كانت تحاول أن تفهم مثله، كيف أصبحوا بهذه الكثرة والقوة. كانوا يحركون عربات المدافع هنا وهناك. الصبية الصغار يقفزون على المدافع مثل القرود، ويقذفون القنابل الحية أحدهم إلى الآخر وكأنها بطيخ لامع. لم ير أبدا مثل هذه الروح. إلا أن عمله أن يوظف هذه الطاقة ويوجهها. لقد بنوا متاريس طينية تربط نقاط دفاعهم الخارجية على طول المحيط الشمالى، فى مواجهة للمدينة المحاصرة. جمعوا أكبر عدد ممكن من جنود العدو الأسرى، المدربين على استخدام المدافع ليساعدوا فى صيانتها وفى تدريب هؤلاء الذين سيمدون الأسلحة بالذخيرة فى الوقت المناسب.

كان نجومى، أينما ذهب، يقظا لأى شخص يمكن الاستفادة منه. وفى ذهنه صورة ثابتة للعقاب الفظيع الذى يخطط له دون شك سلاطين

الأتراك وجنودهم الكافرون.. سوف يعودون، لا يهم كم سيستغرق من الوقت، سيعودون. وإذا كان صحيحا أن الخرطوم تحتاج ببساطة إلى الضغط عليها مثل بذرة البطيخة لكي تفتحها ثم يصبح كل شيء على ما يرام، فإن عليهم فى البداية أن يضغطوا على الحصون النائية البعيدة عن المركز: فى أم درمان عبر النهر إلى الغرب، وفى حلفا إلى الشمال. والأمر الحيوى أن يقطعوا خط التلغراف إلى القاهرة. فنجومى كان استراتيجيا بارعا. ولديه ولاء الأنصار وكان يعلم مَنْ مِنْ أمرائه يرسله أولا. ومع ذلك، إذا كانت الشائعات باقتراب قوة من قوات العدو حقيقية، فإن عليهم أن يخوضوا معركة طويلة. لا يستطيع أن يتوقف عن العمل فى هذه المرحلة. كلما سقطت الخرطوم فى وقت مبكر كلما كانوا أكثر أمانا.

الأراضى الشمالية لا تزال فى أيدى العدو وهناك أخبار بمحاولة البواخر التى تشق طريقها عبر الحصار النهري إمداد المدينة المحاصرة بالموث الغذائىة. فالناس فى الخرطوم بدعوا يموتون جوعا، وفقا للأخبار التى تصل الآن يوميا. تأتى الأخبار على لسان مجموعة من الرسل فى كافة الأشكال. جواسيس لهم أوجه مألوفة، جنود ألقوا ببساطة بنادقهم وفروا هاربين، النساء العجائز اللاتى يدخلن مترنحات نصف مجانين إلى المعسكر، يجلس نجومى صامتا يستمع إلى ما لديهم من أخبار. كل ذرة من المعلومات يفكر فيها مليا قبل أن يقرر فائدتها. كل معلومة صغيرة لها مكان معين تكون مناسبة فيه. فى الحقيقة هو لا يثق بأحد؛ لأن طبيعة من يخبرونه بها لا يمكن الاعتماد عليها. لا يمكن أن يسلم بصحة أى شيء. حتى حصن صغير يمكن أن يصمد مدة طويلة فى

انتظار قدوم الإمدادات العسكرية. لا يهتم إلى أى مدى هم ضعاف، فبنادقهم دقيقة تصيب الهدف وجنودهم مدربون. ولكن هناك شئ ينتظره على الجانب الآخر من هذه الأسوار المصنوعة من الطين والقش، شئ ليس أقل من أسطورة، عفرية من أكثر الأنواع دهاء وخطورة. كان نجومى يعلم أنه يواجه أكثر من حصن من الجنود الممزقين الجوعى المنعزلين. إنه يواجه جوردون باشا. مجرد ذكر الاسم يربكه. إنه لا يعرف شيئاً عن الرجل نفسه، فقط يرى آثار إستراتيجيته فى انتشار قواته. يعرفه فقط من خلال الإشاعات، كرجل متقد قاس لا يمكن التنبؤ بما سيقوم به فبواعثه غامضة. من حين إلى آخر يرسل جوردون واحدة من البواخر التى يحبها، غريبة الشكل بأجهزتها من الدروع الواقية والدعامات الخشبية على طول الحواف العليا من جانب المراكب كتروس. عبده المخلصون فى زيهم التركى ينزلقون بعصبية عبر مجرى النهر، يطلقون قليلاً من الطلقات العارضة: نيران البنادق وطلقات متفرقة من المدفع الصغير. يصيبون عدداً قليلاً من الجياد بالرعب يجذبون إطلاق نار أكثر مما يطلقون، ولكنهم يكسبون أرضاً. إنها لعبة. يدور كلاهما حول الآخر مثل الكلاب التى تنتظر الوقت المناسب للانقضاض.

والوقت سلسلة رقيقة. كلما انتظر نجومى لمدة أطول، صار الجنود العبيد النحفاء خلف الأسوار أضعف. ولكن ساعة واحدة مدة طويلة جداً فسوف تنكسر الأذرع النحيفة. مهمة نجومى بسيطة: أن يجد ثقب مفتاح طبيعى فى الحصون ويديره بدقة فى اللحظة المناسبة.

تسلق القائد الأعلى على رأس أحد المدافع التى استولوا عليها وراقب مجموعة من الجنود يتدربون على هجوم بالحرايب والتروس.

يشبهون مجموعة من الكلاب غير المنظمة التي تعوى فى أعقاب بعضها بعضا. قاطع ملاحظاته وصول مجموعة من القادة، الذين يحاولون الاتصال به كالعادة، نزل إلى الأرض وتبعوه.

سألوه: "سيدي هل قررنا نظام الهجوم؟".

"كيف سنتقدم، وأى وحدة ستقود الأخريات؟".

تمهل نجومى دقيقة "لماذا، وحدتى بالطبع" أجاب، وهو يمسد الشعيرات المتفرقة فى ذقنه الحادة المحددة. "ستقود الهجوم. إنها مسئوليتى، فالمناسب فقط أن تتحمل وحدتى الوطأة العظمى من الهجوم".

منذ الانتصار فى شايبان، أدرك نجومى أن دوره صعب. كل هذه القوة، وكل هذه السلطة. كان خائفا، خائفا أن يفقد كل هذا إذا أخطأ ولو مرة واحدة خطأ غير مقصود. إن الاحترام الذى يراه فى أعين الذين يحدقون فيه مريح. فى الوقت الحالى على الأقل هؤلاء الرجال سيتبعونه أينما ذهب .

استدار الآن ليخاطبهم. "أود أن يتأكد كل منكم أن رجاله سيمكنهم التحرك بسرعة وبمهارة عندما يحين وقت الهجوم. فبقاؤنا كوحدة واحدة بعقل واحد أمر له أهمية قصوى" أخذ ينقر على رأسه، "لا نسير فى عشر اتجاهات مختلفة فى الوقت ذاته". كان هناك خرير ضعيف من الضحك.

"ولكن كلنا نعلم أن جوربون الكافر لديه حفنة فقط من الرجال المخلصين يقفون إلى جانبه".

دار نجومى حول الرجل الذى تحدث واستقام. كان فى الحقيقة رجلا طويلا، رغم أن ملابسه الفضفاضة ورشاقتة وليونة جسمه تخفى ذلك معظم الوقت. قال: "أعرف ما تعنيه جيدا". قال: ذلك برقة شديدة لدرجة أن صوته كاد لا يسمع فى ظل الجلبة التى تحيط بهم. "قد يفشل جيش مهاجم؛ بسبب نقطة ضعف واحدة، مهما كانت رأسه قوية إذا كانت الجوانب ضعيفة سوف ينهار". نظر حوله إلى الوجوه المحتشدة. "أعلن أن الحرب لا تنتهى هنا" وهو يرفع صوته إلى حد ما؛ لأنه بدأ يسير بخطى واسعة "لأنى متأكد أنكم تعلمون جميعا. إن العدو فى سواكن وسوف ننتقل إلى هناك ونتقدم عبر العالم حتى نصل إلى الأراضى المقدسة وكل مدينة من هنا وحتى المحيط الهندى وما بعده سوف تعود إلى الطريق القويم الذى حدده الرسول عليه السلام" (*).

انتهت الخطبة، أخذ نفسا وانتقل لأمر أكثر عملية. أشار تجاه الغرب. "نخوض هذا الطريق بين النهرين من شجرة ماهى بك إلى جيرايڤ. أود أن تبني سواتر للنساء والأطفال. أود أن أعرف عدد كل الخنادق. ارسلوا فنانيكم ودعوهم يرسمون. أريد خططا مفصلة للحصون، كم من الرجال يقفون لحراستها نهارا وأيضا ليلا؟ كم بوابة، إلى أى حد هى محكمة الإغلاق؟ أريد أن أتمكن من إعاقه هذا الطريق حتى يحين الوقت. لا أحد يدخل أو يخرج من المدينة إلا بإذننا، مفهوم؟".

(* كانت رسالتهم هى نشر الإسلام فى العالم كله. (المراجع).

"متى سنعرف أن الوقت قد حان".

"الله سيجعلنا نعرف" ابتسم نجومى بلمحة انزعاج على وجهه، ثم استدار وترك المكان دون كلمة واحدة .

ظهر رسول إلى جانبه وناوله لفيفة. أمسكها الكاتب الأقرب إليه وقرأ بصوت عال. إن المهدي يتحرك شمالا على الضفة القريبة للنيل الأبيض وسوف يبقى في هذا الجانب، ربما يتوجه لأبى السعود حيث سيقيمون معسكرا. أخبر نجومى الرسول أن يوصل تصديقه على الرسالة. وأخذ يتجول عبر الحشد. عبر صبي يسير بماعز يمسك بأرجلها الخلفية ويقودها إلى الأمام مثل العربة. رجل عجوز يمشى بالكاد، يساعده ابنه، ابتهج ورفع رمحه متهللا لرؤية القائد: "الموت للكفار والنصر لنا" ورأى نجومى وجه الصبي ووثق بالشك الذى لمح به أكثر من ألف تحيات عسكرية أو تأكيدات بالنصر. "اعتنى بوالدك" قال: وهو يسير فى طريقه.

كانت مجموعة من الرجال تختبر مدفعا من مدافع نوردن فيلد بمساعدة رجل طويل شيلوك من كادر العبيد الذين أسروا فى الأبيض، فكوا السلاح على الرمل ببراعة شديدة. وأعادوا تركيبه. كان الجندى يوضح كيف يمكن حشوه بالطلقات وإطلاقه. إنها المرة الأولى التى يرى فيها العرب يستمعون إلى عبد سابق، فكر نجومى. إلا أنها إحدى المعجزات الأخرى للحرب. عندما لاحظوا حضور القائد بدوا يتحركون وأيديهم خلف ظهورهم، تقدم نجومى إلى الأمام وضرب الجندى الطويل على ظهره. قال لهم: "استمعوا بعناية لكل تفصيلا يقولها لكم هذا الرجل. إن انتصارنا يعتمد على ذلك".

على السهل الغبار يختلط بالشمس الحارقة. الإبل تنن، وهى تشد بقوة الرسن الذى يربطها. كل شئ يعانى الرحلة الطويلة هنا، والآن وقت إصلاح ما يمكن إصلاحه: الخيام، السرج المكسورة، الرماح والبنادق. وجد نجومى مجموعة من الأطفال يلعبون لعبة الحرب التى ما زالت تدور أمامهم جميعا. كانوا يتعاركون مع ذلك الذى سيلعب دور جوردون؛ لأن الاسم كان يرمز إلى كل شر فى العالم. كان الناس يروون قصصا عن الوقت الذى أرسل فيه جوردون ليكتشف البلاد - كيف يعبر الصحراء بسرعة فائقة مثل ظل طائر، ليهبط بحنق جن أبيض. قصص عن مدى قسوته ووضاعته، إنه ينحدر من قبيلة كان الأتراك يوظفونها لتلقى الرعب فى قلوب عبيدهم. وعقل نجومى لا يشك أن جوردون هو أقرب حلقة فى السلسلة التى تمتد بعيدا إلى نهايات الأرض إلى قوة لا يمكن تخيلها. إن أقدارهم متشابكة وفى وقت كهذا يرغب أن ينتهى الأمر كله. يود أن يعرف ما يقبع فى النهاية الأخرى للسلسلة.

الشخص الوحيد الذى يعتقد أنه يفهم ما يحدث رجل غريب قابله منذ شهر فى منزل الشيخ عباس فى الأبيض: عالم، تقول الإشاعات إنه كان يوما على بعد شعرة من الشنق بوصفه مرتدا عن الدين. لقد درس كل الكتب القديمة وسافر إلى الخارج عدة سنوات. ولكن رغم ذلك هو رجل بسيط لا يقوم بأية محاولة ليسحرك بروايات مملة عن الرحلات التى قام بها، أو الأماكن المثيرة التى زارها والملوك الذين تعشى معهم. لقد كان يتكلم بطريقة متواضعة تترك إحساسا غريبا. "مهما كان رأينا" قال نجومى: "لا أحد منا فى هذه اللحظة يمكن أن يقول إنه يأمل أن يحدث أى أذى لمحمد أحمد. إن المهدي هو الطلسم الذى يجلب الحظ السعيد. إنه يسيطر على البلاد بأكملها بخيط واحد. بدونه لا يمكن تحقيق ذلك."

"ولكن ماذا عن كل الأرواح التي سوف تزهب، والدم الذي سفك
والذي سيسفك؟".

"هذه الأشياء لا تعيننا" أجاب نجومى: "كل إنسان له الحق فى أن
يكون حرا. أو من بذلك. مهما كان قدره عند الميلاد. يمكن أن يكون غنيا
أو فقيرا، ولكن لديه الحق فى أن يكون حرا، ليس من حق أى امرئ أن
يحكم آخر ويعامله وكأنه دابة. إنها الطريقة التى كان الأتراك يعاملوننا
جميعا بها. ومن سيحكم هذه الشعوب عندما يرحل الشيطان؟ هل سيظل
المهدى يسيطر عليهم براحة يده؟".

ظهر الآن وجه مألوف وتوقف نجومى ليتعرف على مدنى العجوز
يطارد صبيا صغيرا كان يراوغ عجلات العربة، وهو يأخذ طريقا ملتويا
بين الأباريق والأكياس والقدور والأوعية. دار الصبى وزحف بعيدا؛ لأن
الرجل لوح بقضيب نحوه.

"أهلا أيها الرجل العجوز" ناداه النجومى "ألا تتعرف على قائدك
العام عندما تراه؟".

انقب الرجل العجوز واقفا وهو ينفض الغبار عن نفسه ببطء، وألقى
تحية سريعة وأستدار لعربته. كان ثلاثة رجال مشغولين بوضع الطوب
فى الشمس لبناء ساتر جديد. نظروا فى استنكار إلى الطريقة التى
يعامل بها الطباخ العجوز أميرهم. تجاهلهم نجومى، وسحب سيفه من
خصره ووضع جانبا قبل أن يجلس على كيس دقيق. "ألا يتبقى لديك أى
من هذا البسكويت؟" سأله وهو يتنهد. "أليس لديك جيش لتقوده؟"

استدرك مدنى وهو يلقي بكيس صغير أمامه. ابتسم نجومى وأدخل يده فى الكيس. أخذ يَمْضغ بسعادة لوهلة. "سمعت أن جوردون يأكل الدجاج كل ليلة".

"هاه" ضحك الطباخ "أعتقد أن أذننى أمير الأمراء أصبحت صماء؛ بسبب تقدمه فى العمر" أشار بسكين "هذا مطبخى الذى يأكل فيه وستطوق عنقى بجميلك عندما تستطيع أن تعيده لى".

عاد الحاضرون ببطء إلى العمل وهم متأكدون الآن أن الرجل العجوز لن يشنق أو يقطع رأسه فى المكان. إلى جانب النار التى اشتعلت فى المطعم المؤقت كانت الذبائح تقطع وتلقى فى القدور، والخضراوات تقطع. نفض نجومى الفتات عن جوبته. "أخبرنى أيها الرجل العجوز ما شكل جوردون باشا هذا؟". شد مدنى وجهه وحك ذقنه. لعب بنهاية سكينه، وهو يختبرها بإصبعه. "إنه يجمع الدجاج لينام. يتجول حول الفناء كل يوم ويرفرف عليهم بذراعيه ليجعلهم ينامون". ضبط القبعة على رأسه. "فى الحقيقة بشكل عام فإن الكفار مثل الدجاج فى طبيعته: يجرون فى كل مكان مسرعين، يلتقطون من هنا وهناك. ولكن". توقف ليعيد التفكير فى رؤيته "يلتقطون كل قطعة متبقية من الحبات" أوماً الطباخ العجوز إلى غبار الشمس وتشوش المعسكر. "إننا نحارب مثل قطع من الماعز. انظر إليهم، إنهم يجرون هنا وهناك، ولكنهم لا يستمعون إلى كلمة واحدة تقولها لهم". قال: نجومى ساخرا: "ربما تود أن تبدل مكانك معى لعدة أسابيع، أيها الرجل العجوز؟ إنك محظوظ لأننى أحب طبيخك. عبد الله النور أو أى من القادة الآخرين كان سيقطع رأسك؛ بسبب هذا النوع من الحديث".

هز مدنى كتفيه. لقد كان شاكرا جدا لهذا الرجل الذى أتقذ حياته فى شيكان إلى جانب أنه أحبه. "الأتراك" أوضح " كانوا يعاملوننى بشكل طيب، ورأس عجوز مثل رأسى ليس له قيمة هذه الأيام. الشباب هم الذين يحاربون هذه الحرب لكم والله يساعدنا إذا انتصرنا؛ لأنهم سوف يغتروا بأنفسهم وسينتهى العالم مثلما كان من قبل، يحكمه الحمقى الذين يتحدثون للاستمتاع بسماع أصواتهم". بدأ يدفع العجين إلى رقائق رقيقة. "العقلاء سيفلقون أفواههم، هؤلاء الذين لن يموتوا". حملق فى نجومى الذى نظر بعيدا. "انتبه لنفسك يا ابن النجومى".

وقف نجومى وضبط ملابسه. وضع سيفه فى غمده الجلدى ونظر إلى السهل المزدهم الذى ضربته الشمس. "دعنا نأخذ هذه الخرطوم أولا".

ضرب مدنى على جبهته "إن الخرطوم فى الذهن. إن المشكلة ليست فى الخرطوم، ولكن ما بعدها. إن الجنود خلف هذه الأسوار فزعون. ليس لديهم ما يأكلونه إلا البغال وعظام الكلاب النحيفة. سوف ياكلون حالا اللبان من على الشجر إذا لم يأكلوا بعضهم بعضا. إذا أخذت الخرطوم يجب أن تكون مستعدا لكى يستمر التقدم؛ لأنهم لن يدعوك تعيش فى سلام بعد ذلك. إنك لا تعرف بلاد الفرنجة. إنها مليئة بالجبال العالية والمطر الذى يضرب الجلد مثل الحجر. إننا لا نعرف شيئا عنهم. الله وحده يعلم ما الذى جاء بهم إلى هنا". هز إصبعه محذرا "أسأل نفسك كم من هؤلاء الرجال سوف يذهب أبعد من الخرطوم، إلى الشمال عبر البلاد ليقف على أبواب القاهرة يطلب الدخول؟".

”إنها إرادة الله أيها الرجل العجوز. ألا تعلم ذلك؟“.

”أصلى لربي وتصلى لربك، أليس الأمر كذلك؟“. واصل الطباخ

العجوز حديثه ”ما غير ذلك فهو غرور“ لوح بالسكين مهددا ”الآن اذهب

وحارب حريك لدي مطبخ أديره“.

١٨ - سيردار جوردون باشا

القصر، الخرطوم

حين لمح الكابتن هاميلتون الزورث نفسه فى المرأة الكبيرة غير النقية التى تزين الرواق خارج حجرة رئيس الأركان فى صباح صاف وبارد فى نهاية أغسطس، ورائحة المطر ما زالت تبهت على عبير زهرات الياقوتية الذى يهب من الحدائق المحيطة بالفناء (حيث نثر الصبية البائعون ريش الحمام مثل الملوك القدماء الذين يوزعون تيجان اللوتس)، وضع يده على وجهه وهو يتسائل إذا ما كان الأذى النفسى ما زال أثره باقيا فى عينيه.

فى الشهور الست منذ عودته إلى الحماية النسبية التى توفرها له العاصمة المحاصرة، كان يحاول أن يجد معنى لتجربته. كان الضباط الآخرون شغوفون لمعرفة ما حدث له فى كل هذه الشهور التى فقد فيها. كل ما استطاعوا أن يعرفوه منه هو نظرة شاحبة وهزة رأس وكأنها تثبت أنها حقا كانت تجربة خالية من المعرفة. فى تلك الليلة الفظيعة عندما جرى نحو الشاطئ إلى الجنوب من الحصن الغربى كان الجنود سيقبضون عليه مع الآخرين. "ألا تعرفون من أنا؟" ظل يسألهم ويكرر السؤال، وهو يسير فى دوائر على الشاطئ، ويصرخ فى وجوههم

المتحيرة. لم يكن هناك أحد ممن يعرفهم واستغرق الأمر بعض الوقت قبل أن يكتشفوا حارسا عجوزا قال: إنه يعرفه. "ما أخبار جنرال هيكس؟" كان سؤاله التالي للجندي الشاب المعاون الذي أرسل ليرافقه إلى الثكنات. "هيكس، يا سيدي؟" كرر الجندي بارتباك وكأنه تذكر شيئا. كان الزورث يمشى مضطربا في المدينة مثل رجل من عصر آخر. بدا له أنه ليس هو الذي تغير ولكن العالم الذي تركه. كان الرجال يمشون بخطوات بطيئة متتاقلة. وكأن لعنة قد حلت بالهواء الملوث.

سأل عن سبراتلنج وعلم فورا أنه توفي منذ شهرين. حينئذ اتهم مرشديه بقتله. ألقوا بالصبي في السجن، أما الفتاة فاخترقت بسهولة. أين، ظلوا يسألونه، كان؟ ما هذا السؤال؟ لقد كان يحاول أن يعود إلى هنا، ألا يكفي هذا؟

"لقد كنت مفقودا حوالي عام يا سيدي. اعتقد الجميع أنك مت في المعركة".

خطر بباله أنهم ربما كانوا يفضلون أن يكون قد مات. أعطوه سريرا في المشفى، ورجل نو عيون خرزية شغوفة بحاجب واحد في وضع ثابت مائل يأتي لرؤيته مرة كل يوم. يحملق في الزورث لمدة طويلة دون أن يقول أى شيء، أو يجلس ويغنى أغاني العودة للوطن باللغة الصربية - الكرواتية لنفسه بينما يمسك بمعصم الزورث. أحيانا يلحق به ضابط يقف ويتأرجح على عقبى قدميه لا يطبق صبورا. يظهر ما يمكن أن يحدث لعقل متحضر عندما يتعرض عنوة لفترات طويلة للعقوبة الهمجية". ثم يسير الجراحان بعيدا وهما مستغرقان في الحوار. بقية

الجناح ملء بالبلهاء الذين يهزون ويتحدثون إلى أنفسهم ويرتدون إلى أطفال خياليين يثبون على ركبهم أو يزحفون على أرض الجناح وهم يعوون كالكلاب. بعضهم لديهم جراح فى رؤسهم ولفائف عريضة من الضمادات تربط رؤسهم، وآخرون يعانون بطرق مختلفة، يصرخون طوال الليل متألين. لم يكن يضايق الزورث أيا من هذه الأمور؛ لأنه مثل كل واحد منهم كان فى عالمه.

أرسلوا ضابط مخابرات إليه ليحاول أن يتحقق من كل ما يستطيع. كلما سقطت عيناه على زميله الشاب البرئ كانت عيننا الزورث تنفجرا بالدموع رغما عنه. ربما لأنه تذكر شابا آخر من حياته الماضية. لم يكن لديه أمر له أهمية ليقوله بالنسبة لوضع العدو وقوته، كما تبين شكهم. يتصورون أنه فر ليضع رأسه فى الرمال ويقلت بجلده. كان يستلقى مستيقظا ليلة بعد ليلة وهو يتمنى لو كان الله قد أفناه إلى جانب هيكس وبقية المساكين الآخرين الذين حلت بهم اللعنة.

دخل المعاون وهو رجل من أهل البلد إلى حجرة الانتظار طقطع كعبيه النحيلين معا، وحياه وأخبره أن عليه أن يصعد إلى الطابق العلوى، فى هذه اللحظة نشبت معركة فى الفناء وجرى الجميع ليراقبوا ما يحدث. سار الزورث وحيدا وصعد درجات السلم إلى الطابق العلوى من السراى.

قمم النخيل تصدر حفيفا فى النسيم، وعبر الباب والشباك فى الجانب البعيد يمكنه أن يرى النهر. كانت الغرفة الواسعة مشهدا شديدا للاختلاط. استغرق الأمر دقيقتين ليحدد مكان السردار وهو ممدد على

الأريكة الطويلة فى الجانب الأيمن من الغرفة، فردة من حذائه ذى الرقبة المرتفعة مستقرة على أرض الغرفة بجانب السيف فى غمده بحبله وريشته والأخرى تنبثى على الذراع المبطن مثل ثعبان طويل نحيف على فرع شجرة. من الشباك وضفة النهر إلى أسفل يستطيع الزورث أن يسمع زقزقة العصافير وثرثرة الرجال.

ولأنه غير متأكد إلى أين يجب أن ينتقل، عبر الحجرة إلى المكتب الكبير المصنوع من خشب الساج. كان المكتب مغطى بالأوراق وعلب السجائر نصف الفارغة. جذب عينيه شئً وانحنى ليلتقط ورقة انجرفت مع النسيم إلى الأرض. كانت رسما لقلب إنسانى، بشكل دقيق وكأنها لأستاذ بكلية الطب. القلب يحوى رصاصة وملحوظات كتبت بخريشات قلم رصاص إلى جانبه تصف كيف يمكن إزالة الرصاصة. ورقة أخرى أيضا على الأرض تظهر كاريكاتور لجلادستون يجلس على صندوق يردد تخرج منه أصوات تستغيث. شعر الزورث بجانب فمه يلتف فى قرف. كان هناك رسوم كاريكاتيرية أخرى تصف كلاب الصحافة، كاريكاتور فاحش للملكة فيكتوريا، واسكتشات متعددة للمنطقة تظهر أماكن العدو وقوته. وعدة علامات استفهام تظهر هنا وهناك.

وعلى ورقة أخرى كتبت بالقلم الحبر قطعة تبدأ بنص مأخوذ من الكتاب المقدس: "ملعون الرجل الذى يتكل على الإنسان ويجعل البشر ذراعه وعن الرب يحيد قلبه (إرميا ١٧ - ٥)، والذى يبحث عن طريق أى ترتيبات أو قوى أو بالمساعدة الخارجية ليتحرر من المكانة التى نشغلها!!! بأى قلب يستطيع الإنسان أن يقبل هذا! لأنه بأى قلب يمكنه أن يضع ترتيبات إذا كان لا يؤمن بنجاحها!".

حركة خلف إلزورث جعلته يستدير ويسقط الورقة بسرعة على المكتب. فأر أحمر صغير يراقبه من على قمة الأريكة. توقف واثقا تماما مما حوله وهو يلتقط أنفاسه ثم تحرك دون سرعة عبر ظهر الأريكة. راقب إلزورث تقدمه، وهو ثابت في مكانه. تقدم الفأر بجانب السردار وسقط بخفة على صدره. قرص دقيقة في السترة الحمراء ثم انتقل إلى أعلى وهو لا يزال يلتقط أنفاسه، حتى وصل إلى وجه السردار. لوح إلزورث بيده وهسهس من خلال أسنانه. التقط قطعة ورق وكورها وكان يستعد ليلفها على القارض الحقيير ولكنه تردد. نظر الفأر لحظة في اتجاهه ثم واصل الاندفاع نحو سبلات الجنرال. ولأنه لم يكن يريد أن يوقظ الرجل، قرر إلزورث أن أفضل طريقة للخروج من هذه المحنة هي الباب، كان على وشك الحركة عندما استيقظ الرجل النائم وكأنه يفيق من سحر .

بربشت العينان الزرقاوان وانفتحتا. ووجد إلزورث نفسه وجها لوجه مع أشهر رجل في البلد. تشاب جنرال شارلز جورج " تشينيز " جوردون ومد ذراعيه إلى أعلى رأسه، ثم لاحظ الفأر. رفعه برفق من على رقبته ووضعها بعناية على ظهر الأريكة مرة أخرى. جلس وحك رقبته.

"هل جاء الوقت يا ستيوارت؟". "سيدي؟... لا"، بدأ إلزورث وهو ليس متأكدا من أين يبدأ. "أعني... إن... إن... إن...." أغلق عقيب قدميه بقوة وقال بصوت عال: "كابتن إلزورث يا سيدي".

ومضت عينا جوردون في اتجاهه وقابلت حمله لوهلة، وجمدته هناك، قبل أن تنحرف بعيدا. أوما الجنرال الآن وكأنه فهم. "أوه، نعم،

..... بالطبع، يا كابتن.....". توقف مرة أخرى وللحظة طويلة كان هناك، صمت... نظر الرجلان كل منهما إلى الآخر دون أن ينبثا ببنت شفة وكأنه دخلت بينهما فكرة قبل الانتقال: إلى ما يمكن أن تقود إليه مثل تلك الأفكار. "إلزورث" كرر الاسم "ما اسمك الأول؟"
"هاميلتون".

"ليس أفضل" قرر الجنرال "دعنا نظل مع إلزورث". قام ليقف وظهر أنه أطول من إلزورث. شعره غير ناعم أصفر بلون القش ووجهه مخطط ومترب. ولكن العينين تطفيان على الوجه، صافية وثابتة بشكل غير طبيعي، عيون تضيء برؤية مدينة شوارعها هادئة لا تسكنها سوى رائحة الشتاء الراحل وآثار الأقدام على الحصى المرصوفة بها الشوارع. فكرة العودة إلى لندن أرعبته.

عبر الحجر، وهو يسقط النوم عن أكتافه المتيبسة. خربش بين البقايا على مكتبه. ووجد علبة سجائر تقف مملوءة. دون أن يقدم لإلزورث الذي كان سيرفض، أشعل واحدة.

"كيف وصلت إلى هنا يا إلزورث؟".

"بالمركب يا سيدي". تلعثم إلزورث لحظة. "بصحة بعض أهل البلدة الذين قابلتهم".

"أولا" أوما جوردون. "هذا أمر جيد". وهو لا يزال ينقب في الأوراق على المكتب وكأنه أضاع شيئا..

"كثيرا ما أتساءل ماذا كان الحال لو ولد المرء صيادا بسيطا فى هذه المناطق".

"أعتقد أن ذلك ممل جدا يا سيدى" اقترح إلزورث دون أن يدرك حتى قال ذلك أنه اختار الإجابة الخاطئة.

"لقد رأيتهم مباشرة يا إلزورث" واصل جوردون باشا حديثه. "لا بد أنك عرفت أشياء كثيرة عنهم، أقصد العرب. ولذلك أردت أن أقابلك". أضاف الجملة الأخيرة وكأنه قرر ذلك توا، وهو بالطبع الأمر الذى كان قد قرره من قبل. مد فمه إلى ابتسامة. عادت عينه مرة أخرى لمكتبه ثم بعد دقيقة تخلص من فكرة الورقة الضائعة بهزة رأس عصبية. شعور بعدم الثقة عاد لإلزورث وأضاعت عيناه على الأوراق الرقيقة التى وضعها على المكتب عندما وصل الحجر، إن تقريره الآن قد اختفى فى دوامة قمة المنضدة. أدرك فجأة أنه كان غير دقيق. إذ لا يحوى سوى وصف عشوائى لشروق الشمس والسير فى ضوء القمر. سرت فى بدنه رجفة وهو يتذكر عدد الحوارات التافهة التى دونها بينه وبين سبراتلنج وهما يسييران فى الصحراء، ما علاقة هذه الأشياء التافهة؟ كان حائرا. "أنا - تلعثم أكتب تقريرا فى الوقت الحالى.... تقريرا شاملا سوف أقدمه بأسرع ما يمكن". ذكر تلعثم جوردون باشا بالحالة الذهنية للضابط الذى يقف أمامه. لم يؤكد على أمر التقرير، وبحركة يد كسولة أشعل سيجارة تالئة.

"رأيت أضواء" قال: إلزورث دون تفكير، وهو يشعر فجأة بضرورة أن يضيف شيئا. ذكرته اسكتشات حصون المدينة ودفاعاتها التى رآها

على مكتب جورديون. انطلقت العينان الزرقاوان فى اتجاهه وارتفعت الحواجب الصفراء. "أضواء؟" خدع الجنرال. كرر "أضواء"، وهو يخرش باحثاً عن قلم حبر وورق. "بطاريات؟ أم إشارات، نار بنادق أم نيران معسكر أم أضواء مدن أم خنافس ترسل ضوءاً فسفورياً؟ أى نوع من أنواع الأضواء يا كابتن؟" كانت العينان الزرقاوان نفاذتين مثل أضواء السماء الصافية على خليج من المحيط تثيره الشمس. بدأت الحجرة تدور وإلزورث يعرق ويتحرك تجاه كرسي وأشار إلى حاجته إلى الجلوس. أوماً الجنرال بنفاد صبر، انهار إلزورث على الكرسي.

"لقد كنت متسرعاً لأصل إلى هنا، بالطبع فالوقت ذو أهمية".

"الوقت" علق جورديون "هو الشيء الذى لدينا الكثير منه. فليس لدينا طعام، ولا قوات جيدة، ولا وسيلة اتصال معقولة مع ضباط المخابرات الملاعين فى حلفا ورئيسهم كيتشنر. ونحن محاصرون من كل الجوانب. الانتظار يا عزيزى الكابتن هو عملنا" مرت بوجهه ابتسامة سخيفة. "قد يقول المرء إنه واجبنا المقدس أن ننتظر. إننا مثلهم بالضبط، ألا ترى، تحت رحمة إرادة الله الغامضة".

أصدر صوت طقطقة بلسانه وأطفأ سيجارته. "الآن يا إلزورث أين بالضبط كانت تلك الأضواء؟" كان يرسم استكشاثات للأنهار وخطوط الدفاع من الذاكرة، مضيفاً القليل من بقع الحبر هنا وهناك للأشجار.

"أتذكر فقط الضوء يعوم فى الظلام وكأننا ننجرف بعيداً إلى داخل السماء بين النجوم".

وضع جوردون قلمه الحبر. بالنسبة لإلزورث كان صوته شخصيا يبدو وكأنه يجيء من بعيد جدا يبدو مكتوما ومليناً بالصدى. لم يدرك أن الرجل المواجه له قام من على مكتبه وأشعل عود ثقاب. ملأت أذنة الكبريت الهواء ثم رائحة التبغ الغامق الثقيلة. شعر إلزورث بهبوط في بطنه وكأن حياته تتسرب من بين يديه. كان حلقه جافا. "كان ذلك منذ وقت بعيد"، قال: معذرا.

عبرت وجه الرجل الآخر نظرة شغوفة. "منذ متى؟"
"سنة أشهر".

لم يتحرك الجنرال لحظة طويلة. تغير الضوء في وجهه الشاب وكان السحاب يجرى في سباق. أخيرا تجرّك نحو النافذة. قال: "لقد كنت بعيدا مدة طويلة يا كابتن". لم يستطع إلزورث أن يجد إجابة. واجه كلاهما الآخر وكان كلاً منهما يتساعل عن الشيء نفسه، ووجد إلزورث ذهنه يدور عبر الشهور السابقة، إلى لحظة كانت من حوالي عام عندما ذهب لمطاردة الدراويش وأدرك أن شيئا داخله تغير. أدرك أيضا أن جوردون يحملق فيه بشكل غريب ثم شعر بالدموع تسيل على وجهه. رفع يده وكأنه يوقفها، ولكن تدفقت دموع أكثر. كان يرتعش ويلهث محاولا التنفس. شعر بضيق وألم في صدره. اقترب الجنرال من إلزورث. "كابتن" قال: متنهدا وهو ينفخ دخانا أزرق في الهواء. "إننى سأرسل باخرة جنوبا إلى حلفا. مقدم ستيوارت سوف يتولى مسئوليتها. أقترح أن تصحبه".

"كنت أعتقد أن العمل هنا يا سيدي في حاجة إلى كل الأيدي" تذر
إلزورث.

ولكن جوردون كان الآن يحملق عبر النافذة المفتوحة، إلى أسفل عند
الضفة غير المنتظمة والحقول المصطفة التي تمتد بعيدا عبر جانب النهر
حيث طيور الحباك تدور في منعطفات سريعة جدا. سفينة العباس ترسو
هناك تميل بشكل طبيعي إلى أحد الجوانب بالطريقة نفسها التي يميل
بها مرفق رجل عجوز على المنضدة. الرجال يتجولون أعلى وأسفل المعبر
يحملون الأكياس والصناديق. دون تفكير بحث جوردون عن تليسكوبه
ووجهه عبر الماء إلى الحصن الشمالي.

لقد سمع إلزورث أن الجنرال يقضى معظم الليل على سطح
السراي يراقب معسكر العدو إلى الجنوب وأي تحركات محتملة للقوات.
نون أن يبعد التليسكوب عن عينيه وبينما هو يفحص الأفق بدقة قال
جوردون: "يعتقدون أنهم يواجهون مجموعة من الهمج لديهم أنصاف
عقول يا كابتن، متوحشين وكل الأشياء من هذا القبيل. إنهم كالعادة
يسيئون تقدير إمكانات هؤلاء الناس". وضع التلسكوب واستدار. "ألم
تقرأ من قبل كتابهم المقدس، القرآن، يا كابتن؟".

فوجئ إلزورث إلى حد ما ولأنه غير متأكد من هدف السؤال أجاب
"أنا... حسنا لقد تصفحته مرة يا سيدي. أعتقد أنه متائق بلاغيا جدا".

"متائق بلاغيا؟" جعل الغموض الجنرال يبدو صبيانيا. بحث عن
نسخة تحت مكتبته: نسخة من ترجمة سيل للقرآن "Sale's translation" إن
على المرء أن يفهم أن محمدا كان مجردا من الخطيئة، حقا، لقد اعترفوا

أنه أخطأ. لا يوجد مسلم يقول إن المسيح أخطأ. هم مستعدون ليقفوا ويضحوا بأنفسهم. محمد لا يقوم بمهمة الوساطة بينهم وبين الله".

أسقط الكتاب وحملق بشكل حاد فى الزورث. "إن رب المسلمين هو ربنا يا الزورث ماذا أقدم ليكون لدى كتيبة من الرجال المتفانين مثل رجال المهدي".

"سيدي؟"

"هل تؤمن بالقدر يا كابتن؟"

لم يجب الزورث. جلس جوردون مرة أخرى إلى مكتبه ونظر إلى أعلى دون أن يتلقى إجابة. "من حسن حظك أنك لم تعد إلى جانب جنرال هيكس؟" العينان باردتان والابتسامة خافتة. كان الجنرال الماهر يمتحن رجولته. "جمجمتك كانت ستصبح بين هرم العظام الميتة الذى بنوه فى شيكان".

"كنت سأموت ميتة شريفة". همهم الزورث "واجبى كضابط فى جيش الملكة".

"أدار جوردون عينيه" إلى أعلى وتنهد قائلاً: "جيش الملكة". ليس لهذا علاقة بالملكة، ألا ترى ذلك؟ هذه حجرة خلفية عشوائية قدرة بين الإخوة أصحاب التفكير نفسه إلى حيث نحن..... "المغامرون تم سحبهم". لوح بيده ليبعد ذبابة. "هكذا سوف يضعنا التاريخ يا الزورث: المغامرون، اللصوص، المرتزقة..... وقطاع الطرق". بدا اتجاه الحوار يضايق هاميلتون الزورث. يبدو هذا الرجل بالنسبة له ماكرا، مخادعا

لا يستطيع أن يجد الكلمة المناسبة. ابتسم جوردون ابتسامة ذكية. "أعتقد أن الرجل العاقل هو العالم، هل قرأت من قبل يا كابتن كتاب بلوتارك "حيوات متوازية؟". كانت الإجابة بهزة رأس. "حسنا أعتقد أنه بقيمة ألف جزء من كتيب ضباط أركان الحرب، الذي لا شك أنك قرأته وتحفظه عن ظهر قلب من قبل الواجب".

رفع القلم الحبر وبدأ يرسم اسكتشات على جانب ورقة تضم لوجيستيات. "إنه يدعو للتضحية بالنفس وهذا ما نحتاج للمزيد منه هنا. وبالنسبة لموضوع التضحية بالنفس فالمسلمون تفوقوا فيه على الكاثوليكين والبروتستانت". نظر إلى أعلى حيث دخل الحجرة ضابط طويل وعيونه حزينة، حياه بطريقة روتينية، ألقى بنفسه على الأريكة. ابتسم الجنرال. "يا ستيوارت، ما الأخبار؟".

تنهد ستيوارت. "أبحرت السفينة التوفيقية جنوبا إلى موجران هذا الصباح ثم فى اتجاه حلقا. حددوا موضع عبدين فارين على الشاطئ وهما اللذان أشارا لهم. توقفوا ليأخذوهما إلى سطح الباخرة حيثما أطلقت عليهم النار. قتل رجل وجرح آخران".

جز جوردون على أسنانه وهو يصدر ملاحظة أسف. "إنهم يفقدون أعصابهم مرة أخرى" علق وهو يواصل رسمه التخطيطي. "كابتن إلزورث كان يخبرنى حالا عن بطولاته يا ستيوارت. أنتما تعرفان أحكما الآخر بالطبع".

بدا ستيوارت قلقا. "كابتن الزورث كان تحت قيادتي عندما أرسل إلى هنا منذ عامين". دارت عينا جوردون وكأنه ضرب في جبهته. "بالطبع" أوما قائلا: وهو يحدق في الزورث بابتسامة خافتة: "أنت أيضا رجل مخابرات" كان يلفظ الكلمات وكأنه ينطق بالخطيئة ثم أصبح لدى الزورث انطباع أن السردار ينظر إلى هيئة المخابرات وكأنها الأكثر انحطاطا. أشعل جوردون عود ثقاب. "الزورث سيسافر في اتجاه مجرى النهر معك يا ستيوارت عندما تذهب". كان هناك حرج، جو من اللوم. خطر ببال الزورث أن الرجلين قد ناقشا أمره من قبل. قام ستيوارت وجاء ليصافح الزورث بقبضة قوية محكمة. "مرحبا بك على سطح الباخرة. يسعدني أن تكون معي". شعر الزورث بمخالب البارانونيا تزحف عائدة إليه مرة أخرى .

" كيف تسير استعدادات الرحيل؟".

استدار ستيوارت في اتجاه جوردون. "يبدو أن الخبر انتشر، الجميع يزعجوننا بإلقاء نظرة".

"اللعنة. حسنا لا تجعلنا نعطلك. أنا متأكد أن لديك ألف شيء لتقوم

به".

حياهما ستيوارت سريعا وذهب. تبعه جوردون حتى باب الخروج عبر الشرفة "أحمت (أحمد). شاي من فضلك" كان الزورث يخطط ليستأذن في الانصراف ولكنه أدرك الآن أنه سوف يضطر للبقاء جالسا ويقدم له كوبا من الشاي. ابتسم جوردون قائلا: " العودة للوطن أمر جميل يا الزورث؟".

"لم أفكر يا سيدي". تلملم فى كرسية.

"المفسدة القديمة. العودة للأماكن الدافئة بجانب المدفئة. وليالى الشتاء المظلمة، ودعوات العشاء وكل هذه الأشياء العفنة". علق جوردون بأسى .

"اعتقدت أن مكانى هنا يا سيدي، إن الموقف حرج".

ضحكة جافة تسربت من جوردون تعقيبا على ذلك. كرر "حرج؟". قل ذلك لجلادستون وبقية المخلوقات المغرورة الأخرى فى وايت هول. لقد مرت بهم اللحظة العصبية بينما هم يسحبون بطاطينهم حول أخصارهم ويرشفون خمر الماديرا. "الخرطوم؟" اثبت أيها الرجل العجوز ستصيب نفسك بعسر هضم". "من هو الآن؟ نعم، جوردون. لا تفعل أبدا مثل الرجل العجوز". "اهدا ولكن علينا على الأقل أن نقوم ببعض الجهد ألا تعتقد ذلك؟". "الآن لا تدعنا نتعجل. علينا أن ننتظر ونرى كيف ستخضع البلد". "كنت أعتقد دائما أنه غريب الأطوار قليلا. بالمناسبة، كيف حال زوجتك؟" إلخ إلخ وأشياء تثير الاشمئزاز".

جلس الزورث فاغرا فاه خلال هذا العرض الصغير بكل ما فيه من الإبداع والجنون الذى يجده المرء فى استعراض أو مشهد جانبى غريب فى سوق ريفى. فقد كان الجنرال يتحرك هنا وهناك وعيناه تدوران ويداه تضربان بتشنج من جانبيه. جاءت إلى الغرفة مجموعة من الشخصيات من عالم بعيد، قتلت بشكل لا يتسم بالاحترام.

وبهدوء ظهر أحمد حليق الذقن ووضع صينية الشاي النحاس الصفراء وانسحب دون صوت إلى الخلف عبر الباب. النظرة الرواقية(*) على وجه الرجل جعلت الزورث يفكر فى عبثية الموقف الذى قدم فيه هذا التقليد الساخر. مرت اللحظة وسقط جوردون على كرسى ذى ذراعين وهبط على الحجرة صمت مطبق. عندما عاد صوت جوردون استعاد هدوءه ونبرته المحققة السابقة. قال: "اللحظة الحرجة مرت بنا، وميزها صمت محير". حملق بشكل غريب فى حدائه ذى الرقبة المرتفعة. "إننا النقطة الصامتة التى تميز مركز أخلاق الإنسان". إنه يقوم بدور إنسان يشن حربا بيد واحدة ضد قوى الظلام التى تحاول أن تغسله بتيار القرن "لقد تحول سلاتين إلى الإسلام. كنت أثق بهذا الإنسان مثل ابنى، وقد باع ضميره. ولكننى أفهمه أكثر مما يعتقد؛ لأننا هنا جميعا وحدنا".

العينان الزرقاوان المذهلتان بربشت فى اتجاه الزورث. "ولكننى لن أسامحه أبداً. كنت أعرف دائماً أن هذه اللحظة ستأتى. فى مكان ما من أعماقى كنت أعرف أننى سأواجه يوماً سؤال الإيمان الراسخ فى مكان بدائى كهذا، حيث مكونات الطبيعة والنوع الإنسانى فى أسوأ وأكثر حالاتهما بدائية.... وسأكون وحيدا تماما. هكذا نأتى إلى العالم وهكذا يجب أن نرحل".

(*) نسبة إلى الفلسفة الرواقية وهى الفلسفة التى أسسها الفيلسوف اليونانى زينون Zeno فى أثنينا عام ٣٠٨ ق.م. والفضيلة فى رأى الرواقى هى الخير الوحيد، والرجل الفاضل يجد سعادته فى داخل نفسه ويكون مستقلا عن العالم الخارجى بكل ما فيه من شرور، فجنته فى قلبه وبالتالي فهو سعيد ومطمئن دائما. وبالتالي فإن المقصود هنا "النظرة المطمئنة". (المراجع)

فى ضوء بعد الظهرىة الضعيف؁ نسيم النهر يدور برقة فى جنبات الحجرىة ىربت على أذرع الكراسى الناعمة وكأنه يعدهم للمحرقة القادمة. البخار يتصاعد من أكواب الشاى التى لم يلمسها أحد على المنضدة الصغىرة؁ فكر إلزورث مرة أخرى فى الانصراف. كان ىريد العودة إلى الثكنات لىرقد وىسكن هذا الاضطراب الذى يدور فى رأسه مثل دوامة تبتلعه إلى الأعماق.

جنرال تشارلز جورج جوردون وقف عند النافذة. عبر الحجرىة ظلٌّ وصدر عنه صوت دهشة. صاح قائلاً:

"انظر". وقف إلزورث على قدميه وهو ىرتعش وتحرك نحو النافذة. كان الجنرال ىشير إلى السماء. "ألىست رائعة" وراقب إلزورث بىنما سحابة من الدخان الرقيق اللامع البدىع تطىر فى السماء؁ تاركة خلفها الصىحة الحزىنة التى تصدر من طىور الكركى. شق السرب طرىقه دون جهد عبر ضباب الماء وقت غروب الشمس؁ متجهاً إلى الشمال واخطفى عند نقطة فى السماء الكئىبة. "إنها تطىر فى اتجاه الأحق كىتشنر ورجاله؁ الذى لا ىستطىع أن يفهم أى كلمة أقولها وتقارىره العسكرىة ىتعذر فهمها".

راقب إلزورث الرجل بإعجاب مما جعل من المستحىل أن ىبعد عىنيه عنه. ضوء السماء الأزرق ملأ تلك العىننن المسكونننن.

همس جوردون لنفسه: "إنه قرىب جداً؁ هناك عبر هذا الشرىط من الماء القدر". خطأ بعىدا عن الشباك؁ تاركا إلزورث وحىدا. إلى أسفل على جانب رصىف المىناء الطىنى؁ لا ىزال الرجال ىنقلون الوقود إلى

الباخرة المنخفضة. الدخان يتلوى من المدخنة الرفيعة غامقة اللون، مدخنة غامقة اللون وقطرات نحاسية تتساقط من ألواح عجلة التجديف. حزم خشب الوقود على هيئة عيدان منظمة. كان الرجال يتحدثون بعضهم إلى بعض بأصوات عالية واضحة، شخص ما يغنى. نهايات الحوارات تذروها الرياح مثل شرائط منزوعة من صفحة كتاب لن يستطيع قراءته.

"سيتمنون أن يأتوا لإنقاذى. أنا أهم من الكتيبة، من البلد. ثقافة الاحتفاء تنمو حولنا. فقدت الكلمات معناها ويستخدمها سائقو العربات يوميا لتنظيم بضائعهم المخزنة، مثل الرجال يقذفون إلى النار حينما يحين الوقت. إننا نعيش فى عصر جديد من الوثنية. يشعر المرء بتعاطف معين مع محمد، الذى رفض أن يرسم له أى بورتريه. إن المسلمين ينظرون إلى المسيحية بوصفها تبسيطا. وهو جهل يرجع إلى نقص فى الحقائق الكاملة كما كشفها الرسول الأخير. الحقائق الكاملة التى تضم بالطبع اللغة العربية". ترتفع نبرة صوته وتنخفض؛ لأن ذهنه يتنقل دون هوادة عبر معلومات عديدة، مثل رجل يكافح، فكر إلزورث، ليجد معنى لعالم تحطمت صورته بين يديه. "ما لا يحتملونه، رغم ذلك، هو عبادة الأوثان. أليس هذا تناقضا مثيرا؟ إن أتباع المهدي يحاربون لاستعادة الإيمان الحقيقى ونحن فى جهلنا نحاول أن نهزمهم، بينما الحقيقة أننا أيضا فقدنا فهمنا للإيمان. إلى أين ننتقل من هنا يا إلزورث؟".

تحرك فى أرجاء الحجرة وهو يرتشف الشاي الفاتر من كوبه. لا توقف لتطور أفكاره. "إننى أوْمَن أن الله خلق الحيوانات لهدف، وجعلنا

نحن الآدميين أعلى مكانة منهم ليزكرنا بهذا الهدف. وخلق الله نفسه في صورة إنسان، والفرق بيننا وبينه هو خطيئتنا. وسعادتنا المستقبلية تكمن في أن نستطيع أن ندرك اكتمال بصيرته وذكاءنا المحدود". هز السردار رأسه. "فكرة كئيبة". إلا أنها موحية، بشكل واضح؛ لأنه وضع كوبه وجلس إلى المكتب ليبدأ كتابة أفكاره بسرعة في دفتر أخذه من تحت كومة أوراق ومسدس.

كان إلزورث يجلس صبوراً، الشأى لم يلمس في يده، لا يستطيع أن يستجمع قواه ليتحرك. حينئذ وقف جورديون فجأة، وألقى بقلمه الحبر وتناول طربوشه الأحمر الذى وضعه مترناً على رأسه. ابتسم وربت على كتف إلزورث وهو يمر. "اتصل باستيوارت من أجل الرحيل. الآن يجب أن أذهب وأراقب دجاجاتى. إن المرء يتعلم منهن الكثير".

جلس إلزورث يحملق فى الظلال التى تصنعها على الحائط قمم النخيل التى تهتز برقة مع النسيم.

١٩- أم درمان. معسكر المهدي

أكتوبر ١٨٨٤

الأرض بأكملها تتحرك. قافلة التابعين والمهاجرين تمتد على الأرض في خط ملتوى من البشر. رجال ونساء وأطفال يحملون ممتلكاتهم ملفوفة في قماش، ويسحبون بغالهم وإبلهم خلفهم ويسيرون إلى الشمال بحثًا عن أمل.

أين بالتحديد المهدي نفسه، كالعادة، أمر يغلفه الغموض. يأتي ويذهب بسهولة كروح مرنة تمر عبر الحجر المحروق الذي يقع تحت هذه الصحراء مثل ماسة لامعة، ليعطي رنينًا متجددا للكلمات المحارب المبجل عبد الرحمن واد النجومى: "إنه الروح وهم الجسد. إذا لم يكن الله قد أرسله كنا سنطلب من شعرائنا أن يتخيلوه".

شخص ضئيل يسرع عبر الحواجز التي أقيمت بسرعة من الأشواك والخيام والسواتر الرديئة، بطبيعته الدائمة من الارتباك المكتوم. القوات مجتمعة في معسكر على الحافة الغربية لقرية أم درمان الصغيرة، وهذا بدوره يصل حتى يكاد يلمس الضفة الغربية المقوسة للنهر نحو الشمال في اتجاه البحر البعيد. نام حاوى نوما سيئا ويشعر هذا الصباح بكبر سنه. أطرافه متيبسة ورأسه يؤله وكأنه أصبح مريضاً بالحمى. كان يدعو في صمت ألا تكون نهايته هكذا. فتجمع كل هؤلاء

البشر، يؤدي إلى انتشار المرض من شخص إلى آخر دون رحمة أو حدود.

لقد استدعاه الخليفة عبد الله شخصيا هذه المرة. إنها ليست المرة الأولى، ويخشى أنها لن تكون الأخيرة. منذ أيامه في الأبيض اكتشف أن سمعته تسبقه أينما ذهب. الشهرة نفسها التي تدعو إلى الشك والنبذ في بعض الأماكن تجذب آخرين. لقد أصر الخليفة على مقابلته والتحدث عن أفكاره. شك في البداية أن الأمر نزوة وستمر ولكنه وجد أنه يتم استدعاؤه للحكم أو النصيحة في أمر أو آخر. إنها ليست مهمة سهلة: فقائمة المستشارين والحكماء ليس لها نهاية. فضلا عن أن هذه الاستدعاءات لها ثمن، فأن يكون المرء على هذه المقربة والثقة مع أحد أقوى الرجال في معسكر المهدي تعنى أن الكلمة الخطأ يمكن أن تكون خطيرة جدا. يمشى على الطريق حذرا بقدر ما يستطيع، ولكن الأمر يتطلب كل ذرة براعة يمكن أن يستدعيها.

أصوات المدافع تسمع عن بعد. يقول البعض: إنها تدريب فرق المدفعية. ويقول آخرون: إنه تكتيك لإصابة العدو بالرعب حتى يفر عبر النهر إلى مصر. إنهم قريبون اليوم ويبدو أنه جزء من الهجوم على الحصن في أم درمان حيث ما زالت تصمد عنده قوة صغيرة. لقد شنق ثلاثة رجال هذا الصباح في الفجر بسبب التجسس، إنهم يرقنون على الأرض في ضوء الشمس ووجوههم تغطيها شبكة من الذباب الطنان. أسرع حاوي وهو يغطي فمه وأنفه بوشاح.

منطقة الخليفة المسيجة يحيطها سياجان متلازمان من الأغصان الشوكية. بعد الحراس المسلحين بالسيوف والبنادق عدة خيام تضم الخدم والمستشارين والزوجات. وكل يوم تظهر سواتر جديدة. الحارس الذى لا يتغير أبدا بل يعيش لصيقاً بباب سيدهم تعرف عليه وأدخله. خلع حاوى خفه عند باب الخيمة البيضاء الواسعة التى كان يقيم بها يوما جنرال هيكس، وخطا إلى الداخل. الأرض تغطيها سجادة جيدة كبيرة وزنها يساوى عشرة رجال. وبينما مرت عيناه بالمكان وجد ملامح الخليفة المتحجرة التى تحمل ندبات الجدري. تبادل التحية باقتضاب وشعر حاوى مرة أخرى بالأيدى التى تمتد لتقبض على حلقه. عبر العام الأخير اكتشف فى نفسه قدرة على السيطرة على ردود فعله، الأفعال التى كانت تؤدى إلى أن يستلقى مستيقظا ليلا؛ ليناضل مع ضميره، لا تثير الآن سوى قليل من الإحساس. قال لنفسه: إنها علامة على أنه يكبر فى السن، وأن ريعان الشباب كان لها يتضائل مع مجيء الحكمة.

كانت الخيمة تضم عددا قليلا من الوجهاء الذين وقفوا جميعا لتحيته. عاد عبد الله إلى مكانه وكعادته طلب من حاوى أن يجلس إلى جانبه. جلس، وهو يدفع مخاوفه حول هذا التفضيل، الذى يخشى أن يكون له يوما ثمن مرتبط به. إلى يساره رجل نحيف يبدو وجهه وكأنه كله من العظام، صلف وجاف التعبير. يبدو أنه يفهم قليلا مما يقال: وأصبح واضحا فيما بعد أنه أصم. كان معالجا روحيا من نوع ما أرسله ماك آدم من مملكة تكالى Taqali بجبال النوبة. من حين لآخر يغمغم بالآية نفسها من القرآن وكأنها الإجابة عن كل شيء. فى الحقيقة أصبح

واضحاً لحاوى أن كل واحد من الحاضرين مرجع فى أمور الروح. ابتسم الخليفة ابتسامة واسعة وطلب تقديم الإفطار. قدمت سلاطين الطعام: اللحم المشوى وتللا من الأرز فضلا عن العصيدة والجوراسا، سلالا من البيض المسلوق، البصل والفول، الباذنجان المقلّى والبامية. شمر الآخرون أكمامهم وجلسوا للعمل، بينما جلس حاوى يمضغ ببطء تمرات قليلة. كان هناك شد وتمايل ونخز وهم يأكلون. لم يحدث أبداً، فكر حاوى، أن اجتمع هذا العدد من المؤمنين بالخرافات فى الوقت نفسه. قصة أن والد عبد الله كان هو نفسه عرافاً مشهوراً ومفسر أحلام له سمعة كبيرة بين التاعيشة كانت سبباً لبعض الجدل؛ لأن هناك خيطاً رقيقاً بين الإيمان بالخرافة والوثنية.

كان الخليفة مشغولاً بمحاولة أن يجعل ضيوفه يتكلمون ويستعرض قدراته الاجتماعية الكبيرة. "عبد اللطيف رجل رؤى معروف. لقد ساعد فى عدة سنوات صعبة فى التنبؤ بأفضل وقت لزراعة بعض المحاصيل وأيضاً فى عدد من غارات الصيد أليس كذلك؟". كان هناك بعض الضحك المهذب؛ لأن هؤلاء الذين قاموا بالغارة ربما يكونوا حاضرين بين هذه المجموعة المختلفة من السحرة وقراء الفنجان. أشار الخليفة بدبوس دجاجة. "معنا هنا أخونا إدريس، قد أقول: إنه أشهر إدريس وهو الذى أمضى سنوات عديدة تحت تأثير المدرسة القادرية(*) Kadirriya فى بغداد". كان إدريس رجلاً ضئيلاً شاحباً له حواجب حليقة وأعين كالسمندل.

(*) القادرية: نسبة إلى عبد القادر الجيلانى الذى ولد بجيلان عام ١٠٧٧م، وتوفى فى بغداد عام ١١٦٦م، وهى طريقة صوفية كان لها اتباع فى مصر والسودان والمغرب والصومال واليمن وتركيا والهند، ويوصف عبد القادر الجيلانى بأنه تاج العارفين ومحى الدين وشيخ الشيوخ. (المراجع).

على رأسه يعتدل أكبر طربوش يمكن أن يراه المرء، وبجانبه رجل مفتول العضلات ذو بشرة غامقة. شعره دهن فى خصلات طويلة متشابكة من نوع خيالى يرتدى صدره من جلد النمر ويحمل حقيبة من الجلد الممزق اللامع فيها قرد صغير أبيض الوجه يبرز رأسه من حين إلى آخر ليتلقى بعض لقم من الطعام يعضها بقوة بأسنان قصيرة حادة. تفحص الخليفة هذا الرجل، ومن الواضح أنه نسى من هو أو من أين أتى. وكان الصمت يزيد الغموض، ولكن فيما بعد أخبر شخص ما حاوى أنه رجل له قدرات لا تصدق من منطقة المستنقعات فى الجنوب. يمكنه أن يتحول إلى صقر، يمشى على الماء وعرف عنه أنه يستطيع أن يعيد الموتى إلى الحياة. لم يشارك فى الحوار إلا بالقليل، لأن شخصا ما نسى أن يحضر له مترجما وهو لا يستطيع أن يتحدث سوى القليل من اللغة العربية.

ولكن الخليفة بدوره كمخرج للمسرحية فى هذه المناسبات وصل الآن إلى حاوى فى دورة التقديمات "قد يتذكره بعضكم منذ حوالى خمسة عشر عاما عندما اشتهر برؤاه الراديكالية لإصلاح ديننا العظيم. اعتقد أن أفكاره كادت تكلفه حياته فى وقت ما". صدرت دائرة من الضحك الخافت تاركة حاوى بابتسامة خافتة مجبرة على الوجه. نظر الخليفة إلى كومة الأرز أمامه. "أعتقد أنه لا يوافق على بعض أوجه من قوانين الشريعة" نظر حوله إلى الوجوه المجتمعة. ولكن من يمكنه أن يقول: إن قوانيننا القاسية ولكن الفعالة لم تحفظ الأمن لآلاف وثلاثمائة عام منذ وقت نبينا العظيم محمد عليه الصلاة والسلام". استمر يلقى محاضرة سيئة التكوين عن فضائل العقوبة البدنية وتاريخ الدين بشكل

عام مما أتى بدموع الضجر إلى أعين الحاضرين الأسرى. "ولكن فى النهاية وكعلامة على سماحة الهدف النبيل الذى نجتمع من أجله، فإن حاوى هنا لأنه يمثل ثروة من المعلومات ويجادل بشهية مفتوحة". يد كبيرة ضربت حاوى على كتفه. لا يمكن أن يقاوم المرء سحر روح الفكاهة لدى الخليفة. وكان واضحا أن هذا الرجل الداھية قرر أنه من المهم أن يقود العوامل الخارجية للحملة وفعل ذلك بدعوة كل رجالهم الحكماء إلى اجتماع. وكأنه يؤكد هذه النقطة. رفع السمندل الصوفى ذقنه وسأل فى لهجة القدمات الخالية من الأخطاء "سيدي أسأل عن غرض جمعنا فى هذا الاجتماع الجيد؟".

قذف عبد الله بعظمة الدجاجة إلى الأرض ونظر حوله إلى الأوجه المجتمعة. مال إلى الأمام وتوقف الجميع عن المضغ. "بلا شك أنتم تعلمون أننا على حافة إزالة الكلاب الأتراك من هذه الأرض مرة واحدة وإلى الأبد. دع العالم يعلم أننا لن نستعبد من الكفرة الذين يودون أن يحكمونا من وراء البحار. لن نرقص على نغمات الوثنية التى تطلقها الأبواق عن بعد، إن بعثة المهدي العظيم المقدسة تؤكد نصرنا، فليباركه الله وجميع من حوله".

كانت هناك مهمات إجماع عند هذه النقطة. رفع الخليفة عبد الله إصبعاً قصيراً وبديناً وأشار إلى الخيمة فوقهم. "لن يخلص امرئ للمهدي مثلى. إنه المرشد. وهو روح حركتنا، ولكن يقع على شخصى المتواضع أن أتعامل مع الأمر العملى لتأكيد انتصارنا العسكرى. لقد قال المهدي: إنه لا حزن على هؤلاء الذين سقطوا فى المعركة وكلنا نعلم

أن هذا حقيقى لأنهم يرقون لأعظم مكانة يحققها الإنسان. إنهم يصعدون مكرمين إلى حدائق الفردوس. يجب أن نحتفل برحيلهم. لقد تمكن من أن يصل إلى تلك الحماسة لدرجة أنه فقد تماما اتجاهه.

شيخ بدين على الجانب البعيد من السجادة استغل هذه اللحظة ليعلى مركزه فرفع إصبعه. قال: "سيدي" قاطعا الصمت المنتظر. "لا أحد يشك فى أمر الشهادة التى نالها الأنصار، ولكن يبقى السؤال كيف يمكن أن نساعد بحكمتنا المتواضعة ومعلوماتنا". كان يحاول أن يجعل الموضوع لطيفا بابتسامة واسعة وحركة رأس إلى الجانب تلك الحركة التى هددت بإسقاط العمة التى تم لفها بطريقة غير متقنة. "لا أحد منا يختلف على النور الذى نشره نبيلنا المهدي عبر البلاد وفى العالم فى الحقيقة، ولكن الهداية التى ترسل إلى المهدي من الرسول عليه السلام"، أصبح وجهه جادا الآن لأنه بدأ يدوس على أرض ممهدة وكان يقترب على نحو خطر من أن يقول فعلا ما يفكر فيه، "بكل الأشكال كاملة ومقدسة". فتح يديه على اتساعها، مختارا مرة أخرى أكثر الطرق أمانا. "ماذا بوسعنا نحن البشر الفانون أن نضيف لذلك؟".

كان الخليفة يمضغ حفنة من الفول السودانى واستغرق وقتا قبل أن يجيب، مما لم يرح الشيخ، "ما تقوله صحيحا". أوما أخيرا وهو يسحب تنهيدة راحة من الرجل البدين عبر الحجرة. "ولكن عدونا حيوان ماكر ويجب أن نكون يقظين. كل منكم خبير بطريقته فى أمور لها طابع معين. أنت موهوب بحكمة خاصة تجاه مواطنيك المتحدنين الآن تحت أعلام المهدي باركه الله". توقف عبد الله مفكرا وهو يحملق فى يديه. قال:

"أبى أيضا كان مثلكم"، ثم رفع عينيه، واتسع وجهه نحو ابتسامة ومد يده. "تعالوا لتخبروني برؤاكم وأحلامكم وهواجسكم. سواء كانت جيدة أم سيئة. هذا وقت خاص والعالم كله مشتعل بالرسالة التى فى متناولنا. يجب أن نكون يقظين لأى علامة مهما كانت".

وفكر حاوى مليا أن تفكيره المبدئى كان صائبا: فالخليفة تحت أسلوبه المرح وتهوره الواضح كان رجلا حذرا إستراتيجيا داهية. لقد دعا هؤلاء الرجال هنا؛ لأنه يعلم أنهم وثيقى الصلة بالأفراد الذين يحكمون العصب المختلفة فى قوى المهدي. لا شىء أكثر ضرورة فى هذا الوقت من وحدتهم. يجب أن يشعروا جميعا أن دورهم فى المعركة حيوى وأنهم ينالون الاحترام. الاستثناء الوحيد لذلك هو حاوى نفسه، فليس لديه أى سيطرة على مقاليد الأمور.

بقية الاجتماع كانت عهد الإخلاص المتكررة وكل رجل يبذل قصارى جهده ليتفوق على الحضور الآخرين. كلهم يودون أن يكونوا على رأس الهجوم فى الخرطوم الذى يخطط له فى هذه اللحظة نجومى الرائع

عندما انتهى الاجتماع وكان الضيوف يخرجون، أشار الخليفة لحاوى بأن يبقى. وعندما أصبحا وحدهما، بدأ عبد الله يتكلم عن كلمة ألقاها المهدي على مجموعة من الجنود المعسكرين فى شات منذ شهر. "متحدث لبق" كان يقول: "من كلماته يهمس بها فى روجه الملائكة والرسول نفسه. ولكن على أرض عسكرية أمام ألف جندى، لم تحمل كلماته، رغم صدقها، الثقل الذى كان يجب أن تحمله. فلم يستطع

الرجال سماع التفاصيل الجميلة التى تضىء الطريق". قال: فجأة: "إنهم جهلاء، معظمهم أبناء فلاحين. رعاة مثلى". ضحك وضرب على صدره. كان حاوى يعرف أنه يشهد على وجه آخر من سلوك الخليفة. "كانوا يحتاجون فقط للاستماع إلى كلمات التشجيع، شئ بسيط".

"ولكن بالتأكيد رؤية المهدي المحبوب كانت تشجيعا بالنسبة إليهم؟"
أشار حاوى بذكاء.

أوما الخليفة، دارت العيون الصغيرة حولها بحذر، وحملت دقيقة على نقطة على جلد الماعز الذى يجلس عليه والدقيقة التالية ثبتت الحاوى بالطريقة التى يثبت بها الصقر فريسته. "أنت الوحيد بين هؤلاء الرجال الحكماء الذى أستمأنه على حياتى" قال: بهدوء: "هل تعلم لماذا؟".

هز حاوى رأسه ببطء.

ضحك الخليفة ضحكة عميقة عالية. ووضع يده على نراع حاوى قائلا: "سأخبرك ما تفعله عندما تعتقد أن هناك ثعبان يقترب". لمعت عيناه كالحجر الندى. "تجعل القطيع فى الأرض الخالية بعيدا عن العشب، حتى يمكنك أن تراه". توقف صامتا ليدرس حاوى بدقة. "يقول كثيرون: إنك كان يجب أن تموت فى نهاية ذلك الحبل، ما زال لديك أعداء كثيرون، يا صديقى". غمز بعينه بشكل تأمرى. "ولذلك أعلم أنه يمكن الثقة بك".

قرر حاوى أن الوضوح مطلوب "إن الرجل الذى يمضى حياته دون أعداء يكاد لا يكون له تأثير على العالم. فمحمد نفسه عليه صلوات الله

وسلامه كان له أعداء كثيرون". تجهم الخليفة. "هل تقول هذه الأشياء لأنك تؤمن بها، أو لتسمع فقط صوتك؟ هز رأسه". "لا تبالى بذلك الآن. أخبرنى، هل زرت الأسرى كما طلبت منك؟".

أوما حاوى. "فعلت يا سيدى".

"و؟".

"إنهم فى حالة يرثى لها. حالتهم المعنوية سيئة".

طقطع الخليفة بلسانه دون صبر. "إنهم لم يروا نور الله بعد".

"إنهم لا يستطيعون أن يروا أكثر من محتهم" أوضح حاوى الذى صدم لرؤية الحالة التى أبقى عليها الأسرى. فهم متسخون ولم يغتسلوا. لا يهتمون بمظهرهم. كان أكثر اهتماما بمصير الإفرنجيين؛ لأن الخليفة طلب منه أن يعطى اهتماما خاصا للأوروبيين.

"لماذا تعتقد أنهم مصممون على إنكار الإيمان الحقيقى؟".

فكر حاوى دقيقة. لديه إحساس غريب بأن الخليفة يعجب بعناده بشكل ما. فرغم كل الاتهامات بالوحشية والقسوة التى لا تعرف رحمة أو شفقة، يتصور حاوى أنه يسكن فى هذا الرجل احترام للتعلم. فى الأيام الطيبة كان حاوى يجد عزاءه فى ذلك، فى فكرة أنه قد ينبثق من هذه الفوضى والدمار شئ له قيمة. فى الأيام السيئة يرى الأمر مختلفا.

"أعتقد، يا سيدى أنهم خائفون مثلما يخاف البشر جميعا عندما تواجههم حقيقة مروعة ولا يمكن إنكارها وتتطلب هجر كل شىء. تتطلب

القوة والشجاعة للاعتراف بأن المرء عاش حياته على كذبة، أو على الأقل سوء فهم".

أعجب الخليفة بذلك. ضرب على فخذه وضحك بينه وبين نفسه. "إنك حقا رجل ذو مواهب عدة. تتحدث بلسان من فضة، والحكمة تسيل عسلا من كلماتك". فكر حاوى أنه يوم طيب. ولكن حينئذ جاءت الطعنة. ضاقت عينا الرجل قوى البنية. "أخشى، رغم ذلك، أنك تسعى لتجعلنى أنحرف عن الاتجاه الحقيقى لأفكارك؛ لأنه من الواضح حتى بالنسبة لراع بسيط مثلى أن ما يعيشون فيه ليس اليأس ولكن الأمل، الأمل لأنه بطريقة ما سوف يتم تحريرهم على أيدي قوات الكفار الذين حتى فى هذه اللحظة يحاولون استدعاء جيش للانتقام لموتاهم. وهذا ليس سرا".

أذن الخليفة لحاوى بالانصراف وطلب منه العودة بعد ظهيرة اليوم نفسه. "أود أن أرى هذه المخلوقات الحقيرة بنفسى. سوف تذهب معى".

الذهاب إلى أى مكان مع الخليفة ليس أمرا سهلا. فالحاشية من الحراس والخطاطون والسكرتارية يجرجرهم خلفه بينما هم يشقون طريقهم عبر الأعداد الضخمة من الجنود والتابعين من المعسكر، والأكوخ نصف المكتملة وأكوام الممتلكات والأطفال والحيوانات. هناك ضحك وصراخ. تجمع من الصبية الصغار التحقوا بالموكب، أخذوا يجرون بجانبه ويقفزون فى الهواء، مبتهجين. سحبت الأمهات الأطفال الصغار بعيدا عن الطريق. الكلاب الهزيلة تفر تحت السواتر المصنوعة من الخوص وسعف النخيل.

يتم التحفظ على الأسرى إلى جانب شجرة سنط كبيرة يتدلى منها جسر نحيف. يؤدي النسيم الآتى من النهر إلى حفيف أوراق الشجر فوق رؤوسهم. الأسرى يجلسون أو يستلقون على الأرض، أيديهم وأقدامهم مقيدة بسلاسل وقيود قوية.

وقف الحراس عندما اقترب الموكب وتحركوا بسرعة بين الأسرى يحثونهم لينتبهوا بينادقهم وسيوفهم.

"قفوا على أقدامكم أيها الكفرة". ضحك الخليفة ضحكة خافتة. "إن سيدكم أمامكم". تجول، ويدها مشبوكتان خلف ظهره مثل رجل دولة يعاين قواته.

كان معظم الأسرى من الكهنة، رجال الدين الذين جاؤا إلى هنا للتبشير بالمسيحية. لقد تم اعتقالهم على الطريق في المدن النائية التي استقروا فيها. شخص نحيف منحني تسلل إلى الأمام. تجاهله الخليفة في البداية ثم استدار وأشار إليه. الشخص الذى ينحني ظهره مثل السرطان جاء يعدو إلى الأمام عيناه تبرزان من مقلتيهما وتتحركان يسارا ويمينا، ويكاد لا يقوى أن يظل واقفا.

"عبد القادر" حيا الخليفة الرجل بطريقة جافة بالاسم الذى اختاره. "لا شك أنك تفتقد مركز حاكمك فى دارفور؟".

"سيدي" أجاب الرجل وهو يحنى رأسه: "أطلب منك فرصة واحدة أخرى لأخدمك. يمكننى أن أكتب لجوربون وأقنعه بالاستسلام".

حك الخليفة بطنه. "ما زلت تنتظر إلينا على أننا حمقى وسذج. لقد حاولت مرة ورفض الإجابة، إن هذا شأنه وشأنك. فأنت لن تصدق أننا نعرف ما نتكلم عنه عندما نتحدث عن الله".

"سيدي". تلعثم النمساوي الضئيل. "لقد أقسمت على الإخلاص لله. أنت تعلم ذلك".

"إن الله يعلم كل شيء ويرى كل شيء". أصبح الوجه ذو ندب الجدرى مرعبا بينما عبد الله مال مقتريا، وهمس "يمكنه أن يعرف ما فى قلبك عندما تكذب". انحنى رادولف سلاتين أكثر وانسحب خطوة. أتى حارس وتحدث: أحد الأسرى طلب رؤيته. ابتسم عبد الله لحاوى. "هل ترى يا حاوى كيف تقفز البراغيث عندما أخطو إلى مخابئها؟ تحرك وتم إحضار الأسير المطلوب. جوبته ممزقة وملطخة ويكاد لا يقوى على الوقوف.

سأله الخليفة: "ما اسمك؟". ترنح الرجل إلى الخلف وإلى الأمام مثل عود قصب مع الريح، وغمغم بشيء ما، وعيناه على الأرض. مال الخليفة إلى الأمام وقال بحدة: "ماذا يقول؟".

اقترب حاوى أكثر، رائحة النتانة المنبعثة من الرجل قلبت معدته. استمع إلى الصوت المثير للأعصاب، "ش..ش...إر...و...". تراجع حاوى وتم استدعاء سلاتين للتقدم مرة أخرى. الخليفة: "هذا الرجل يود أن يقول شيئا" قال: بينما سقط الرجل المترنح على كومة على الأرض. "أخبرنى ما هو".

مال حاوى ليسمع بينما انحنى سلاتين إلى جانب الشخص وحاول أن ينتزع منه بعض الحياة. كان حاوى قد استمع إلى لغة الفرنسيين فى القاهرة. "ربما مع بعض الماء؟" نظر سلاتين بأمل. أوماً الخليفة عبد الله بموافقته وعاد أحد الحراس بسرعة بإبريق. حاولوا أن يدخلوا بعضاً منه فى فم الرجل. بعض منه لا بد وأن يكون دخل جوفه؛ لأنه بدأ فوراً فى الغمغمة والكحة.

بصق عبد الله على الأرض. وأعلن بازدراء: "لا أثق بأى من هؤلاء الناس".

أوماً حاوى بموافقته الضمنية. الرجل الآن يتقيأ وينبش بأظافره فى الأرض. ولوث قدم أحد الحراس اللذى بدأ حينئذ فى ركله بوحشية. مد حاوى يده ليمنعه. قال: ببساطة: "سيموت إذا واصلت". خطأ الحارس إلى الخلف بسرعة وهو ينظر إلى الخليفة قائلاً: "أقدم اعتذاراتي يا سيدى".

مال سلاتين على الرجل الساقط على الأرض. "تكلم الآن يا رجل لأن حياتك تتوقف على ما تقول". ثم قام وذهب إلى الخليفة. قال: "سيدى، إن هذا الرجل يود حقاً أن يقول شيئاً". غطت وجه عبد الله محمد آدم نظرة ملل وخطأ إلى الأمام. ساعد سلاتين الرجل الساقط ليقف على قدميه وعرجوا معا مقتربين من الخليفة.

"ماذا يقول؟".

ترجم سلاتين. "يقول: إنه رسول ملكة الإنجليز الملكة فيكتوريا وإن الملكة سترغب جداً فى الانحناء أمام قدرة المهدي. ويرغب فى أن يحمل

رسالة لها من المهدي". تنهد سلاتين وهو يجد أنه من الواضح أن الأمر صعب الحدوث "ويشعر أنها ستستمع إلى صوت العقل".

ضحك الخليفة. وصاح بأعلى صوته "هذا الكلب يعرف ملكة إنجلترا؟". "سيتكلم نائبا عنها؟". اقترب وسحب الرجل من قفاه حتى تلامس وجهيهما. "إن الله يعلم ما فى قلوب الذين يعلنون الإيمان ولكن لا يشعرون به". استدار للحارس وأخبره بأن يعطى الرجل مائتى جلدة بالكرباج. "وترى إذا ما غير قصته".

وجد حاوى نفسه يتحرك. "سيدي"، قال: لاهثا وهو لا يكاد يدرك أنه يتحدث. "سيدي، هذا الرجل لن يتحمل مائتى جلدة". تحدث بصوت منخفض يستحثه محاولا ألا يجذب الانتباه لطبيعة حوارهما. "إذا كان يكذب فسوف يلقي عقابه، ولكن إذا أعطيته فرصة ليسترد عافيته حينئذ سيعرف أن الرحمة هى أكبر قوة للمؤمن".

بنظرة حيرة، وقف عبد الله لحظة طويلة يحملق فى حاوى. "أنت طائر غريب"، نطق أخيرا. وأشار بإصبعه إلى الحارس. "اعطهم جميعا وجبة طيبة وملابس نظيفة" أعلن بصوت عال. "احترس جدا" همس فى أذن حاوى. "إذا عارضتني بعد ذلك أمام الناس، سوف أقطع رأسك". ومع هذه الجملة مشى خارجا من الجمع.

وقف حاوى مزروعا فى الأرض مدركا الآن فقط أن ساقيه ترتعشان. نظر أسفل إلى الشخص البائس شيروود لوث، الذى لم يكن يدرك أن مصيره قد تغير بفضل هذا الرجل وغمغم لنفسه "كان الله فى عوننا جميعا".

٢٠- الخرطوم حصون النيل الأبيض

٢٥ / ٢٦ يناير ١٨٨٥

بومة بيضاء وحيدة تنعق على النهر. النجوم قطرات صغيرة جدا من الزجاج المتوهج خرجت من بعض الليالي الداكنة - متشظية إلى ملايين الأجزاء التي تفقد العقل. بعيدا تنام الأفيال وتوقف المطر. بدأ النهر المتزايد في الهبوط وبينما هو كذلك اختار القمر مسارا بطيئا وتوقف؛ لينير طريقا عبر الخنادق المليئة بالطين المحروق وكأنه لحم دافئ.

الجنود الأشباح ينامون الآن. بطونهم منتفخة مثل الطبول تؤلمهم من كرات اللبان والخيش والرماد الذي يأكلونه - ويبتلعون بعض حفقات من الأرض ولحاء النخيل والصراصير، وأعمدة صابون كاربوليك فينول، والخشب القديم، والحبوب الشوكية، وأوراق الأشجار من أى نوع. إنهم حتى يعضون حواف أسرتهم الجلدية. ينامون غير مستجيبين للعالم، غير مستجيبين لجوعهم وغير مستجيبين أيضا لصوت الأقدام الحافية التي تزحف عبر الحصون.

جاوا الآن عبر طمي النهر: فرادى وأزواجا، فى مجموعات غير منظمة يندفعون وينطلقون ليكونوا فى المقدمة يلهثون من جهد تلاوة ألف صلاة. بتعويذات الحجاب لجلب الحظ معلقة بين أسنانهم والبنادق مغطاة بآيات من القرآن. بالسيف والرماح، وبنادق النعام القديمة، والتروس

المصنوعة من جلد وحيد القرن. يحملون الأعلام والندبات وشرائط القماش، يأتون صامتين وينظرون حولهم بينما هم يسيرون حتى ينالوا لمحة من ملاك يدور أعلى رؤسهم أو فارس على حصان أنيق يطفو في الأفق.

لم يسمعوا سوى صيحة البومة والتي تخبرهم أنهم ليسوا وحدهم بينما هم ينزلقون وتزل أقدامهم يفرسون الآن حتى كواحلهم فى الطين الذى يشبه الصلصال الذى يبقب ويسعل مثل حيوان قديم ضخم ينام. رجال عرضة للاختفاء دون سابق إنذار. وآخرون سقطوا جانبا يصرخون فى ألم حيث تعض أسنان النباتات الشائكة أقدامهم. تشرح فى جلد النعال واللحم الحى وتعوق الخيل والرجال سواسية دون تفرقة. إنهم ليسوا جسدا بل روحا، ليسوا عظما بل إيمانا. وهكذا جاوعا مثل فكرة واحدة متواصلة فى تيار ليس له نهاية ينطلق جنوبا متتبعاً غموض النهر إلى منبعه.

ينادى الآباء على أبنائهم فى هذه الليلة الحالكة السواد؛ خوفا من التضحية التى قد تتطلبها المهمة التى يقومون بها. عندما تأتى الساعة ستزداد الصواعق ويدمر المطر كل الأبنية ما عدا الخيام المتواضعة. وستشرق الشمس من الغرب والزلازل ستتهز العالم. وبهذا سنعرف قدوم الساعة. سيتصرف الناس كالجراد الذى يبتلع الضعيف حتى تحين الساعة.

طنين أجنحة الجيش يعلو ويشتد. مدفع رشاش ينطلق على بعد حيث يتم تبادل الضربات الأولى. سلت السيوف من الأخضر والسترات،

تشرح البطون وتملاً الجو بأنهار الدم. شفرات حدود السيوف تغنى وهى تشرح الشرايين بعذوبة وكأنها قصب السكر. الأكباد تتمزق والرئات تثقب، والأعصاب تقطع. هكذا تختفى الحياة - تبتلع نفسها، تحجب نفسها فى النخيل المتزايد للسهل الرطب المتلائى.

أتت الخيول، الأعلام الممزقة والأشرطة ترفرف، تسن أسنانها على حديدة اللجام. بعضلات مشدودة وأعين بارزة تهاجم. صيحات ركابها ليست من أجل هذا العالم ولكن طلبا للعالم الآخر. إنهم هنا لينظفوا العالم. إنهم اليتامى غير الشاكرين يسرون لقطع الروابط التى فرضها هذا التبنى غير المقدس.

ما كان إستراتيجية عسكرية مخطط لها أصبح حشدا من الرجال والصبية الذين يصرخون ويجرون بعيدا عبر الشوارع أعينهم مفتوحة وأيديهم ممتدة تضرب أى شىء يتحرك. تتملكهم أرواح الموتى والراطين والذين سوف يموتون الليلة، أرواح كل الأبناء والبنات، الأمهات والزوجات اللائى ماتوا أو نقلوا إلى أماكن أخرى فزعا من السلطان، من الخديوى، من السردار. هناك، المسلسل الرائع الآن أمامكم أسرعوا. البوابات مفتوحة. هرب الحراس. هناك ضوء يخرق تحت جرس الفجر الرمادى المتحطم ويعرفون من الذى يحوم كاللصوص على أطراف أصابعه إلى داخل كهف الجن. مروا بالمكان الذى عاش فيه الدجاج الذى تقف أقفاصه الخالية الآن مفتوحة، عبر المكان الذى ما زالت تسمع فيه خطوات الطواويس إذا أنصت المرء بعناية، عبر أشواك الصبار الطويلة الشاحبة وأوراق البوغنغفيلية الرقيقة، وأشجار الجوافة والنيم، التى تهتز

أوراقها وتصفّر عبر قرون الخروب وعبر اهتزاز ثمرات التمر هندی المستديرة غير الناضجة، حتى وصلوا إلى السلم الحجري الذي يقود إلى شرفة الطابق الأول، وهنا، هنا توقفوا ليحملقوا في وجوه رفقائهم.

أخذوا ينظرون بعضهم إلى بعض ورأوا فلاحين ورعاة وتجار وناس بسطاء. وقالوا: هكذا نحن. هذا ما فعلناه. لقد أتينا من أماكن بعيدة عن التخيل إلى هذه القصور الراقية، أماكن نادرا ما يراها الفرد أو يسمع عنها. لقد أتينا لنثبت حقنا.

ولكن في هذه اللحظة أتى صوت من أعلى. إنه صوت يعرفونه. أتى من خلف الحوائط التي بنيت لتجعلهم يظنوا خارجها، من وراء الحوائط والحراس، من الداخل، وهو الصوت نفسه الذي أعطاهم كل طفل ولد ميتا كل ماعز مريضة، كل قطرة من الحمى، كل عام صعب، كل ابن مفقود أو أخ سقط في المعركة، كل فرسخ يمشونه، إنه الصوت الذي يحدددهم ويقيدهم. ولذلك هبوا هبة رجل واحد ليحققوا الانعكاس على هذا الزجاج المشوه وهم يعلمون أنه ليس لديهم خيار، إن الاختيار سلب منهم قبل أن يولدوا قبل تسميتهم. صعدوا السلالم في اندفاعه واحدة دون توان هناك في الوهج الدخاني لمصابيح الزيت والتبغ، سحلية ثابتة في منتصف الطريق إلى أعلى الحائط، لا تتحرك.

شخص واقف يرتدى الملابس البيضاء هادئ ومذهول إلى حد ما وهم يتسلقون بعضهم فوق بعض ليصلوا إلى الباب، وكأنه كان ينتظرهم منذ شهور وفعلا كان كذلك. إنه أيضا يعرف هذه اللحظة لأنها أيضا لحظته. رفع يده مترددا، بشكل غريب سواء للأمر أو للتحية لم يكن ذلك

واضحاً. سألهم، طلب منهم، إنه قائدهم. ولكن كلماته كتمت. التراب ملأ فمه وأذانهم. بدا وكأنه يستدير بعيداً، فيما بدا أنه إشارة قلق. راقبوه وأسلحتهم معلقة تترنح إلى جنابهم. هذا هو الرجل الذى كانوا يخافونه لمدة طويلة جداً؟ هذه هى الجلبة الشريرة تكمن فى قلب الحيوان؟ كانوا ينظرون باستمتاع بينما هو يخطو بعيداً عنهم إلى الشرفة. العالم ساكن. النخيل لم يعد يهتز مع النسيم الرقيق. ثم خطا رجل إلى الأمام مستعيداً الغضب الذى أتى بهم إلى هنا وتبعه آخران. اندفعوا معا ودفعوا سيوفهم إلى الأمام. سحبوا الرجل الذى يموت وهو يئن عبر السلام فى نوبة غضب واحتقار ودفعوه ليلتف على السلام ويسقط متكوماً تحت أقدام الآخرين الذين كانوا ينتظرون.

الأجنحة داكنة اللون تمر بين الأشجار والسكينة تنزل عليهم وهم يحدقون مندهشين فى شخص الغريب التافه الذى ظل يؤذيهم لسنوات طويلة. وعبر الثقوب التى صنعتها السيوف التى اخترقت جسده تفر الحياة الآن منه وهى تهسهس .

بعيداً عبر النهر، فى تلك اللحظة سرت رجفة فى جسد محمد أحمد المهدي حيث يجلس فى انتظار الأخبار والابتسامات التى كان يراها الكثيرون تزين وجهه اختفت. يفتح عينيه ويغمضهما بسرعة وكأنه فى حلم، ويلمح بومة بيضاء وهى تطير بسرعة عبر الأشجار. كان يعرف بينما الظل يمر بقلبه أن الأمر انتهى.

٢١ - الخرطوم

٢٦ يناير ١٨٨٥

فى الفسق، مجموعة من المثلثين منشغلين بإلقاء أجسام فى المحرقة. أعينهم غائمة من التعب. تؤلمهم من الحرارة والرائحة النتنة. النار تستعر والخشب يقطع، الأخشاب تسقط من المنازل والعربات الكارو تميل إلى جوانبها. المدينة منقطة بتلك النيران؛ لأن من ماتوا وهم يدافعون عنها كفارا ولن يدفنوا فى اتجاه مكة. لم يرفع الرجال بصرهم عندما مر بهم شخص نحيف داكن البشرة وهو يقود حصان أبنوس ويتحرك ببطء. دون حاشيته وأعلامه. يتعرف المرء بصعوبة على أمير الأمراء. ولكنهم ينفذون أوامره والمدينة يتم إخلاؤها بشكل منظم بيت بيت وشارع شارع. تجمع النساء فى مكان والثروة فى آخر والطعام يتم إرساله إلى الثكنات العسكرية.

وجه نجومى كئيب وقلق رغم أن الأشياء سارت بشكل رائع. لقد ساعدتهم الفيضانات الأخيرة التى محت الحصون فى الجانب الجنوبى الغربى للمدينة. عندما دخلوها لم يواجهوا سوى مقاومة ضئيلة. بعد شهور من الاستعداد للأسوأ كان الأمر هبوط مفاجئ من السوء إلى البسيط: فى أماكن عدة القوات التى تدافع عن المدينة بدأت حتى فى حياكة الأجزاء الممزقة من ملابسها استعدادا للاستسلام. ولكنها ليست

مدينته، وبالنسبة له فالنصر له دائرة مفرغة. وكان المدينة تحمل شرا يلوث كل من يدخلها.

بينما يسير يعطى أوامر هنا وهناك مرت مجموعة كبيرة من الجنود الذين أسروا. كانت حالتهم يرثى لها، جلودهم منتفخة من أكل اللبان من على الأشجار. والأمر الساخر أنهم اكتشفوا طعاما كثيرا جدا مخبأ فى الجدران والحفرات تحت الأرض. الطعام الذى خبأه أصحاب المحلات والتجار، وخزن بعيدا فى منازل موظفى الحكومة وكأنه ليس لديهم أى فكرة عن مدى خطورة المحنة التى يمرون بها. وتساءل: "ما نوع هذا المجتمع الذى يعيش فى رخاء بينما الذين يدافعون عنه يكادون يموتون جوعا فى الشوارع؟" تسأل.

وصل رسول إلى جانبه، بحث عنه فى المدينة كلها. جعله نجومى ينتظر بينما سأل مجموعة من الأنصار الصغار الذين يقودون أسيرا مقيدا بالسلاسل. "إلى أين تأخذونه؟" بدا الصبية حائرين، وكان السؤال لم يخطر ببالهم. "ماذا فعلت؟" سأل نجومى الرجل الذى وقف ورأسه محنى ويداه مربوطتان خلف ظهره. قال: الرجل ببساطة: "أنا نجار". وجه نجومى كلامه إلى الصبية "كل الحرفيين وأى شخص له أى فائدة لنا يتم اصطحابه خارج المدينة إلى المعسكر. خنوا هذا الرجل إلى هناك وأعطوه بعض الطعام إذا كان جائعا".

خطا الرسول إلى الأمام وأوماً نجومى له ليقراً الرسالة. سينتظر المهدي كلمته قبل أن يعبر النهر. إنه حريص على زيارة قبر والدته وسيدخل المدينة عندما يكون كل شىء تحت السيطرة. وافق نجومى وأرسل الرسول فى الطريق إليه.

وهو يتحرك فى اتجاه النهر، توقف دقيقة ليتفحص بعض البيوت الراقية. ذكّر نفسه أن الحرب لم تنته بعد. حملة النجدة الحربية من القاهرة كانت منذ أقل من أسبوع. يجب أن يتعلموا إطلاق المدفع بدقة من أجل حماية المدينة.

رجل ضخّم له شارب كان يقف فى الشارع يصيح فى مجموعة من الرجال. حياه نجومى وسأله عن الأمر. كان هناك بعض القلق فى هذا القطاع، قال: الرجل القوى: وجدوا كيسا من المجوهرات والذهب تحت بئر سلم وعدة مخابئ للطعام. ضحك. الشىء المضحك أنه، قال أن الرجال: وجدوا دولابا مليئا بالخبز وسيأكلونه فقط بقليل من الزيت، محاولة للزهد والتقشف مثلما يفعل حبيبيهم المهدي. لم يشاهد طمعا بين رجال يعلم جيدا أنهم سرقوا جداتهم.

"إنه الروح" كُرد نجومى بشكل غير واضح "وهم الجسد". ابتسم الرجل الضخم وربت القائد الأعلى بحماسة على ظهره قبل أن يدرك خطأه وهمهم بالاعتذار. سار نجومى وهو يهمهم لنفسه " اللى يعيش ياما يشوف".

"وصل الآن إلى بوابة مقر الحاكم العام السابق المفتوحة. لقد تخيل كثيرا كيف يمكن أن تكون هذه اللحظة ورأى نفسه يتجه إلى سراى السلطان وسيفه مرفوعا فوق رأسه، وألف من الفرسان يمتطون الجياد من خلفه والسحاب يتكتل كالقطن مع الريح. ابتسم لنفسه. هذا الدخول البسيط فى صحبة جواده فقط مناسب أكثر.

الحديقة منظرها جذاب. ترك جواده لياكل العشب وبدأ نجومى يتسلق شجرة جوافة قوية ثمارها تتمايل بين الأوراق الخضراء التى تميل إلى الاصفرار. مثل طفل لبي نداءها وازن ساقيه وقفز للأغصان حتى ارتفع مع الاهتزاز المشوش للثمار المتراقصة. جعله الجهد الذى بذله يضحك. جلس ليلتقط أنفاسه وهو يتعلق بفرع فوق رأسه. يداه تؤلماه من الخشب المتموج. يقضم فى أول ثمرة ويملاً فمه طعم سكرى. هنا نفسه على حظه وأخذ يمزغ بسعادة لوهلة. ثم بدأ يحشو جوانب ملابسه بالثمار وكان فى طريقه للنزول عندما ناداه صوت: "لا بد أننى أخطأت السمع، ولكنى أعتقد أن الأمير أوضح أن أى شخص يقوم بنهب غنيمة سيتعرض للقتل".

سقط نجومى على الأرض بحانب مدنى وناولوه جوافتين. "لم تخطئ أيها الرجل العجوز ولكن فى هذه الحالة الخاصة أرى أنه من المناسب أن استثنى نفسى من اللوم".

تثاب الطباخ العجوز بشدة. "سمعت أبواب جهنم النارية تفتح".

قال: نجومى بصوت يشبه صهيل الخيل: "جهنم دائماً معنا". أوما تجاه بقايا المبنى أمامه. "ربما أتيت لترى بيتك القديم؟".

أشار مدنى بيده طلباً للصمت. وقال: وهو ينظر حوله: "ليس بصوت مرتفع هكذا". كان بعض الرجال يحملون أكياساً من مخازن القصر. كل شئ يمكن رفعه تم نقله. رجلان ينقلان أريكة طويلة ينزلان بها على السلم. نادى نجومى وهو يخطو بعيداً عن الأشجار. "إلى أين تأخذون

هذه؟". نظر الرجال إليه ثم نظروا بعضهم إلى بعض وكأنهم يسألون نأخذ ماذا؟ أشار نجومى بيده. "إننا لا نحتاج هذا النوع من الأشياء، لا تضيعوا وقتكم معها ابحثوا عن أى شىء مفيد: خرائط، أوراق ... إلخ وليس أثاثا. "بدأ الرجلان يصعدان مرة أخرى بالأريكة".

صعد نجومى السلم بعد أن تجنب بحذر بركة من الدماء المتجمدة. نسمة رقيقة هبت عبر الأشجار الطويلة ومرت بسرعة عبر الشرفة. سار على امتداد المنزل ثم عبر الباب المزدوج الواسع. هنا إذن تم مناقشة مصيرهم، تم إقرار كل شىء، الأوراق تتحرك مع النسيم.

كل شىء مزق إربا: اللوحات على الحوائط شقت، المنضدة قلبت، المصابيح كسرت. فأر صغير يزحف عبر الحطام، يتوقف هنا وهناك لاهثا يحاول أن يعرف فى أى اتجاه يسير. رفعه نجومى بحذر وعبر الحجرة إلى النافذة التى تفتح على النهر. تبعه مدنى صامتا ووقف الآن عند الباب وهو يتفحص الدمار. هز رأسه. آخر مرة رأى فيها هذه الحجرة كان العالم يدور فى اتجاه مختلف. همهم لنفسه: "لعل الله يهدينا".

"لم يكونوا حتى يعرفون أننا هناك" غمغم نجومى.

جذب نظره شيئا أسفل فى الأشجار الخضراء الداكنة. استدار واندفع بسرعة عبر الحجرة مسقطا الفأر المنزعج فى عجلته. نزل السلم وأخذ الممر ذا الأقواس الذى يؤدي إلى النهر. مجموعة من حوالى عشرة وقفت بجانب كتلة من اللحم ليس لها شكل محدد فى الطين. اثنان منهما

يركلانها، ويقلبونها مع كل ضربة. بينما الآخرون ينظرون. مشى نجومى بخطى واسعة إلى وسط المجموعة.

وسأل: "فكرة من هذه؟". حملت الوجوه القاسية مقطبة الجبين بتجاههم. "هل تعنوا أنكم تقومون بذلك دون فكرة، لماذا؟" لا إجابة. حاول نجومى أن يتحدث بهدوء ليحافظ على صوته متوازنا ولكن وقعت يده على مقبض سيفه وعرفوا أنه على استعداد لاستخدامه. قال: نجومى: "الفرق بين الرجل والكلب أن الكلب يعتقد أنه ليس لديه مسئولية عما يفعله أو لا يفعله. الرجل يعرف غير ذلك". ظل الرجال صامتين. نظر نجومى حوله إلى المجموعة باشمئزاز وقال: "عودوا إلى أى مكان يجب أن تكونوا به. إذا رأيت أحدا منكم مرة أخرى، سوف أقتلكم". اختفى الرجال بين الأشجار دون كلمة.

جاء مدنى من خلف حائط السراى حيث كان يقف ليراقب وقال: حزيناً: "إنه أمر سيئ" قال: حزيناً "سوف يرتد بالشر علينا". نظر نجومى إلى بقايا الجسد تحت قدميه. "لقد طلب منى المهدي أن أحضره حياً".

همهم الطباخ العجوز وهو ينظر بعيداً "لم يكن رجلاً سيئاً". هذه هى الحرب أيها الرجل العجوز" بصق نجومى على الأرض وثنى كتفيه. "الآن تعالى وساعدنى على دفنه بسرعة".

حملاً معاً الجثة عبر الأشجار إلى مكان بارد وخال.

حفرا وهما يحفران الأرض بسيف نجومى واستخدما يديهما
وأصابعهما حتى حفرا حفرة عميقة فى الأرض. ألقيا بالجتة البالية فى
الحفرة وغطياها بشكل جيد.

"لا كلمة واحدة عن هذا الأمر ولا حتى إلى روح".

سارا حول الحديقة وعبراها. نظر الطباخ إلى الشرفة حيث كان
يسير كثيرا من قبل. وسأل: "وماذا عن هذا المكان؟ ماذا سيحدث له؟".

هز نجومى كتفيه مستنكرا. "يجب أن نحرقه ونسويه بالأرض"
صعد فوق صهوة جواده. "هذا مكانهم أيها الرجل العجوز والصحراء
لنا".

تلاشت المدينة بين الحطام والنسيان. عبر النهر المهدى يزرع أعلامه
فى الرمال. إنه العام الأول. العالم أعيد تسميته مرة أخرى.

٢٢ - أم درمان

٢٢ يونيو ١٨٨٥

جاءت الساعة، كما أنها لا بد وأن تأتي لنا جميعاً. الفئران تأكل خلال الطين لتصل إلى حزم القش المخبأة في الحوائط.

يصرخ في الضوء الضعيف. عيناه على الظلال المتحايلة في الخيال الدخاني لمصابيح الزيت. الفئران ستقرض عظامه. الدود سوف يزحف في مقلتي عينيه.

اعطنى علامة حقيقية، شيئاً ألسه.

"أين عبدالله؟" أين أخى؟".

الرجال الذين تجمعوا حول السرير جفلوا عندما سمعوه يتحدث. تداولوا فيما بينهم. مثل باخرة اقيانوسية ضخمة تعود إلى السطح من الأعماق، هبطت لحظة صمت طويلة على الحجرة. أصر على الحديث. قرر الرجال ألا يفعلوا شيئاً. جلسوا، بالنسبة لهم الصمت مريح، إلى درجة الاطمئنان.

مرة أخرى سرت رجفة عبر الجسد النحيف الذي يرقد تغطيه ملاءة رقيقة على سرير منخفض روابطه غير محكمة. شعر الرجال الذين يراقبونه بالقلق، تهيجوا وأخذوا يهتممون. مد يده وتعلق بأقرب يد له.

"عبد الله" تأوه، ولأنه يبدو أن الأمر يريحه لم يقل الرجل الذي يمسك المهدي يده شيئاً.

ابتسامه خافتة تومض بضعف عبر الوجه المتجدد الذي أصبح جلده فجأة متهدلاً وجافاً مثل الورقة القديمة. أصابه العجز في ستة أشهر أكثر مما يحدث للناس في ثلاثين عاماً. بالنسبة للرجل الذي يمسك اليد الضعيفة، وكأنه قد يلجأ إلى الهواء ويطير في أى لحظة. ينبض مثل عصفور صغير في راحة يده.

قال الرجل بصوت يتضاعف: "حينما كنت صبياً صغيراً"، فحاول ثلاثة من الرجال أن يمنعه من الحديث، وأن يخبروه أنه بحاجة إلى كل الراحة التي يستطيع الحصول عليها، وأنه لا يجب أن ينهك نفسه في حديث لا فائدة منه، ولكن أحداً منهم لم يتكلم.

تنهد الرجل تنهداً طويلة واستطرد قائلاً: "حينما كنت طفلاً صغيراً في لاباب Labab، كانوا يريدون أن أعمل في المراكب، وأن أقطع الأخشاب بالفأس وأسوياً بفأرة النجار، وأن أستخدم المطارق"، بدأ الصوت وتوقف. الكلمات تصدر بصوت خفيض أجش أعلى قليلاً من صوت النقيق. يميل الرجال إلى الأمام، أعينهم مثبتة بشكل مقصود على بعضهم. حتى يصبحوا يقظين لفهم الرسالة من وراء الحكاية. "لقد أخبرتهم، قلت: يداي ليست مثل أيديكم". ضحكوا على وقالوا لي: "أخانا الصغير يداك سوف تصبح خشنة وقوية مثل أيدينا". قلت: لا هاتان اليدان لم تخلقا لهذا العمل إن لهما غرضاً آخر". عاد الضحك إلى همس خفيض. "كنت أعرف" وإيماءة من الذقن الرفيع المحدد، مصراً ووثاقاً من

نفسه، ومضة من الشخصية القديمة. "حتى حينئذ كنت أعرف" واصل حديثه.

"رفضت تناول الطعام يومين". تحركت الشفتان الجافتان، ولكن لم يصدر عنهما صوت. حاول أن يبذل شفثيه. "بعد ذلك قالوا: إنه ليس من الضروري أن أعمل فى المراكب".

صمت مرة أخرى.

الرجال حاضرون لا حول لهم ولا قوة. لم يقولوا شيئاً. الظلام يزحف عبر شقوق العنكبوت الذى يجرى بأسلوب مجنون أعلى الحائط.

سقط فى النوم والليل يدخل ببطء، فى اتجاه النهار الذى لن يأتى. فى الخارج، المدينة، التى تحمل الآن اسمه حيث أعلامه التى ترفرف فى نسيم النهار، تحبس أنفاسها. حتى فى نومه لن يدعه عقله يرتاح. علامة، ليس أكثر من أى شىء آخر.

اختفاء الملائكة. الفئران تسن أسنانها الصغيرة فى الحوائط، وهى تحفر طريقها خلالها. هناك فوضى عند الباب والحكماء الثلاثة، لا يتخلون عن الانتباه، ويشعرون مثل المجرمين. الحجرة الصغيرة ازدحمت فجأة. يبدلون أماكنهم بعضهم مع بعض باحثين عن مساحة دون أن ينطقوا بكلمة. الحكماء والعلماء ورجال من العصور الغابرة يشقون طريقهم عبر الباب. مثل الصبية السعاة الذين يتم إرسالهم إلى السوق لإحضار خبز. على رأسهم الثلاثة: الخلفاء - الأعلام الأحمر والأخضر والأسود. الصمت الذى جاؤا به فظيع. إنه صمت هؤلاء الذين يخشون أن يتركوا وحدهم، صمت له عبء سيلقى على عاتقهم.

دون إنذار أفاق من إغماعته مرة أخرى. العناكب تغزل شباكها.
"بابا؟" سأل وهو يظن خطأ أن عبد الله والده.

عبد الله يبكي. عالمه يسقط. يميل إلى أسفل ويهمهم "إنه أنا".

"أخي؟" الأصابع الضعيفة تمتد في الظلام محمومة وتتشبث بقماش
أحد الأكمام. "أنت وأنا يا أخي. أنت وأنا...".

"سيدي كلنا هنا: على واد هيلو ومحمد شريف. كلنا معك". الصوت يرتجف بالمشاعر، والملامح الخشنة التي تميزها ندبات الجدرى ترتجف بطريقة لا يمكن السيطرة عليها. الخيط الرفيع الذي يربط العالم بعضه مع بعض على وشك الرحيل بين هاتين اليدين الكبيرتين اللتين نسجتهما الحبال والجلد. عبد الله يداه يدا راع وقدماه قدما بدوى متجول لا تعرف سوى الأرض الخلاء. في هذه الحجرة جسده مثل لعنة، ثقيل مرهق ولا يحتمل. يتوق إلى الخفة، إلى الراحة. يبدو أنها أطرافه تتضخم لدرجة أن أقل حركة تشعره بالارتباك والثقل. الأثر الوحيد للفضيلة في حياته مستلقيا يموت أمام عينيه.

الصوت يهمس: "ليس لدى إخوة، فقط رفقاء".

عبد الله يوميء عبر كتفه "ماء" يحثهم. "احضروا له مشروباً".

"عندما كنت صبياً" قال: الرجل الذي يموت: "اعتادت جدتي أن تقول لي عندما أعود إلى المنزل بعصفور اصطدته، اعتادت أن تقول: "إذا تركت العصفور يطير، سوف يسقيك الله ماءً بارداً عندما تصل إلى الجنة". الصوت يخفت تدريجياً ويعود. أصابعه تتشبث بيد عبد الله.

"من أجل أن تكسب شيئاً لا بد وأن تتخلى عن شيء" ولهذا تم اختياري الآن".

الآن اضطر عبد الله إلى الحديث. دخان من المجرمة علق بحلقه وجعله يسعل بشدة. بين الجمرات والبخور يلقون صفحات من القرآن الكريم. الحجرة تملؤها علامات شرف رمادية للكلمات الميتة، ضبابية ومتحيرة. "نحتاج أن نعرف" يبكي وتسقط الدموع على اليدين الكبيرتين فى قطرات كبيرة. "من سيكون؟" يشعر بالآخرين خلفه، يضغطون على ظهره، أنفاسهم فى أذنيه وأعينهم على رقبتة. "أخبرنا يا سيدى من سيكون وكليك؟ من سيحل محلك؟ من سيكون خليفة الصديق (الصديق)؟" (*).

يهمهم الآن، يهذى محموما، يحرك رأسه من جانب إلى آخر وكأنه يهز عفريتاً من صدره. جبهته باردة كحجر فى قاع النهر. يحاولون الاقتراب منه أكثر.

"أنت وأنا يا أخى معا سنركب الجياد إلى مكة والمدينة. سوف نصلى جنباً إلى جنب. سيسقطون أمام سيف الحق القوى". وبدأ يضحك، صوت طويل ينتابه يجعل جسده يهتز ويحول دماء الحاضرين إلى دماء باردة. الضحك يتناقص تدريجياً وحينئذ انفتحت الأعين وانسحب كل شخص فى الحجرة مفزوعاً.

(* إشارة إلى أبى بكر الصديق خليفة الرسول عليه الصلاة والسلام. (المراجع).

"عزرائيل؟ ... لا... ليس بعد، ليس مبكرا هكذا". ثم بأنين،
"ماما...؟" وسقط إلى الخلف ورقد ساكنا.

انتهى الأمر.

مرت لحظة وكأنها الدهر. لم يجرؤ أحد على الحديث حتى خطا أحد
الوجهاء - قصير قوى بأذنين تندفعان إلى الخلف كالبومة - إلى وسط
الحجرة ورفع راحتي يديه إلى أعلى وبدأ يتلو الكلمات الأولى من الصلاة.
لحق به الآخرون، وشفاهم تتحرك، وأعينهم مثبتة على السرير.

"من هو الذي حدد اسمه؟" سأل محمد شريف بعد فترة. لم يقل
عبد الله شيئا، لم يستدر حتى لينظر إليه. الآخرون يغيرون مواضع
أقدامهم ويتحدثون في همس خافت. تندفع العيون كالسهم نحو الحجرة
ذات الضوء الضعيف محاولين أن يقدروا إلى أين ستكون التقسيمات.
من يدخل ومن يخرج.

أخيرا، كان صوت الوجيه صاحب الأذنين المدببتين الذي قرر
الأمر. "سمعته يقول شيئا متعلقا بك يا خليفة عبد الله. وهذا كان كافيا؛
لأنه لم يكن يشك أى امرئ فى ذلك. جاء صوت آخر يقول: "كان يحبك
مثل أخ".

وشعر عبد الله بالحشد بدأ يتجمع حوله. استمع إليهم عندما بدعوا
يمتدحونه ويحثونه على الاستمرار فى الكفاح. همست الأصوات:
"بالتأكيد إن لله حكمة فى هذا الأمر". "والأمر يرجع لك يا عبدالله أن
تكتشف ما الحكمة من ذلك".

رفع عبد الله يده وأفسحت الأصوات له مجالا. "سمعته يحكى" بدأ يتكلم "عن حلم أتى له فيه الرسول وأخبره أنه مطلوب بشكل ضرورى فى العالم الآخر وأنه يجب أن يترك مهامه هنا". وتدفتت الكلمات بوضوح وبدون تردد تأتى من مكان ما داخله. "والرسول عليه صلاة الله وسلامه قال: إنه كما أن محمد أحمد هو خليفة رسول الله فعبد الله التاعيشى هو وكيل المهدي المنتظر".

وهكذا كان الأمر. علامة المعارضة الوحيدة ترقد دون حديث فى عيني محمد شريف.

دفنوه حيث يرقد. بنوا حائطا من الطوب حوله ليحفظ السر فى الداخل والعناكب فى الخارج.

الجزء الرابع

الخليفة الجديد

٢٣ - أم درمان

١٨٨٦

منذ أن أظهر الخليفة عبدالله ميلا إليه، وجد حاوى أنه يستدعى بشكل متزايد؛ ليؤدى دورا فى أمور الدولة الجديدة. ظل سبب هذا الإصرار غامضا. مر عام على وفاة المهدي. العتبة البيضاء البيضاء الرائعة لقبره ترتفع بشكل مهيب فى المدينة وهى تضىف جوا من التصديق والثقة على الأحداث. غموض موته المفاجئ يظل دون تفسير. الخليفة عبدالله، كما عرف حاوى مباشرة، شخص مندفع يفضل الثقة بفرائزه أكثر من عقله. منذ وفاة حبيبه وأستاذه، حياته قد تكون مضطربة من الداخل، ولكن من الخارج كان صارما ولا يغفر، طالبا احترام المهدي بأسلوب مختلف. فى الأيام التى تلت الساعة المصيرية جعل عبدالله كل امرئ يقسم على الولاء. كثيرون نصحوه بألا يفعل ذلك؛ لأنه مبكر جدا بعد موت الرجل الذى ألهب وبارك البلاد كلها بوجوده. قال البعض: إن الأفضل مواصلة الأمور لفترة دون إعلان وفاة المهدي، لأن مثل تلك الأخبار قد تفقد كل شىء استقراره. لأنها تأتى بعد ستة أشهر فقط من سقوط الخرطوم. تمت السيطرة على الاعتراضات، وقرر

عبد الله أن إرسال أخبار وفاة المهدي واسم خليفته لكل مكان في البلاد أمر له أهمية قصوى.

في هذا الوقت اختير حاوي ليشرف على الأخبار المطبوعة. أوضح عبد الله سبب ذلك: "لديك تفكير غريب يا صديقي" قال: الرجل الضخم الجسم، واضعا يده الكبيرة على كتف حاوي: "تستطيع القراءة، أليس كذلك؟".

"بالتأكيد أنا لست مؤهلا لذلك".

"أوه دائما لديك اعتراض!". قال: الخليفة شاكيا. العينان المستديرتان المنتفختان دامعتان وقلقتان. كان يوما حارا وحببات العرق تتدفق على رأسه الحليق. كان يشبه عفريتا ينبثق من نهر من البخار. "إذا كان علي أن أتحدث بما يدور في ذهني، فإنني أحتاج إلى رجل يستطيع أن يفهمني". هز رأسه وحك جبهته بإصبع لتجف. "أحيانا أذهب بعيدا جدا. سوف تخبرني بما تفكر فيه ولكن لا تحكم علي، مثلما يفعل بعض الآخرين. إنهم لا يعرفون معنى أن تأخذ الفرصة، لم يفعلوا أبدا أى شيء غير عادي. أنت العالم الوحيد الذى لديه من الثورة ما يؤهله لهذه الوظيفة".

وكما تتطلب مهمته الأولى في هذه الوظيفة الجديدة كان على حاوي أن يساعد عبد الله على كتابة رسالة إلى أهله في دارفور، موضحا لهم الخلافة. "كل الأسرار المقدسة تجمعت في حرف الباء. والله وضع هذه العلامة النبيلة في رجل كما قال: المهدي. أتى أخ لى وأشار إلى وجنتى اليمنى. وتجمع آخرون حولي واكتشفوا الحرف هناك".

لا يهتم عدد المرات التي تم فيها استدعاء حاوى إلى منزل الخليفة، لم يهرب أبدا من اضطراب فى معدته والذي يخبره أنه ليس حياته فقط المعرضة للخطر، ولكن أيضا شيئا أكثر أهمية، شيئا يمكن وصفه بأنه غير ملموس معرض أيضا للخطر. وجد الرجل الفظ لا يخلو من جاذبية، اجتماعياته تثير الإعجاب. لا يمكن التنبؤ بتصرفاته فهو عنيف وداهية جدا وبطريقته الخاصة أمين جد. حجات المنزل، وهو الأكبر فى وسط المدينة، كانت تتغير من أسبوع لآخر، كلما خطرت له فكرة جديدة. بدا مناسباً بشكل مدهش أن رجلا ينحدر من البدو المتجولين فى الصحراء الغربية يكون مهووسا إلى هذا الحد بالأثاث والأشياء الثابتة والمنابض والكراسى والسرج والسجاجيد. كان يغير رأيه بشكل متواصل ويأمر النجارين بالبده فى شق شىء جديد له وقطعه. عندما يحضر زائر من بلاد بعيدة، يتم استدعاؤه ليبدى رأيه فى الصنعة. كيف، تساعل، يمكن أن يقارن الإنتاج المحلى بهذا الذى يرى فى القصور فى الشمال والشرق الأقصى؟

الوجه فى منزل الخليفة تخضع أيضا للتغيير المستمر. الخدم الذين يجيبون الباب ويدخلون حاوى نادرا ما يراهم هم أنفسهم فى زيارتين متتاليتين. غالبا ما يرى أطفالا يجرون فى الفناء خارج البناء نى الطابقين، ولكن حاوى لا يرى أبدا الأطفال أنفسهم. ليس لديه فكرة كم امرأة تنتمى إلى المنزل، والمكان دائما يجتاحه تيار من الأقارب القريبين والبعيدى الذين جاؤا من دارفور.

كان من الواضح لحاوى أن وقوفه بين مجموعات العلماء الثابتة جعله صديقاً حميماً للخليفة، أميناً وجديراً بالثقة. إنه منعزل فى الواقع. وليس للآخرين علاقة به. إنهم يجتنبونه مثل المنبوذ. لم يشنق بسبب اتهامه بالردة عن الدين طوال السنوات الماضية، ولكن فيما يخص الحكماء ومجالس المستشارين، فهو قد شنق.

الأحلام النبوية مثل ذلك الذى أوحى إليه برسالة دارفور، بدأت تحدث بشكل متزايد، وجد حاوى نفسه يتم استدعاؤه فى كل ساعات النهار والليل ليأتى ويدون ما حدث. حتمياً التفاصيل ستتغير عندما يجهز حاوى لفائف أوراقه وريشة الكتابة والحبر. بينما الخليفة يتحرك إلى الخلف وإلى الأمام خلفه، طالبا من الخدم أن ينهضوا من النوم ليحضروا له لبنا دافئاً بالعسل. عندما بدأت عملية الكتابة تقدموا باحتراس شديد وهم يجدون الكلمات المحددة التى يحتاجونها؛ لأنه أمر ضرورى ألا تخذل هذه الإلهامات أو التنبؤات أى شخص.

بعد ذلك يرسل حاوى مباشرة إلى المطبعة ليوقظ الذين يقومون بالطبع من أسرته. تشعل المصابيح الزيتية التى تطلق الدخان بينما الصبية الذين تمتلئ أصابعهم بالحبر يزيتون الآلات ويبدعون فى تحريك المقابض الثقيلة لتدور حتى تنطلق الطبقات الصفراء من بين آلات الطباعة لتشق طريقها فى كل ركن من البلاد. الخليفة حلم وكل امرئ سيشاركه هذا الحلم.

"أنا الخليفة، بوضوح. لا أحد كان أقرب له منى. الشخص الضخم يطوف بحجرات ديوانه. تغضن وجهه إلى ابتسامة. "لماذا قارننى بأبى بكر، رفيق الرسول محمد. هل تعلم ذلك؟".

همهم حاوى "لا يا سيدى"، رغم أنه بالطبع سمع بذلك يقال: فى العديد من المناسبات. ولكن فى العام الأخير لم تكن الأمور سهلة بالنسبة لابن التاعيشى. كان هناك العديد من الاضطرابات فى الداخل وأيضا على الحدود الضعيفة للدولة الجديدة. جلس الرجل القوى إلى جانب حاوى تحت الساتر. قمم النخيل الباسق تتموج فى الريح العاصف، مثقلة بالتراب الأصفر الخفيف.

همهم الخليفة "أعرف أن هناك خلافا". "بعض إخواننا غير راضين وبخاصة محمد شريف".

"من الطبيعى أنه كان يجب أن يكون الخليفة" أشار حاوى "إنه من أسرة المهدي".

ضرب عبد الله بيديه على ركبتيه. "إنه صغير جدا على أن يفهم".
"هل تعتقد أنه يتآمر ضدك؟".

عبد الله أمسك حاوى من ذراعه ومال مقتربا منه. الريح تشتد وفناء المنزل أصبح خاليا، وأغلقت كل النوافذ. "أراد الله أن يسير الأمر هكذا" بدأ صوت عبد الله يتلعثم "الله... خطط الأمر لنا بهذه الطريقة. لقد أراد لنا أن نمر بوقت من الآلام" أصابعه تنغرز فى ساعد حاوى. "هل يعنى هذا شيئا لك كعالم؟ هل يمكن أن تكون هناك علامة فى كل ذلك؟".

تساءل حاوى لماذا لا يدخلون إلى المنزل لمناقشة ذلك. وقال: وهو يسعل: "أنا حقا لست خبيرا".

وقف الخليفة متذمرا لا يصبر على الأمر. وسأله بفضاظة: "إذا لم تكن أنت، من إذن؟". "هؤلاء الحمقى الخرفون العجائز من العلماء؟". أراح الفكرة جانبا بضربة من يده. "لا" هز رأسه. "لا نستفيد من هذا التفكير الساذج إنهم ينظرون إلي كراعٍ بدائي. معظمهم كانوا ضدنا منذ البداية". نظر إلى النافذة المفتوحة للديوان، التي يملؤها الضوء والسماء "لا" همهم بصوت خفيض: "إنه وقت التغيير. إنه وقتنا".

٢٤ - أم درمان

١٨٨٧

على عكس مهامه ككاتب ووظيفته فى المطبعة، كان كرسى حاوى فى مجلس أصحاب الرؤية مريحا راحة تامة. لم يكن معظم الوقت يستدعى ليقوم بأى شئ، ما عدا المشاركة، أن يجلس فى مكانه ويستمتع لأية أفكار يتم طرحها. اتسع المجلس مع الوقت؛ لأن كل شخص كان يريد أن يكون هناك من يمثل أهله. فهناك الحالمون كثيرو الرؤية والعرافون والمتنبئون وأصحاب الأفكار الرومانسية والمتجمون والمتنبئون بالطقس ومحللو مبادئ العلوم والعداؤون وصانعو المطر وضاربو الودع. كانوا يطلقون على أنفسهم مجلس الرؤية. اجتماعهم الأول عقد فى خيمة الخليفة منذ حوالى عامين، فى الصيف الحار قبل سقوط الخرطوم.

الاجتماعات تعقد داخل المجمع المركزى فى الفناء المفتوح خارج مكاتب حكومة الخليفة. تحيطهم من كل جانب المباني البسيطة المصنوعة من الطوب اللبن التى يجلس فيها الموظفون والقضاة نهارا. ما عدا القضاة، من المدهش عدد الوظائف الحكومية التى يشغلها الأفراد أنفسهم الذين كانوا يشغلونها أيام الاحتلال التركى. هؤلاء الموظفون يحملون ثقل السلطة أكثر مما يمكن أن يحمله أى جيش. فى المساء مع النور المنبعث من النجوم و نار موقد صغيرة، يهمس أعضاء المجلس كل واحد إلى الآخر احتراما للحوائط الصامتة غامقة اللون التى تحيط بهم.

"إخوانى، إخوانى!" صفق الشيخ بلدى بيديه طالبا الانتباه. مجموعة الصوفيين والعلماء (لا يمكن أن تحتشد مجموعة أكثر تنوعا من هذه سواء للمعرفة أو للضرورة) بدأت تستقر. الشيخ بلدى كان رجلا ضئيلا متفاخرا يحاول أن يخفى ضالة معلوماته بالتعصب. يأخذ نفسه بشكل جاد جدا ويميل إلى اعتبار أى عناد أو جموح تفاهة شخصية، ببساطة لأنه كان قد تم انتخابه كرئيس. رفع يديه عاليا فى مناطق عمل الجمرات. "إخوانى لدينا قضية مثيرة وهى التى حيرت أذهان أفضل العلماء والأطباء فى البلاد". نظر حاوى إلى وجوه الأقران من حوله. هل كان الأوحد، فكر مع نفسه، الذى تضايق من الأسلوب المبالغ فيه للشيخ المتفاخر بأهمية مهام هذا المجلس؟ السبب الوحيد لوجودهم وهو الذى يدركه أى امرئٍ لديه فهم عام، هو قرار تم اتخاذه منذ سنوات استحثته اللحظة كمحاولة لإرضاء الزعماء المحليين ومخاوفهم من المجهول. إن الخليفة نفسه يشعر بالارتباك؛ لأنه كان له علاقة بهم ويتظاهر معظم الوقت وكأنهم غير موجودين. إنهم هيئة استشارية ليس لها سلطة حقيقية. يتقابلون، استنتج حاوى منذ زمن، من أجل أن يشعروا بالزهو.

"هذه الفتاة ولدت وتربت فى بيت دعارة وسكر. لم تتلق أى تدريب بناء أو دروس فى الأمور الدينية. أشار الشيخ بلدى إلى حارس فى مدخل الفناء. كان أعضاء المجلس يتحدثون كل واحد إلى الآخر. "يقال: إنه يستحوذ عليها جن عنيد وشرير جدا". أدخل الحارس فتاة ضئيلة نحيفة ترتدى أسمالا بالية سوداء إلى الفناء. "أنا متأكد أنه مع فهمنا جميعا لمثل هذه الأمور يمكن أن نشفى هذه الفتاة من أى شئ يمرضها".

طلب من الفتاة أن تقص حكايتها، وهو ما قامت به ببساطة وصراحة. وجد حاوى نفسه يميل إلى الأمام ليستمع إلى كل كلمة. بدت ضئيلة وخفيفة كالعصفور. استعادت المعاناة التي تحملتها فى صغرها وذكرت رحلة طويلة تصف كيف تركت منزلها. أخبرتهم عن صبى من قوات الخديوى المفزعة الباش - بوزوك. قصتها غير العادية تصنع شبكة كالأوراق على سطح النهر. بدأت تتحدث عن كيف أحببت ركوب المراكب والاستماع إلى الريح والشعور باندفاع الماء من تحتهم.

أخبرتهم عن وصولها الخرطوم منذ شهر طويل. عندما هبطوا المدينة قيد الصبى بالسلاسل وأخذ بعيدا وتركت وحيدة فى الشارع. أغلقت فى وجهها بوابات الثكنات على الرجل الإنجليزي الذى كان يود أن يحبها. عندما رأى الحوائط الحجرية العالية والبنادق أصبح يشعر بالخزى منها. ابتعد عنها ببطء وهز رأسه بالرفض عندما سأله الحارس هل يدخلها. وبينما اهتزت الأبواب الكبيرة معا رأته من خلال الفتحة الضيقة فى الضوء اللامع، خفض رأسه وسار بعيدا عبر الغبار، وملابسه أسمالا بالية، نحو مجموعة من الضباط الذين انتظروا فى ظل الشرفة فى الجانب البعيد من فناء العرض. كانوا يبديون قساة متجهمين بل أغبياء فى ملابسهم المتيبسة التى تعوق الحركة. الأبواب العالية أغلقت على الحياة التى كانت قد بدأت تحلم بها لنفسها.

انجرفت عبر المدينة بسرعة تكاد لا تلمس سطح الأرض. ليس لديها شىء. كانت تنام فى الشوارع، تحت أشجار الحدائق، إلى جانب النهر حيث الطيور تغزل أعشاشها فى النخيل. تشخذ الطعام فى السوق.

والناس يشفقون عليها . قبل تحرير الخرطوم سلمت لمباشى كرية فى الجيش وهو الذى حبسها فى حجرة فى منزل صغير ملئ بالسيدات الذين حبسوا لتسليحة القوات . كان المنزل نفسه بسيطا جدا حوله فناء مزين بنخلة صغيرة وفتحة فى الأرض يملؤها الماء وسمكة ذهبية صغيرة تعوم وهى تتلألأ فى الضوء . المكان جميل ولكن كل أسبوع يفتح الباب ويسمح لهم بدخول حديقة على النهر تثيرها الأضواء وتزينها فوانيس ورقية ملونة وترى الألعاب النارية ومجموعة لعينة من الموسيقيين الذين لا يسمعون النغمات ، يسرون وهم يعزفون على الآلات النحاسية والكمناجات والسيدات يقفن قريبا تحت الأشجار وينتظرن عندما يشعر الضباط بالثمالة التامة ليعانقونهم . معظم الرجال المحترمين غادروا منذ مدة طويلة ، الباقون هم اليائسون الذين ليس لهم مكان آخر يذهبون إليه . وهم الذين أتوا إلى هنا ؛ لأنه ليس لديهم خيار . الرجال المطلوبون بأسماء أخرى لأنهم ارتكبوا جرائم فظيعة فى مدن بعيدة . الموظفون المحتالون والمراهقون المحبون والقتلة والمغتصبون والرجال ذوو القلوب الشريرة حبال الشنق المحترقة تلتف حول رقابهم وشرائط الخيانة السوداء ثبتها حول قلوبهم القادة المكلفون بتنفيذ حكم الإعدام ، وكل منهم لديه أسرار . بعض الفتيات داعرات ماكرات تعلمن هذه المهنة فى بيت الدعارة الشهير سلامات الباشا . أخريات مثلها أتوا من أماكن أبعد . بعضهن حتى أصغر سنا منها : فاغرات الأعين وفزععات مما ينتظرهن . بعضهن فقدن عائلاتهم أثناء الرحيل أو تم القبض عليهن وهن يسرقن حفنة من الذرة أو بعض التمرات فى السوق . على كل حال فقد انتهى الأمر بهن فى مكان السيدات الذى أكدوا لهن أنه أفضل من السجن .

وعدت نفسها أنها ستهرب عند أول فرصة. لم تكن تدرى إلى أين تهرب بالضبط، ولكن بشكل ما سوف تقوم بذلك. قررت، وهى تستلقى تحت ملازم أول من سلاح المدفعية ينخر وهو مبلل بالعرق وتصدر منه رائحة البصل والسمك الميتان أن أى شئ سيكون أفضل من ذلك.

مثل هذه الأشياء، رغم ذلك، لا تتقدم عبر أقصر الطرق وإلا أين سنذهب جميعا؟ وبعد وقت ظهيرة غريب ملأت الحجرة الصغيرة رائحة ماء القناة الراكدة فى المكان الذى كانت تعيش فيه، استدعاها سانجاك من المشاة لتؤدى فعلا مخزيا مع إسكندر كلبه المهجن نى العين الواحدة. كان الكلب بريئا تماما من الموضوع وربما انزعج من الفكرة مثله مثل الفتاة، التى قررت أن هذه هى النهاية. قبل أن يعرف المهجن الحائر أين هو، رفعت الفتاة مجمرة فحم وبخور وبعثرتهم على السرير مما أشعل النار فورا. امتلأت الحجرة بالدخان والصرخات بينما ضرب السانجاك بيديه يحاول أن يطفىء اللهب الذى أمسك به. وقفت نون فى الجانب البعيد من الحجرة، حيث النسيم الذى امتص من خلال النافذة أبعد الدخان عنها وكانت تراقب بينما الرجل يترنح ويسقط، وجده يطفو من جسده وهو يحترق.

نبهت الصرخات الموجودين بالمنزل ولكن نون أخبرتهم أن يظلوا بعيدا ولأنهم لا يودون التدخل فى متع الضابط الحسية لم يفعلوا شيئا بل وقفوا بالخارج وأذانهم ملتصقة بالباب وقد تجعدت أنوفهم من الرائحة الغريبة، حى فتحت أخيرا نون الباب وخرجت. سألت الفتيات لماذا، لم يكن الرجل قادرا على النهوض من السرير المحترق؟ نظروا إلى

نون التي هزت كتفيها بلا مبالاة. ماذا عرفت عن ذلك؟ ثبتت مكانها من الخوف غير قادرة على الحركة. بقية القصة لم تظهر للعيان رغم وصول الجنود بأقدامهم الثقيلة كالعادة وهم يسقطون الأشياء أثناء سرعتهم الخرقاء، يجرون هنا وهناك وهم يهاجمون ويلعنون في الفناء الصغير. تم اصطحابها بعيدا. قال بعضهم: إنه يجب أن تحاكم كساحرة لولا أن السلطات فكرت في أن هذا الأمر من الصعب قليلا تسجيله في محاضر جيش الخديوى، ولذلك أخذت إلى مستشفى كان في الحقيقة سجنًا للنساء اللاتي إما فقدن عقلمن أو لم يعدن جميلات أو شاببات وهنا أخبروها بأمر الطفل الذي تحمله وهو أمر كانت تعرفه.

وفي هذا المكان الفظيع كانت تعيش تحت رعاية الأب فنتورى، وهو رجل لطيف عيناه تتدليان من جانبي وجهه وتحملان ابتسامة حزينة. أخبرها أنه سينقذها. تحدث إليها عن المسيح وأراها كتابا مغلفا بغلاف جلدى به رسومات يدوية عمرها أكثر من مائة عام (رفع إصبعه ليربها المدة الزمنية). كانت الرسومات تظهر المناظر الدينية. ولد الطفل تحت نجمة لامعة مثل المهدي ونجمه المذنب. فكرت. الحكماء الثلاثة (مثل الخلفاء الثلاثة). الرجل على الصليب. لم تكن تهتم كثيرا بالدين، ولكنها أدركت أن الأمر مهم بالنسبة للقسيس وكانت تحب صور الرضع البدناء ذوى الأجنحة الذين ينفخون الأبواق.

أخذها الأب فنتورى إلى الكنيسة مع بعض النساء الأخريات يصطحبن عدة جنود؛ لكى يضمنوا ألا يهربن أو يتصرفن بطريقة غير لائقة. كانت الكنيسة باردة ومظلمة والحوائط الحجرية تشعر بالراحة.

رائحتها خشب مطلى وتراب وهي الرائحة التي تخلت الجوانب ودعمات السقف المرتفعة. علمها كيف تصلى. لصقت يديها معا وركعت عندما طلب منها ذلك. كانوا يأكلون جميعا وجبة بسيطة من الخبز وعصير الجوافة المكبوس وجبنا أصفر جاف أعده الأب فنتورى بنفسه. أحببت نون هذه النزعات، لأن القسيس ذا العينين الحزنتين كان الإفرنجى الوحيد الذى لديه ما يكفى من طيبة القلب ليأخذ وقتا كافيا وهو يتحدث إليها.

وفى أحد الأيام بينما كانت تمر بإحدى نوبات مرضها، استيقظت لتجد نفسها مستلقية فى حجرة تضيئها الشموع مائة أو أكثر. لم تستطع أن تتذكر كيف أحضرت إلى هذا المكان وتساءلت إذا كانوا يظنون أنها ماتت. يجلس بجانبها القسيس، وهو الآن نائم. تستطيع أن تتذكر رائحته. قفزت من فوق المنضدة واحتقرته.

بعد ذلك، طلب الأب فنتورى، الذى له اهتمام بالطب، من الجندى المسئول عن الشئون الطيبة أن يأخذ نون إلى الكنيسة كل يوم لتقوم بأعمال خدمة مثل كنس الحديقة الصغيرة ورعايتها؛ أملا فى أن يعطيه ذلك فرصة لإجراء تحليل طبي شامل لحالتها.

تدرجيا وقع فى حبها. نون بالطبع كانت تعي اهتمامه المتزايد وتساءلت كم سيستغرق الأمر قبل أن يكشف عن نيته. ولكن الأب فنتورى كان يتحرك ببطء ويعيش فى صراع مع ضميره. فقد كان يلهو لمدة طويلة بخطة هجرة الكنيسة والفرار إلى ساحل البحر الأحمر ليحيا حياة بسيطة فى الهواء النقى الذى يهب مع الموج.

وفى النهاية ولأنه غير قادر على أن يتخذ الخطوة الحاسمة وفى الوقت ذاته غير قادر على احتمال العذاب لأكثر من ذلك شتق نفسه فى أحد الدعائم الأفقية القوية.

فى اليوم الذى توفى فيه استيقظت نون لترى القمر يبدو للعيان من خلال أوراق نخلة خضراء مدبية. كن يئمن فى شرفة المشفى على أى شراشف يمكن النوم عليها؛ لأن المشفى مكتظ إلى درجة الانفجار بالمرضى من كل الأنواع. الجنود الذين كانوا يعيشون تحت السلالم فى خلفية المبنى لجأوا إلى أكل الحبال القديمة وذيول الكلاب ويغفلون جلود ينادقهم ولحاء النخيل، وكانوا يموتون تحت ضغط تناقص الغذاء، ويستلقون وهم يسعلون طوال الليل. ويتقيأون العصاراة الصفراء. والمرضى العقلليون فى هذه الأثناء كانوا يتجولون بحرية، يقودهم النور الغامض الخاص بهم.

الجنود فى ثكناتهم نحفاء وجوعى أيضا، وجوههم مبهمة مثل الكلاب المهجنة. يسحبون الناس بعيدا بانتظام وهؤلاء الذين يؤخذون لا يعودون أبدا ويقول بعضهم: إنهم لا يعودون؛ لأنه يتم تقديمهم غذاء فى الثكنات فى المساء، وأنه كان هناك كومة من الجماجم تحت المنضدة الكبيرة التى يجلس عليها الجنود يأكلون فى المساء.

عندما جاء الأنصار كان الجميع نائمين. قالوا: إنهم جاعوا ليحرروهم جميعا. وعندما تسلقت نون الحائط لترى المدينة من أعلى، رأت الدخان يأتى من اتجاه الكنيسة وعرفت أنه ما كان إلها لم يعد موجودا، وأنه كما أن الشمس تدور فى السماء، فإن الأرض تدور أيضا،

وأن ما كان خيرا أصبح شرا، وأن ما كان شرا أصبح خيرا، وأنها قد تصبح بسهولة ملكة لأرض بعيدة غنية بشكل خيالى أو داعرة مجنونة لا تملك سوى بعض الملابس على ظهرها. جمعوا كل النساء معا وقادوهن خارج المدينة. زوجات التجار، الشحانون واللصوص، من هم مثلها، المجانين والعاقلات - أخذوهن إلى معسكر المحارب الشهير واد النجومى الذى يشبه فى رأياها أى قاطع طريق أو لص عربى آخر. أعطوهن طعاما ومكانا ينمن فيه. أخبروهن أنهم الآن أحرار، واللاتى ليس لديهن رجال لرعايتهن سوف يتم تخصيص منزل لهن ليعشن فيه. لا نساء غير متزوجات أو ليس لهن إخوة من الذكور ليعيلهن سيسمح لهن بالتجول فى الشوارع أو أن يعشن بمفردهن. إنها قواعد المهدي للمجتمع الجديد وفيه قانون الشريعة أساسى.

أول زوج أعطوه لها كان رجلا طيبا، شخصا بسيطا قام بعمل عظيم والآن أعطوه منزلا كبيرا. الكل مشغول طوال الوقت. لديه عشرة من الخدم يهتمون بأمر كل شئ. كان كبيرا فى السن إلى حد ما ولكنه كان غنيا ولم يكن يطلب منها شيئا. كانت سعيدة لفترة وجيزة حتى جاءها الجن مرة أخرى فى يوم ما. سقطت على الأرض وبدأت ترتعش. عضت لسانها حتى سال الدم من فمها. بدأت النساء فى المنزل يصرخن يجذبن شعورهن وعندما عاد زوجها للمنزل رأى الأمر من وجهة نظر قائمة. حاولت أن توضح أنه شئ ما فى رأسها وأنه لا يحدث إلا نادرا وأنها لا تؤذى أحدا أبدا. ولكنه لم يقتنع. همست السيدات الأكبر سنا أن الأمر بدا وكأن الجن يأخذها كرجل وكان هذا كافيا بالنسبة إليه. طلقها فوراً.

انتهت القصة، وقف الشيخ بلدى وبدأ يحاول التفكير فى شىء يقوله. "منذ هذا اليوم يا إخوانى وهذه الفتاة تعيش فى الشوارع مثل الحيوانات. الآن، ماذا يمكننا أن نفعل لننقذها؟". كان هناك عدة حركات نصف مشفقة ودارت مناقشة.

معظم الحاضرين وجدوا القصة تسلية جيدة، ولكن بالنسبة للوصول إلى حل لهذه المخلوقة، فلا يوجد. حاوى، أيضا، أسرته القصة. شعر بنوع غريب من التعاطف مع المخلوقة المسكينة التى نظروا إليها بوصفها خطرا؛ لأن جسدها يصدر عنه سلوك لا يمكن التنبؤ به. العالم يحكمه الإقناع. السبب وراء اتباعهم للمهدى؛ هو أنه كان يرضيهم أن يتبعوه. إن الناس لم تعد تقتنع بالرؤى. إنهم يفعلون ما يشعرون أنه يؤكد سعادتهم أو يزيدنها. الفتاة الضئيلة صغيرة السن لم تتردد أثناء وصفها لما حدث. ابتسم لنفسه بينما خطا عبر باب منزله. فكلاهما لا يختلف كثيرا عن الآخر. فقد كانت تتحدى الناس بالسقوط على الأرض وهى تركل سيقانها، أما هو فعقله أو الطريقة التى يفكر بها يثيرا الذعر والاستياء.

٢٥ - أقصى الشمال

النوبة سبتمبر ١٨٨٨

قد تكون المعركة انتهت ولكن الحرب مستمرة. مجموعة من راكبي الجياد القلقين تحركت عبر المدينة دون أن يلاحظها أحد. لم تكد رأس تستدير نحوهم وهم يشقون طريقهم ببطء تجاه الطريق المتجه إلى الجنوب؛ لأنه لا يمكن تمييزهم عن آلاف الأنصار الذين اجتاحوا المدينة الصغيرة. لا يتذكر أحد أنه رأهم يصلون منذ يومين، متريين ومثارين بعد رحلتهم الطويلة من العاصمة. فى وسط المجموعة، التى لا يزيد عددها عن ستة عشر، المفوضون الثلاثة. ويفحص أدق نرى جوياتهم من أفضل أنواع القماش يركبون جيادا ضخمة ويجلسون على أفضل أنواع السرج. من هناك لاحظوا باستنكار حالة من الفوضى بدت أنها تسود بين الأنصار الذين احتلوا المدينة. لم ينظر أحدهم إلى الوراى على مجموعة السواتر المبعثرة عبر التجويف الضحل للأرض المستوية، فى اتجاه الغابة المتييسة التى تميز النهر إلى الغرب، حيث ثبت الأمير نجومى خيمته.

داخل خيمة القيادة، كان واد النجومى مستغرقا فى حوار مع حلیم، أكثر صديق يثق به. يجلسان مقتربين حتى لا يسمع صوتهما من الخارج.

قال: حلیم: "افرض أنه لم يرسل أى طعام".

رفع نجومى يديه ببؤس. "ماذا يمكن أن نفعل؟ إذا لم يوجد شىء، يجب أن نأخذ ما نحتاجه".

"ولكن القرى خالية. المتاجر يملؤها التراب والفتران. الأمطار كانت قليلة والنهر أكثر انخفاضاً مما رآه أى امرئ من قبل".

منذ عودته من أم درمان من أسابيع قليلة، كان نجومى يذهب هنا وهناك باحثاً عن حل لمشكلة الطعام.

"يجب أن نستمر فى التحرك سواء لدينا طعام أم لا.

"إلى الشمال؟" سأل حلیم "ولكن ليس لدينا عدد كاف من الرجال".

"إذن يجب أن تجد أكثر. اذهب إلى القرى. ارسل عملاء لتعزيز الجيش بالجنود. خذ أى امرئ يستطيع أن يحمل سيفاً أو سكيناً. تمطى على البطنية التى ينام عليها، حيث شعر فجأة بالتعب. إننا وحدنا فى هذا الأمر. لا نتوقع أى مساعدة. لن أعطيهم الرضا لرؤيتى أخفق". ضحك ضحكة مكتومة بها قليل من الفكاهة. "لدينا بنادق وقذائف ومدفع أكثر مما يطلبه أى جنرال، ولكن لدينا رجال قليلون ليطلقونهم وما لدينا من رجال يموتون جوعاً". حلق فى حلیم مرة أخرى. "كم نفقد من الرجال كل يوم؟".

أمال الرجل الآخر رأسه إلى جانب واحد لا يرغب فى أن يجعل الأمور أسوأ. كان الجنود يختفون ليلاً بمعدل مقلق. عشرة رجال مرة واحدة، أحياناً أفراداً، وأحياناً مجموعة معاً. ولأنه يعلم ماذا يعنى صمت

مساعدته، مال نجومى إلى الخلف ووضع يديه خلف رأسه وهو يتنهد. "زودوا الخفر ليلا. لا يمكن أن نسمح لهم جميعا أن يختفوا ببساطة كالرمل فى النهر. الله يعلم أننا جميعا تعبنا من الحرب". ثلاث سنوات مدة طويلة، كان يفكر. عندما سقطت الخرطوم بين أيديهم، كان يعلم أن روح القتال ستتسرب من المحاربين. لقد كانت الخرطوم هدفا لهم. أصبح الأمر أكثر غموضا، الآن إلى أين سيذهبون؟ ماذا سيفعلون عندما يصلون إلى هناك؟ ولماذا يسأل مثل هذه الأسئلة ومن المفترض أنه القائد؟

نقص المؤن ليس المشكلة الوحيدة. كانت هناك أحداث أخرى هزت تدعيم الأنصار. كان يفكر فى البطاحين، الذين استطاع أن يحشد جنودهم فى طريق عودته من العاصمة. كانوا سيقتلونه فورا لولا بعض الرجال الذين حاربوا معه فى الخرطوم.

"أنت تعرفنا" قالوا: "أنت تعلم أننا نحارب وأنتا لا نخاف الموت".

"أعرف" كل ما استطاع نجومى أن يقوله.

"إن لماذا يعاملنا الخليفة عبد الله بهذه الطريقة؟". إن المدينة فى حالة حداد. "لقد ذبحوا إخواننا، وأباغنا، وأبناغنا، لماذا؟ لأننا قلنا إننا تعبنا من هذه الحرب، إن أهلنا يحتاجون إلى الراحة، لقد ارتدينا ثياب الحداد بما فيه الكفاية. وفى المقابل، ذبحنا كالماشية". لقد أرسل الخليفة رسالة إليهم يطلب من رجالهم أن يحاربوا.

عندما نظر لمجموعة الرجال الذين يقفون أمامه شعر بالخزى لما أصبح عليه. هؤلاء الرجال بسطاء. يعملون فى الأرض. لقد أرسلوا

رجالهم ليحاربوا مع المهدي وسقط كثير منهم. الآن يقولون إن هذا يكفي. لقد قالوا: إن الخليفة ليس المهدي. وفي المقابل اتهمهم بالخيانة وأعدم خمسة وستين من إخوانهم في يوم واحد في أم درمان. من قاموا بإعدامهم أخذوا يضربون بسيوفهم الثقيلة حتى أصبحت أذرعهم متعبة لدرجة أنها لا تقوى على حمل السيف أكثر من ذلك، حتى غطاهم الدم من رعوسهم وحتى أصابع أقدامهم وفرشت الأرض بحصاد من الرعوس المتجهة والأطراف الغريبة. تتدلى المشانق في مجموعات من ثلاثة وأربعة في منظر مروع دعيت إليه المدينة كلها.

"لم يستجد أي منهم الرحمة، لم يصرخ أحد منهم". قال: رجل عجوز وهو يلصق وجهه بوجه نجومى: "إنه ليس أسلوب البطاحين".

"إخوانكم لم يموتوا دون فائدة" قال: نجومى وهو لا يعرف من أين يأتى بالكلمات. خطا إلى الخلف ورفع صوته: "أنتم أيها الرجال تعلمون من أنا. إنكم تعلمون كلمتى. لن أرسل أى إنسان إلى مكان لن أذهب إليه، لن أرسل رجلا إلى المعركة إذا لم أكن مستعدا أن أقف إلى جانبه". نظر حوله إلى الوجوه المحتشدة. "أنتم تعرفون ذلك جيدا. إذن اعلموا هذا أيضا سوف أركب جوادى إلى الشمال لأخذ حلفا Halfa ومن هناك إلى مصر". رفع كلتا ذراعيه فوق رأسه. الشمس ساحقة. وقفوا هناك متجهمين، غير مقتنعين. فسوف أتبع النهر حتى مصبه؛ لأن هذا ما طلبه منى المهدي بنفسه قبل أن يموت. سنأخذ معنا كلمة الله لنهدى هؤلاء الناس غير السعداء الذين يعيشون دون إيمان، فقد سرقت أساليب الأتراك الفاسدة الإيمان منهم. ترك يديه تسقطان إلى جانبيه. "أنا لست

رجلا من الرجال الذين يحبون الخطبة، أنتم تعرفونني من أفعالي.
ولكنني رجل عادل... " ظلوا يحملقون فيه بهدوء، "أحتاج إلى مساعدتكم".

وقف نجومى الآن ورفع براية الخيمة إلى أعلى. "أعتقد أنه يجب أن
نتحرك إلى داخل المدينة لقد تعبت من العيش كبديوي". كان المعسكر يبدو
متهدما مضطربا. قال دون أن يستدير: "لقد ضحكوا عليّ يا حلیم". كلهم
يجلسون بجانب هذا الكلب المتفاخر الأحمق". استدار الآن حيث خطر له
شيء آخر. "هل سمعت قصة الشعرة يا حلیم".

مرت بوجه الرجل نظرة حيرة. ضحك نجومى باستخفاف وجلس
على البطانية مرة أخرى. "يبدو أن هناك شعرة أحضرها شخص ما
لخيفتنا قائلا: إنها شعرة كانت تزين رأس محمد أحمد المهدي، وقدم
يده هكذا". مد نجومى يده. جلس حلیم فاغرا فاه، لا يدرى ما سيأتي
بعد ذلك. "حينئذ" أغلق نجومى يده " خليفتنا النبيل الصديق خطف
الشعرة من يد الرجل غير المحظوظ... ابتلعها".

تجهم وجه حلیم "أكلها؟ الشعرة" أوماً نجومى بالإيجاب.

"لماذا؟".

تعب واد النجومى من الحكى. خفض صوته درجة. "قال: إن نور
المهدي دخل جسده مع الشعرة وهى الآن تنمو هناك مثل شمعة من
الشمع الحيوانى" تنهد ولدقيقة لم يزعج أحدهما الصوت البعيد لطائر
حباك صغير على سطح الخيمة.

"لقد ضحكوا علي وأرسلوني بعيدا لموت. وكأننى لم أثبت قيمتى
بالفعل من قبل". الغضب والإحباط يتدفقان من الرجل قليل الكلام.

قال: حليم بطريقة فلسفية: "البجارة Baggara كلهم هكذا". "يأتون من الصحراء ولا يعرفون شيئا. الآن يعتقدون أنهم اشتروا البلد كلها لأن أخاهم يجلس على حصان المهدي.

ضحك نجومى قائلا: "ربما".

تذكر زيارة أعضاء اللجنة الذين رحلوا مؤخرا. الأكبر سنا منهم، رجل وقور وعينه غير واثقتين تعكس عدم ارتياحه للحقيقة، بدأ بسؤاله للتحقيق.

"سمعنا أنك تعسكر إلى الشمال من المسجد وجيش مساعد قويدام Musaid Quaydum إلى الجنوب منه".

أجاب نجومى بإيجاز وكأن الأمر غير مهم قائلا: "هذا ملائم أكثر".

واصل الرجل الحديث وكأن أحدا لم يقاطعه. "عبد الله التاعيشى يخشى أن هذا الأمر سيضعفنا فى عيون أعدائنا. يجب ألا تظهر أى علامات صراع من جانبنا".

"إننا هنا ببساطة لنضمن أن التعاون بين كل الجوانب سلس". قال المفوض الثانى بطريقة رتيبة: "إن النصر هو ما يهم".

رد نجومى بحدة: "إذا كان النصر هو ما يهم، إذن ارسلوا لى طعاما ورجالا؛ ليحاربوا بدلا من إعطاء كل شىء لجيش الزكى alzaki فى أبيسينيا . Abyssinia". غير المفاوضين الثلاثة مواقع أقدامهم. واصل نجومى حديثه، وهو يقترب من الشخص الأكبر سنا. "كيف يتوقع منى أى شخص أن أستطيع الاحتفاظ بهذا الجيش متحدا بينما ليس لدى دعم مرئى منه؟". أجابه المفاوض بنظرات خالية من التعبير.

الليل يهبط. خطا نجومى وحليم إلى الخارج ليصليا قبل أن يجلسا على الأبسطه المصنوعة من القصب. قال: النجومى وهو يختتم قصته: "بالطبع لم يحضروا لى شيئا". ذكرى إهانتته من قبل الخليفة عبد الله ما زالت تحرقه. "انظروا هنا" الخليفة الفظ احتكم إلى ضيوفه فى هذه المناسبة "أبو غانو قبض على شاكا. أبو أنجا أعطى الإثيوبيين علقه ساخنة، وعثمان دجنا فى طريقه إلى سواكن، ولكن أنت يا أمير الأمراء يا عظيم تجلس فى دنقلة منذ عامين لا تفعل شيئا".

بعد فترة صمت، قال حليم: "أخبرنى عن محمد الفحل".

"لا شىء يمكن فعله". قال نجومى: "يداي مغلولتان".

"لم يكن رجلا سيئا".

"لقد كان غبيا. يستحق أن يشنق فقط على النطق بهذه الأشياء أمام الآخرين. لم يكن يجب أن ينطق بهذه الأفكار بصوت عال. ولا حتى فى نومه". نظر حليم إلى الأرض "لا يمكن الوثوق بأحد إذن". بدا أن نجومى يفهم تغيرا فى نبرة صوت صديقه نظر نجومى عبر الظلام. "سيكون هناك حالات إعدام مشابهة. وبينما الوقت يمر سوف ندير اهتمامنا من أعدائنا البعيدين هناك إلى هؤلاء داخل منازلنا. هؤلاء الذين نطلق عليهم إخواننا وأسررتنا وأصدقائنا".

"ولكنك لم تكن لتفعل ذلك إذا لم تكن الأخبار قد انتشرت بهذه السرعة".

تنهد نجومى وفحص الأفق بعينه.

هنا وهناك رعوس برتقالية - زرقاء من البريق المهتز كالريح ترقص
عبر سهول المساء. "خطأى الوحيد كان عدم قتله مباشرة".

كان يعلم أن حلیم يجد ما يسمعه صعبا. ولكن ما لا يفهمه حلیم أن
الأشياء تغيرت. لقد مرت الأيام التي كانوا يستطيعون فيها الحديث عما
هو خطأ وصواب. ما يهم هذه الأيام هو الطاعة. فالطاعة صواب وعدم
الطاعة خطأ. الفرق بينهما مثل الفرق بين الحياة والموت. الصراع بين
نجومى وقويدام أصبح أشد مع كل يوم. مراكب العدو تسافر ذهابا
وإيابا فى النهر إلى الشمال ويتم إرسال الخفر ليقدروا قوتهم. أحد هؤلاء
الخفر أرسل رجلا مشى مضطربا إلى المعسكر ووجد نفسه أمام
نجومى.

"كلهم ماتوا" بكى وهو لا يعرف أنه الأمير.

نظر إليه الأمير لحظة نون أن يستدير. وسأله ببساطة: "ولماذا أنت ما
زلت حيا؟".

زاد عدد الخفر الفرسان الذين أرسلوا لمراقبة المعسكر.

"الغذاء يسرق بمعدل مفرع. فإنهم يموتون جوعا. ليس لديهم خيار
إلا السرقة ليطعموا أسرهم". هبط النهر وفسد المحصول. إنه عام
المجاعة الكبرى.

يونس الديكيم، الذى تسبقه شهرته بالوحشية من أيبسينيا، حيث
استعاد جلابات Gallabat من الأثيوبيين، وصل من أم درمان ليتولى
مسئولية الأمور فى الأوردى Urdi. وفى تجمع كبير فى ميدان المسجد

بعد صلاة الظهر قرأ أوامره للجيش المحتشد. كان عليه أن يرعى الأمور. مساعد قويدام وواد النجومى كانوا بالنسبة ليونس مثل جثة يغسلها بين يديه. بشكل شخصى، رغم ذلك، فهو متحيز مثله مثل أى شخص آخر هذه الأيام. لقد اعترف لنجومى بكراهيته لقويدام: "إنه صبى عبد صغير من البجارة الجهلاء وأهميته تتعلق بقرابته من حماقة الخليفة. لا تلتفت إليه. أنت يا نجومى من أول أتباع المهدي وبالتأكيد فإنك أعظم الرجال العسكريين لدينا" ابتسمت الملامح المتجهمه بطريقة متباعدة. لديه جلد مثل جلد وحيد القرن، ولكنه غير مؤذ، طالما أنه بجانبك. كان يقول: "كم من انتصار ندين بالفضل فيه لك".

يبدو أن تفضيل يونس الشخصى له، أنقذ نجومى من مصير كرية. لمح كيف يمكن أن تكون الأمور فى المعسكر الثابت لقويدام الكرية. عندما أرسله يونس يجرى حول الميدان حاملا سيفا ليوضح كيف يمكن أداء العهد وكاد نجومى يشعر بالأسى من أجل خصمه.

جاء حلیم إلى نجومى، وهو يبدو ضعيفا ومنهكا.

"سوف يصبحون حالا ضعفاء جدا لدرجة ألا يستطيعون السير" أوضح "يجب أن نأخذ حلفا من يموت، يموت". على الأقل الأحياء سيتم إنقاذهم".

تنهد نجومى. اللحظة التى كان يخشاها جاءت. ذهب إلى يونس الديكيم وأخبره بقراره. قال: يونس ضاحكا: "إذا كان أى امرئ يستطيع النجاح فهو أنت".

استغرق الأمر ثلاثة أشهر قبل أن تصدر الأوامر لتسمح للجيش بالرحيل.

استيقظ المعسكر فى إحدى الليالى على صوت الطبله الكبيره. رفعوا سيوفهم ورماحهم، جرى الرجال نحو الرمال فى وسط المدينه وبحثوا عن قائدهم. خطأ من يدق الطبله إلى الامام، لقد كان نجومى نفسه. وبينما هم يراقبونه رفع يديه وتلى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ (*) وهكذا يجب أن يكون الأمر بالنسبة إليكم". وقفوا يسحرهم ضوء القمر والمعان الفضى لشخص قائدهم أمامهم، كلماته أربكت نومهم وأذهانهم المفزوعة وكأته حلم.

أخذ نجومى رجاله فى الصباح التالى وعبر من المدينه إلى الضفة الغربيه ليبدءوا السير نحو الشمال. الإبل والخيول والماعز، نساء وأطفال يجرون عبر النهر مثل مجموعه مؤمنين تتجه إلى صحراء الشمس. لم يكن قائدهم نبيا ولكن رجل واضح وبسيط، مثلهم تماما ومصيره كمصيرهم. جيش واد النجومى لا يتعدى خمسة آلاف محارب وثمانية آلاف من المرافقين فى المعسكر.

(*) سورة آل عمران الآية ١٧٣ .

٢٦ - توشكى، الصحراء النوبية

يوليو ١٨٨٩

استيقظ ليجد رأسه ملفوفا بقماش، تساعل لحظة إذا كان قد مات وتم دفنه بالفعل. القماش مترب ورائحته تنتمي إلى الرائحة الدنيوية وبدأ غريبا بالنسبة إليه أن رجلا يمكن أن يكون ميتا ويظل يشعر بإحساسات العالم المادى. هذا لم يكن يشبه ما تخيله عن الأمر. ربما لم يعد مخلصا بعد فى أفكاره والله بحكمته قد حكم عليه بأن يكون فى أحد المستويات السبعة للمطهر القريبة من العالم الأرضى، لتستمر هذه المعاناة حتى يوم القيامة.

الأصوات تاتى إليه الآن، ليست بعيدة، أصوات الرجال والنساء وحتى الأطفال. جلس مترددا، ورفع الساتر المؤقت، الذى أقيم الليلة الماضية من سعف النخيل ولفاع قديم، وهو الذى سقط على رأسه أثناء الليل. نظر حوله إلى المعسكر فى الصباح الباكر. هذا أكثر عذر يثير الشفقة لجيش خلقه الله على الأرض، هذه الكثرة مؤكدة. كان الأطفال يتجولون وهم ينتحبون حول الكبار الذين يبدون أنهم أصيبوا بالدوار وممددين على الأرض. كل وجه تكسوه نظرة التعب الكئيبة. لم يأكلوا وجبة جيدة منذ أيام. لقد ذبحوا أكثر عدد استطاعوا أن يذبحوه من الحيوانات. أكلوا إبلا وحتى خيولا وقال أحد الأشخاص: بغالا أيضا،

رغم أنه مرض فى هذه الليلة بالذات. بجانبه جندى بعيد لم يعد يتذكر اسمه كان يطحن تمرًا متحجرا بين صخرتين منبسطتين. كانوا سيصنعون نوعا من الدقيق ليخلطوه بالماء ويخبزوه كخبز بلدى.

إلى أى مدى تقدموا! وهم يشقون طريقهم عبر بطن الأحجار إلى أبعد من ساراس Sarras ومعتوقة Ma'tuqa. الآن هم شمالى حلفا ذاتها. شمال الجبهة الأمامية المصرية، يتجهون نحو أسوان وبعدها بنبان Binban. كان يبدو الأمر كله كحلم وكأنه لا يحدث على الإطلاق. الحراس القائمون على العمل فى الحصن الأمامى فى حلفا لوحوا لهم بالأيدى واكتفوا بأن يروههم وهم يسيرون إلى داخل الصحراء، إنه ليس غزوا ولكن نزهة من خلال سماح الناس الذين أتوا لغزوهم لهم بالدخول.

فى ممتة Metemma عبروا هياكل البواخر المعدنية المقلوبة الصدئة التى تركتها القوة البريطانية المنسحبة التى جاءت لنجدة المدينة المحاصرة منذ ثلاث سنوات. وهى التى يتبعون طريقها الآن. المركب المفك الذى تم اكتشافه صدفة، يرقد على المياه الضحلة، على الرمل مثل شهادة غامضة على الإله الحديث للصناعة .

بينما هم يتجهون إلى الشمال أكثر فى اتجاه معسكر الحد الجنوبى فى وادى حلفا، ابتعدوا عن النهر. إنهم يتحركون الآن؛ أملين أن يصلوا إلى شىء أفضل وأبعد. حتى البلح على النخيل غير ناضج ولكنهم أكلوه. الجنود يحملون أطفالهم على أذرعهم بينما يسيرون لساعات يتبعون القمر.

كانت معتوقة مخيبة للأمال، حتى هذا الوقت يعلقون معظم أملهم على أن إخوانهم فى الشمال سوف يتضمنون إليهم ويثورون باسم الإيمان ضد قامعيهم. ولكن المصريين، فيما يبدو، لم يكونوا مهتمين بالأمور الدينية وليس لديهم إحساس بالقمع. "لديهم إدراك مختلف عنا" كما لاحظ حلم بطريفة جافة. سار نجومى وحليم إلى مدينة بالوجا Balluga مع مجموعة قليلة من أفضل رجالهم من أجل أن يخبروا أهل مصر برسالتهم السامية. ولكن حتى عندما كان يتحدث لاحظ نجومى النساء والأطفال من المعسكر يتحركون عبر الحشد وهم يشحنون الطعام.

أخذوا موضعا فى وسط المدينة الصغيرة وطرقوا الأمية ombeya لينادوا على الناس. خاطب نجومى الحشد من فوق جواده وذراعه مرفوعان عاليا.

"أهالى بالوجا" بدأ قائلا: "اعلموا أننا جئنا إليكم كأصدقاء وإخوة لأنكم مؤمنون مثلنا" أيها الناس اجعلونى أخبركم أن الأتراك والفرنجة فروا من قوة سيف المهدي. لقد جئنا إليكم الآن لنخبركم أن الوقت قد حان لتنضموا إلى هذه الحركة العظيمة. دعونا نذهب معا. إن شعبينا أخوان منذ البداية. دعونا نذهب إلى القاهرة ومن هناك إلى القدس والأراضى المقدسة فى بعثتنا للحرية. لقد فقد العالم احترامه للإسلام، لطريقتنا البسيطة فى الحياة، لمدة طويلة جدا. لقد فسدت قوانينكم بسبب أفكار الفرنجة الكفار". وبينما هو يتحدث، أصبح نجومى مدركا للمسافة بينه وبين الحشد. إنهم ينظرون إليه ليس كمحرر ولكن كشىء أقل أهمية بكثير، أكثر تسلية. أصبح يشعر بالخجل من مظهره وبدأ يتمنى لو كان

قد ارتدى شيئاً أكثر جاذبية من جوبته المتربة، حزامها لم يربط بإحكام منذ عشرين يوماً. قدماه متقرحتان من طول الرحلة وتنزقان من الجروح. شعره طويل، وذقنه أيضاً كانت تحتاج إلى تشذيب. "هؤلاء السود ليسوا إخواننا" صاح أحد الأشخاص وهو يشير إلى الجهادية" إنهم يبذون أقرب إلى العبيد فى نظرى".

"أى نوع من الجيش أنتم، تحتاجون إلى نساء وأطفال إلى جانبكم؟".

بدأ نجومى يتلثم "أنتم تعرفون انتصاراتنا" توقف وحجب الصخب على صوته. ثم عاد يصيح بأعلى صوته "عندما ذهبنا إلى أرض المعركة فى شايبكان Shaykan كان هناك ألف ملاك إلى جانبنا. الرسول نفسه كان هناك على جواد أبيض له أجنحة". هنا بدعوا يضحكون بصوت عال وعرف أنه خسر المعركة.

"تبدون كعصابة عجر وليس كجيش غاز".

"أين مدفعكم وخيولكم القوية؟".

"انظروا إلى تلك البغال، ليس بهم عضلات إنهم مجرد جلد وعظم".

"مثل بقية قطاع الطرق".

"إننا نحتاج إلى الطعام" صاح نجومى بصوت أجش. "المؤن والذخيرة من أجل الرحلة إلى الشمال" بدأ الحشد يتفرق الآن. وقف هناك يرتعد دون كلمة ثم أخيراً أمسك يد حلیم لينزل من فوق المنصة.

همهم "أفضل أن أواجه مجموعة من أعنف الفرسان على أن أخوض مثل هذا الأمر مرة أخرى".

"ولكن عندهم حق، إننى أبدو كرجل مجنون أحمق". معا قادوا الرجال بعيدا ليعودوا إلى الخلاء.

كان الأمر نفسه يتكرر أينما ذهبوا. بدلا من تحييتهم بأذرع مفتوحة، كأبطال غازين، كان الناس يغلِقون أبوابهم فى وجوههم ويحدقون من النوافذ الطينية الصغيرة بأعين مكفهرة متشككة. كانوا يبصقون من فوق الأسطح على الصف المتبعثر ويصرخون مندهشين بسخرية، "هل هذا جيش الغزو العظيم للمهدى؟". ألقى شخص بقطعة من الخبز اليابس وسيدة تزحف فى الخلف جرت لتلتقطها لتطعم أطفالها، كانت أكثر صلابة من الحجر.

سأل الناظرون: "انظروا إلى هؤلاء الفجر. هل من المعقول أن يرسل الله جيشا ملعونا كهذا ضد قوة الخديوى؟".

"ربما أيضا يرسل جيشا من الفئران". ركب نجومى جواده عبر وابل من الفاكهة المتعفنة والبلح المتحجر وروث الماعز، برأس محنى لاعنا اليوم الذى شن فيه هذه المعركة.

ناموا هذه الليلة فى الصحراء، وفى الفجر وصلوا أركين Arqin ولكن البواخر كانت هناك وانطلق المدفع دون رحمة ليفرقهم. أجبروا على الحرب؛ لأنهم يحتاجون إلى الماء ولا يستطيعون أن يواصلوا السير أكثر. بدءا من هذا الوقت ستتحرك سفن المدفعية معهم، تعس فى النهر وتنزل

قوات جديدة على الشاطئ؛ لتهاجم فى سلسلة من المناوشات الخفيفة. حاربوا ثلاثة أيام قبل أن يستديروا متوجهين إلى داخل الصحراء مرة أخرى.

انخفض عددهم إلى أقل من نصف قوتهم الأصلية، وصلت رسالة تعد بقدوم قوات جديدة من الجنوب. عندما جاعوا، بالطبع، اتضح لهم أنهم صبية صغار لدرجة أنهم لا يعرفون شيئاً عن الحرب ورجال عجائز لدرجة لا يمكن الاستفادة منهم.

"انظر" لا حظ حلیم بينما هما يراقبان أوراق الوافدين الجدد" إنهم حتى أحضروا جنودهم لرعايتهم.

من خمسة وثلاثين رجلا فى سلاح المدفعية، تبقى لديهم ثلاثة فقط. هذا ليس له إلا أثر بسيط، إلا أن البغال التى تجر المدافع ماتت لتتركهم أيضا، فعليا بمدفع واحد يجره الرجال خلفهم. لديهم ذخيرة حربية تكفى ليوم جيد واحد من الحرب، هذا كل ما لديهم، تركوا الباقي؛ لأنه بدون بنادق وقناصة بالبنادق لا يساوى شيئاً. حاملى البنادق من الجهادية كانوا يتركونهم فى جماعات. "أول رؤية لسادتهم القدامى وذهبوا" أشار نجومى فى إحدى الليالى. "ليسوا مثلك يا مدنى أيها الرجل العجوز؟".

سعل الطباخ العجوز سعالا جافا يمكن اعتباره ضحكة. أربطة حلقه تبرز مثل حبل متصلب. جلده مثل قربة ممزقة. لقد أصيب بالعمى عندما انفجرت قذيفة فى مؤخرة أحد المدافع منذ أسابيع وقماشة قدرة تلتف حول عينيه. مشى يتعثر، وهو يستند إلى آخر عربة من نوات

العجلتين. "انتظروا حتى تشفى عيناى" قال ضاحكا: "حينئذ سأريكم كيف أتعامل مع هذه القرود" ثم جف حلقه واستدار ليصق، لتصل إلى ساق حليم. مسحها حليم ببساطة فى جوبته دون أن ينطق بكلمة.

كانوا يجلسون فى الشمس، يعبثون بخيامهم. المعسكر بأكمله أقيم من هذه الأشياء المهلهلة. كلب يعوى عن بعد. الإبل ترقد على الرمل نصف ميتة. سيدة على وشك الولادة هنا، الآن؟ دهش نجومى أنه حتى فى مثل هذه الأوقات تستمر دورة الحياة. وبخ الجندى لإحضاره زوجته بهذه الحالة. "لم أستطع أن أمنعها يا سيدى" وأوضح له "أن أفرادا من عائلتها يعيشون فى الشلال".

وصلت رسالة اليوم من الجانب المصرى من الضابط الإفرنجى المسمى جرينفيل. جلس حليم ونجومى محبوسين فى الرمال، تحت قavanaugh صغيرة من الظل يقرآن الرسالة معا. كلب كان يتجول بدأ يلعب أصابع أقدامهم.

ولذلك أتيت وبعدي آلاف وآلاف من القوات الإنجليزية والمصرية على وشك الوصول. كنت أفكر فى محوكم ومحو آثاركم، ولكن مع وصولى نظرت إليكم ورأيت حالتكم الضعيفة التى تثير الشفقة. وجدت أنكم تموتون من الجوع والعطش. أشفق عليك واد النجومى؛ لأن مطالبتك بعرش للخليفة ليس من حقه وضيعك فى هذا الوضع اللعين؛ لأنها الطريقة الوحيدة التى يستطيع أن يضحك بها. وضع ابن أخيه يونس فى مكانك ليتخلص منك ومن أصدقائك. لا أصدقاء ينتظرون وصولك فى بنبان، فقط الجيش الإنجليزى والمصرى. ينتظرون قدومك، ساعة

بساعة، ليشربوا دمك ويرسلونك إلى الهلاك. الطرق مسدودة أمامك، بينك وبين بنبان مئات الأمتار من الرمال والصخور، وليس بها ماء. إذا تقدمت تنتظرك الجيوش المنتصرة. إذا استدرت عانداً، الجيوش في حلفا تقف لتراقبك وإذا ظللت حيث أنت، الجوع والعطش والطاعون يهددونك. أطلب منك أن تستسلم، حياتك وحياة قوادك سوف تكون في حماية من أى شر.

تنهد نجومى ووضع الرسالة فى الرمل. مد يده ليبعد رأس الكلب المهجن المليئة بلسع البراغيث. "لا يمزج الكلمات هذا الجرانفيل". وافق حلیم. "بالتأكيد لا يقوم بذلك". كان يركز جهوده ليمسك الرمح الذى يدعم سترهما. القماش القطنى يرفرف وظله يهتز مثل روح غير مرئية تمر عبر الأرض. بدأ حلیم يرى الجن فى كل مكان. همهم بصلاة لتحميه.

"قد يموت المرء من الحزن وهو يقرأ رسالة كهذه".

سأل حلیم: "ما الذى أتى بهم إلى هنا فيما تظن؟".

فكر نجومى "أظن أن ما جاء بهم هو نفسه ما جاء بنا".

"سمعت أنه فى بلادهم لا يمكن للرجل أن يتزوج سوى امرأة واحدة فقط، ولا يوافقون على استعباد البشر. ولذلك إذا أراد أن يكون فى أحضان امرأة أخرى عليه أن يترك بلاده ويسافر بعيداً. ويقولون: إنه عندما تمطر فى بلادهم، فإن المطر صلب كالأحجار الصغيرة وأبيض وأكثر برودة من قاع بئر فى الشتاء".

كان نجومى يراقب صقرا يدور بشكل رائع عبر الهواء الساخن.
كان يشعر بالحر والعطش، لا يستطيع أن يركز تفكيره فى موضوع
البرد الشديد. مد ساقيه بكسل وأغمض عينيه. قام حليم بالشئ نفسه
وحاول كلاهما النوم.

عندما بدأت الشمس تتوهج. حك حليم عينيه وجلس. شخص ما
كان يسلخ كلبا فى مكان قريب. مس نجومى برفق ليوقظه. "يجب أن
تكتب لترد على هذا السردار جرينفيل وتخبره أن يذهب لوطنه
ولأمطاره".

أجاب نجومى وهو ما زال نصف نائم "قررت ذلك فعلا، ليس لدينا
ما نفقده. إذا انتصرنا سنكسب أشياء عديدة، طعاما ومأوى وذخيرة.
ولكن إذا انتصر هو فلن يحصل على شئ سوى هذه الجوبا القديمة
ورمح مكسور".

فى هذا المساء استدعى نجومى كاتبه. ربت على كتف الصبى
واستدار لصديقه. "أنت تعلم يا حليم حارسى الشخصى هجرنى، فر
هاربا. حتى حامل الماء الخاص بى أخذ البغل وهرب ذات ليلة فلتفطر
ابن أوى على عظامه. الوحيد الذى ما زال معى هو الكاتب الصبى".

عندما انتهى من الإملاء، انشق وجهه عن ابتسامة خشنة ولعق
شفتيه الجافتين. "عندما ينتهى العالم كل ما يتبقى لدينا هو الكلمات على
أيدي صببية كهذه". سأل الكاتب الصغير أن يقرأ الرسالة، بينما جلس
يحملق فى الرمل عند قدميه، ذراعه يلتفان بلطف حول ركبتيه وتوهج
النار التى تومض فى الظلام يصنع حفرة قى عينيه.

قرأ الصبى: "نقول لكم إن الله أرسلنا فقط لندعو الناس والمسلمين. ما ذكرته عن كثرة جنودكم وقرب وصولكم لا يربعنا، ولا يخفيها وليس هو المكان الذى يضم عالمى البشر والجن". من الظلام تسللت الوجوه تحتشد حول هذا الصبى البرئ الذى يعلو صوته الصغير غير المنتظم من الرسالة ويتحدث عن قلوبهم وشوقهم للعالم البعيد. فيما بعد التلال والنهر، بعد سفينة المدفعية والصحراء هناك رجال مثلهم ينتظرون ليسمعوا، ينتظرون ليعرفوا لا يودون أن يموتوا فى حالة من الشك. فيما بعد آثار الأقدام والنجوم، هناك الاستقامة والعدل والخير. كانوا يقفون صامتين فى الظلام مقيدين مثل زوج من الأيدي حول الصوت الضعيف الذى هو صوتهم. "لا نخاف شيئا إلا الله فى علاه. لن تنفعم أى كمية من البودرة والطلقات دون مساعدته. ولهذا هلك جنرالنا هيكس وجوردون وجيوشهم، رغم عددهم. إنه أمر حتمى، إرادة الله".

عندما انتهى الصبى من القراءة وقف نجومى. نظر حول الوجوه المنعكسة فى ضوء النجوم الأزرق. بدأ قائلا: "أيها الناس إنهم يريدون أن ننسحب مع اتهامات بالجن. يحاولون أن يطفئوا نور الإيمان بجهلهم". لوح بيده تجاه السهل الذى يمتد خلفهم متبسطا ومتواصلا نحو القمر. "هذه بلادكم. إنها بلاد آبائكم وأولادكم. الله معنا لأننا على حق. ما الله إن لم تكن الاستقامة؟ هل يستطيع أحد أن يخبرنى؟". لم يكن هناك أى صوت، لم يتحرك طفل واحد فى نومه، لم ترتفع يد أو يتنحج حلق، يمسك الناس أنفاسهم وكأن سريا من الطيور يطير فوق رؤسهم. "هؤلاء الناس يريدون أن يأخذوا أرضكم، ويقولون إنها ملكهم.

إنهم يدعون الحق ليقوموا بذلك فقط لأن لديهم أسلحة أكبر وأفضل، لأنه فى بلادهم التى لم نراها أبدا لديهم أموال وذهب ورجال، آلاف وآلاف من الرجال الذين سيحاربون من أجلهم. لديهم سفن محملة بالبنادق بينما لدينا بغال لها عظام حادة. جذب ذلك الضحك المكبوت وشعر نجومى أنه أيضا يبتسم. أخذ نفسا عميقا. "إنهم ينتظروننا ونحن سنذهب إليهم، سنذهب ونحن نعلم أن الله معنا لأنه بدون إيماننا ليس لدينا ما نواجه به الكفار. اعلما إذن أن قلوبكم خيرة واذهبوا" صرفهم وذابوا بهدوء فى سواد الليل. جلس نجومى على الأرض ولاحظ أن الصبى يحك عينيه ويتثأب. مد يده وضربه وكأنها لعبة ولكن بحزم على ظهره. "عملك لم ينته بعد". وهكذا أعد الصبى دواته واختار ريشة بعناية وهو يرفعها فى الضوء. ثم جلس القرفصاء وبسط ورقة وأوماً: إنه مستعد. أملاه نجومى رسالة إلى الخليفة فى أم درمان. جلس بالقرب من الصبى وشفاته تكادان أن تلمسا أذنه. على الأرض الصلبة بجانبهما، حلیم ينام قلقا، يتقلب ويستدير ويئن. تتأب الصبى وحك أذنه. وسأل: "هل هذا هو السطر الأخير؟".

كرر نجومى، "بالنسبة للمصريين فالتقارير التى تؤكد أنهم فى أعماق قلوبهم تابعين للدين الحق ومؤمنين برسالة المهدي، غير صحيحة. لم يستقبلنى أحد فى أى مكان سوى ككلب منبوذ. كثير من الشيوخ يمكن أن يخونوننا من أجل حفنة ذهب من الأتراك". الآن توقف. "مهمتنا هنا تحمل صعوبة مضاعفة وفرصنا تقل مع مرور الأيام. أكتب هذا لك لتعلم أن الإيمان فى قلوبنا هو الذى يعطينا الشجاعة لنستمر. عبك

المخلص ورفيقك، عبد الرحمن واد النجومى. أضاف الصبى التوقيع بزخرفة رغم تعبته، وهو الأمر الذى أضاف ابتسامة على وجه نجومى. "كم عمرك أيها الصبى؟ ولا تعباً بالكذب علي. إن الأمر لن يضيف شيئاً الآن".

مسح الصبى ريشته بدقة وأعادها إلى الكيس الجلدى. سد الدواة بسداة وربطها بشريط جلدى. ثم وضع ريشته ودواة حبره فى الكيس الذى يستخدمه كوسادة عندما ينام والذى لا يفارق جنبه وهو مستيقظ. "أخبرتني أمى أننى ولدت فى قمر شهر شعبان فى العام الهجرى ١٢٩٤ . رفع قماش كيس كتابته المتدلى ليظهر التاريخ المنقوش عليه." كتبت التاريخ لأى شخص يجده إذا قتلت "أوماً نجومى: أنت تكتب جيداً بالنسبة لعمرک". كان متعباً الآن، وأشار إلى الصبى بالانصراف. "اذهب ونم أيها الصبى، ينتظرنا يوم طويل". تمدد على الأرض وسحب الغطاء القطنى الرقيق عليه كملاءة. "ألديك سلاح أيها الصبى؟". غمغم وهو نصف نائم.

"بندقية والدى".

"حسناً فقط تذكر عندما تتوقف البندقية عن العمل أن الأتراك لم يعودوا يقتلون أسراهم لا تدع نفسك تقتل، إلا إذا كان ذلك حتمياً".
"أفضل أن أموت شهيداً من أن استسلم للكفار".

"حسناً أيها الصبى. تتأعب نجومى: "أحیی شجاعتك. ولكن شخص ما يجب أن يخرج من هنا حياً حتى يعرف العالم قصتنا. استدار على جانبه "فكر فى ذلك".

الإمدادات العسكرية التى تم إرسالها من أم درمان كانت مخيبة للآمال. كانوا ضعفاء بسبب نقص الغذاء الجيد والرحلة الطويلة البعيدة عن منازلهم جعلتهم غير أمناء. دهش نجومى عندما اكتشف أن الكثيرين منهم كانوا فى السجن فى أم درمان. سأل عبد الحليم: "لماذا يرسل الخليفة الشريف قتلة ومفتصبين؟ هل يفكر بشكل سامى فى شخصيتى؟".

"لا بد أنهم كل من تبقى لديه".

فى الأيام الثلاثة الأولى فقدوا رجلين فى نزاعات تافهة. "إذا استمروا هكذا لن نحتاج إلى أن نحارب العدو. سوف يقتل الرجال أحدهم الآخر هنا" زجر نجومى عندما وصلتته الأخبار.

بعد ستة عشر يوما تحركوا من بالوجا فى اتجاه توشكى. تجنبوا النهر. ما زالت سفن المدفعية تمثل تهديدا واعتاد الأتراك أن ينصبوا كمائن على الضفاف، فهم يكومون البلح ليجذبوا الجنود الجائعين ثم يطلقون النار عليهم بالمدافع أو يأسرونهم بينما هم مشغولون بالطعام.

المحنة أصبحت أشد وأشد. هناك قصص عن آباء هجروا أطفالهم على الطريق حيث لم يعودوا قادرين على حملهم أكثر من ذلك. ولأنهم كانوا قد أكلوا إبلهم ومعظم بغالهم وبعضهم حتى أكل عبيده. الرجال يختفون من المعسكر ليلا تاركين خلفهم زوجاتهم وأطفالهم الرضع.

وصلوا السهل فى توشكى وكان العدو ينتظرهم. سدت الأفق سحب التراب حيث الفرسان يهاجمون. برعوس خفيفة بسبب نقص الطعام،

رأوا الدراويش يرقصون فى الريح بينما سقطت رماح العدو لتقسمهم إلى نصفين. جرت النساء وهن يصرخن، زحف الأطفال تحت حوافر الخيول المهاجمة. تبعثر الأنصار مع الريح مثل حفنة تراب. أطلقت النار على جواد نجومى من أسفل وجرح فى كتفه. استطاع أن يسحب الرجال إلى الخلف ومجموعة صغيرة منهم وصلت إلى الأمان على أرض مرتفعة. رقدوا هناك يحملقون فى الجثث المبعثرة لأصدقائهم وأسرههم. يشد النسيم ملابس الموتى وكأن أطفالاً غير مرتبين يحاولون أن يوقظوهم من النوم.

صوت نحيبهم تحمله الرياح. استدار نجومى وأغلق عينيه فى مواجهة الشمس. بجانبه يرقد عبد الحليم وهو يلهث. لديهم بنادق وذخيرة حربية. قال: أحد الرجال: "إذا أتوا سيكون الله مستعداً لقبض أرواحهم"، فى اللحظة التالية ألقى على ظهره ونصف رأسه منفجراً؛ بسبب قذيفة طائرة ليكشف عن الجزء الأحمر الذى يرشح من مخه. الذباب يطن أسود متكاثر، ذباب الصحراء العنيف.

ذقن نجومى الدقيق يتناثر عليه الغبار الأحمر وكان هناك ألم فظيع فى صدره. "عبد الحليم" همس "يبدولى أنه بما أننا لسنا فى وضع يمكننا من التراجع يجب أن ننتظر حتى يحل الظلام لننفذ هجمتنا الأخيرة على مصر".

ابتسم عبد الحليم بأفضل شكل استطاعه. "أعتقد أننا فى الحقيقة فى مصر ولهذا يا سيدى لا بد وأننا قمنا بغزوها".

"إذن فنحن محررون" ضحك نجومى. وهز إبهامه خلف كتفه فى اتجاه خطوط العدو. "من سيذهب ويخبرهم؟".

الهجمة الثانية جاءت مبكرا بعد الظهرية. نجومى، على ركبتيه أطلق بندقيته على الجهادية التى تتقدم، تلقى طلقة فى صدره. اخترقته الطلقة مباشرة وارتطمت بصخرة سوداء تبرز من الرمال. ارتدت القذيفة إلى أعلى مع صوت نحيب فظيع. ملأت الدموع عيني حليم. وقال: "إنها روحه تصعد إلى السماء".

التقطوا الجسد المكسور وربطوا معصميه بحبل شديد جاف وربطوه على ظهر جمل نصف ميت ووثقوه بقوة، وهم يرسلون بطلهم الصريع فى رحلته الأخيرة إلى أرض الوطن.

٢٧ - أم درمان

١٨٩٠

بينما يسرع عبر الشوارع المظلمة، غمغم حاوى لنفسه، رأسه يملؤها الحديث الغاضب الذى استمع إليه هذا المساء. المؤامرات تدبر وحبائل الحيل يتم تشكيها. الناس يبيزغون من الظلال. الرجال أنفسهم الذين تعهدوا بالولاء للخليفة الآن يشقون طريقهم إلى القمة. بعضهم لديهم شكاوى حقيقية، أشار آخرون بحسد إلى الطريقة التى يفضل بها الخليفة أهله على الآخرين جميعا. داخل معسكر الخليفة ذاته، لا تسير الأمور بسلا. الرسل الذين تم إرسالهم إلى الغرب إلى تاعيشا فى دارفور بوعود بطريق آمن إلى العاصمة قتلوا. أهل الخليفة أنفسهم ينقلبون ضده، قال: التجار: "والده راع مجنون لديه رؤى هل هذا يمثل أى أساس للدولة الإسلامية؟".

الاجتماع السرى الذى يعود منه الآن حاوى حضره أكثر من خمسة عشر وجيها. كثير من الذين كانوا يجلسون فى مجلس الدولة نهارا، يبتسمون ويوافقون على ما يقوله الخليفة، تجمعوا ليلا حول الأشراف الذين فقدوا الكثير من مكانتهم بعد موت المهدي. سحبت منهم ألقابهم ومحمد شريف قائدهم غير الصبور، الذى عينه المهدي أحد الخلفاء الأصليين يعيش الآن فى فقر. إذا كانت الشائعات حقيقية يمكن

أن تقوم ثورة فى أى يوم. يتم استهلاك الموارد بشكل زائد بسبب مشكلة فى الشرق مع الإثيوبيين واضطراب فى المراكز الغربية.

الشوارع يغمرها اللاجئون الذين اضطروا لترك منازلهم لمواجهة الموت جوعا، اندفعوا أفواجا من الأقاليم نحو العاصمة؛ بحثا عن العمل والطعام. ولكن لا يوجد ما يكفى، ولذلك يعيشون فى الشوارع، يبحثون عن الطعام بقدر استطاعتهم. يطرقون بابا تلو الآخر، وهم يحملون سلاطينهم.

لعن حاوى غبائه حيث تم تأخيره مدة طويلة بعد هبوط الليل. إنه أمر احترس منه فى مواقف عديدة؛ سحب اللفاح حول وجهه وسار بخطوة ثابتة، لا يستطيع أن يجرى بكل قوته كما كان فى الماضى. استدار عند أحد الجوانب؛ ليقترب من مجموعة من الناس تجمعت مثل حشد من الغربان على الأرض. أبطأ خطوته محاولا أن يفكر فى طريق آخر، ولكنه كان متعبا، وأى التفاف سيؤدى إلى مشى أكثر. تقدم بحذر، خفاه يضريان بخفة أخمص قدميه. لم يكن يحمل أية أسلحة ولا حتى خنجر فى جيب جوبته. وبينما هو يقترب لاحظته المتجمعون. أوقفوا ما يقومون به. استمر حاوى فى السير. ثم دون كلمة، تفرقوا جميعا، وهم يجرون ويقفزون، يفرون على ظلال الحوائط. على الأرض ترقد جثة البغل المشوهة والمتعفنة. لا بد وأنه قد مات منذ عدة أيام. فالرائحة فظيعة. لقد قلبت معدة حاوى، واندفع محاولا ألا يتقيأ على ملابسه. سوف يموتون بالتأكيد من أكل لحم كهذا. سار المسافة الباقية بسرعة وضرب قلقا على الباب حتى يدخله الخادم. ذهب حاوى فى اليوم التالى باحثا عن

القاضى ليقدم خدماته. لم يجرؤ الرجل أن يرفضه، ولذلك بدءاً من هذا اليوم كان حاوى يذهب لمكاتب الحكومة بالقرب من المجمع المركزى. أعطوه حجرة وسجادة للأرض وصندوقاً مغطى بجلد الغنم ليجلس هنا كل يوم يسمع قصصاً عن الضياع والآلام، عن البؤس واليأس. كل يوم يقول لنفسه: "يجب أن أحاول المساعدة" يصر على أسنانه ويفلق عينيه وهو يعيد هذه الكلمات لنفسه: يجب أن أحاول.

ليس لديهم شىء. ينامون فى الشوارع التى يسكنها أكلو لحم البشر والكلاب المفترسة، بأذن تستمع لنداءات التحذير: أن المجانين قادمون "جاياكم!" يصرخون إنهم قادمون إليكم. يلتقطون أطفالهم ويطيرون. فى الصباحات يأتون إلى مكتب الحكومة ليجلسوا فى صف يلى صفاً فى الشمس ويبتظرون دورهم رأوا الأنصار الصغار، شباباً صفاراً جداً على أن يتذكروا شايد. هذه الطواويس تتبخر فى ريشها الجميل، سادة العهد الجديد. أصبح الشباب يوثق بهم بدلاً من الكبار لأن الشباب يعرفون فقط ما تقوله لهم، بينما الكبار يتذكرون ومن يتذكر يستطيع المعارضة.

يوماً ما ماتت سيدة أمام حاوى. كانت امرأة من الزغاوة، زوجها جندى لدى الأتراك ولكنه انضم إلى قوات المؤمنين المسلحة عندما سقط حصن بارة وأرسل يستدعيها بعد الحرب، لم تستطع أن تجده. وسافرت عامين حتى تصل إلى هنا. اغتصبتها عصابة من قطاع الطرق، واحد وثلاثون رجلاً، لقد عدتهم. سبحت فى النهر وابتلع التيار طفلها. الآن لم يعد لديها شىء فى العالم سوى زوجها. أشار حاوى إلى الكاتب. أن يدون

اسمها والقرية التي جاءت منها وأن يضمن أن تعطى معاش أرملة جندي. ولكن لم يكن للأمر أهمية، إذ بينما تحاول الوصول لكوب ماء تشربه سقطت المرأة على الأرض مثل حزمة من العظام في كيس. نظر الحراس وحاوي والكاتب بعضهم إلى بعض. أخيرا أشار حاوي بيده إلى الحارس الواقف عند الباب. "تأكد لو..." ركم الحارس إلى جانبها، ولكن لم يكن هناك دليل على الحياة. "انظر كيف تنسل الحياة بسهولة خارجة من الباب" فكر حاوي "حركتها أقل اضطرابا من حركة عصفور".

هذا الصباح، كعادته الآن، شق حاوي طريقه كالعادة لمجمع الخليفة، مركز القيادة للحكومة ومكان يعده الناس الآن ضريحا مقدسا. كان عليه أن يكافح ليشق طريقه متقدما عبر ضغط الأجساد على البوابة. الرضع المنتحبون يتم حملهم في اتجاهه. "خذ طفلي" تصرخ المرأة "خذ طفلي فربما يعيش". يدفع الحراس الناس إلى الخلف بشدة والكرباج الطويل يسعى كالحية.

"لا تفعل ذلك" ينوح حاوي ولكن الجنود الشباب يسخرون من الرجل العجوز.

عندما دخل، عبر حاوي إلى الفناء الداخلي حيث توفر راكوبا بعض الظل لهؤلاء الذين وصلوا إلى المقدمة.

سمعت صرخات بينما يتم سحب رجل من الحجرة. كان الكاتب وهو شاحب ذو علامة على رأسه، يتعامل مع الأمر. لقد تم القبض على ابن الرجل وهو يسرق، كان سيعاقب بقطع يده. لا توجد فرصة للاستئناف، أوضح الكاتب، غير متأثر بنحيب الأب على ولده، القوانين

واضحة جدا جلس حاوى خلف المنضدة. المصرى، الذى ورث من حكومة الخليفة، كان موظفا بالفطرة، يعمل بطريقة هادئة دون تسرع ويجو يعكس دائما الاحتقار. حاوى يكرهه ولكن لا يستطيع العمل بدونه.

أدخلت أول حالة، رجل ذو وجه مربع كبير يعكس وجهه بساطة التفكير.

خاطبه الكاتب بسرعة "ما مشكلتك؟".

لمح الرجل عبر كتفه. أوضح "هذه سندات ملكية أرض".

مد حاوى يده. "هل يمكن أن أراهم".

الأوراق ملوثة بالدهن وهشة. تمزقت الأوراق المطوية وهو ينشرها. كان الحبر باهتا. سأله "أين أرضك؟".

"جلايات" الرجل الذى يقف وكتفاه محنيان، يحدق من تحت حواجب كبيرة. "مشيت الطريق الطويل من هناك إلى هنا. مات بغلى. اخذوا جياى. أخذوا زوجتى وأطفالى". قالوا: إن الأرض سيشغلها الجيش والغذاء بمتاجرى سيقدم كطعام للجنود".

"هناك حرب يتم خوضها فى هذه الأقاليم" قال: الكاتب بإصرار وهو يذكرهم: "كن سعيدا أنك نلت شرف المساهمة فى الكفاح. هذا جهاد". كان على وشك أن يرفض الرجل وقضيته، ولكن حاوى رفع يده. قال: "انتظر". وقف ونظر إلى العيون الزجاجية للمصرى. "ألا يمكن أن نساعدك؟".

لم يقل المصرى شيئاً. وظل وجهه لا يتحرك. استدار حاوى إلى الرجل. "قلت: إن الجنود أخذوا أرضك؟ أوماً الرجل مرة واحدة. عيناها الحزيتان تتبعان حاوى حول الحجرة حتى توقف واستدار موجهها حديثه إليه. قال: "أذهب إلى بيتك. لن يمكث الجيش طويلاً وسوف تسترد أرضك قريباً". اقترب. تحرك فكى الرجل الضخم ولكن لم يخرج أى صوت، لف القلنسوة الصغيرة من فوق رأسه بين يديه. نظر إلى حاوى ملتصقا ولكن حاوى لم يكن لديه شىء يقدمه. قال: حاوى أخيراً: "عد إلى بيتك. الله كريم ليس لدينا هنا معجزات اليوم".

بعد ذلك مباشرة سقط حاوى مريضاً بالحمى. ظل عشرة أيام بلياليهم معلقاً بين الحياة والموت. جسده يؤله والعرق يتصبب منه. ينقع الخادم ملاءات فى الماء ويغطيه بها ليبرد جسده، ولكنه لا يكاد يشعر بالتغير. بعث الخليفة برسول ليظل مع حاوى ويخبره إذا مات. استدعوا كل من يمكن أن يساعد، الأطباء والعلماء اندفعوا إلى جانبه؛ لأن الأمر جاء من بيت الخليفة. تمت تجربة كل علاج. حملوا البخور تحت وجهه وطلبوا منه استنشاقه، أحرقوا أوراقاً مكتوبة من القرآن، تركوا صبياً ليقرأ آيات من القرآن نهاراً وليلاً بجانبه.

قال حاوى لاهثاً: "إذا لم يقتلنى المرض، العلاج بالتأكيد سيقوم بالمهمة. إذا كانت إرادة الله فسوف أذهب". سقط إلى الخلف حيث هاجمته نوبات جديدة من الآلام. فى صباح اليوم الحادى عشر بدأ يسعل ويفمغم. النف بدأ يتقيأ. شىء يتلوى فى حلقه وصل إليه، قذف إلى الخارج بدودة طويلة رمادية اللون. جرى الخادم فى نواتر وكأن جنا

أمسك به، يصرخ ويعول بصوت عال لدرجة أن الجيران وصلوا ليواسوا أهل البيت ظنا منهم أن سيده قد توفى. نظروا إلى الدودة المستقرة في بركة القيء على الأرض وأومأوا برؤوسهم. قالوا: "إن المدينة بأكملها ملعونة". "الماء تسمم، ضفة النهر تفتersh بأجساد متعفنة ترقد موتى كالسحالي تحت الشمس. المدينة يملؤها المجانين الذين ياكلون أطفالهم".

وصل زائر في إحدى الليالي بعد شهر، شخص أشعث وغير مهندم ومنهك وقد بدا غريبا في البداية. أدخله الخادم بجو من الإنذار لدرجة أن حاوى تسأل ما المشكلة. ثم تعرف على الشيخ عباس. استغرق الأمر دقيقة ليفيق من رؤية عباس في هذه الحالة. نجح الشيخ في أن يبتسم ابتسامة ضعيفة. "عندما جئت إلي منذ سنوات طويلة ظننتك شحاذا عن طريق الخطأ. ولكن الآن أومأ إلى ملابسه، انظر إلي". أوضح أنه تم القبض عليه بسبب جداله مع وجيه من أهل البلد، شفته ترتعش وهو يتحدث.

"ماذا، هل هذه أسرتك؟" جلس حاوى ومد يده.

هز عباس رأسه نائفا "أسوأ من ذلك. قالوا: إن كل الأعمال المكتوبة ما عدا مختارات من أقوال المهدي الحكيمة" هزة رأس وهو يذكر ذلك " مواد هدامة. منعتهم من دخول مكتبتى ولهذا أحرقوها".

قال حاوى مشدوها: "ماذا؟".

"لقد ذهب كل شيء" غمغم الرجل العجوز. رفع عينيه المحتقنة بالدُم نحو صديقه. "نحن نعيش في عصر تعد فيه القدرة على القراءة جريمة،

تستحق عقوبة الموت. يا بنى كلنا فى خطر داهم". فض خرز السبحة من معصمه وبدأ يديره حول أصابعه وقال: "يقولون: إن الحصار هو الذى يجوعنا حتى الموت". أدار وجهه إلى حاوى. "كيف يمنعون الناس من التجارة معنا؟ لا بد أن هؤلاء الفرنجة لديهم حكام أقوياء".

"لديهم أموال وبنادق" غمغم حاوى "هذه الأيام تحمل هذه الأشياء القوة نفسها".

"سمعت أنه يتم القبض على عدد أكبر".

ألقى حاوى نظرة عجلى جانبه. "قبض عليهم لماذا؟". هز عباس كتفيه استهجانا ولم يحول عينيه أبدا عن حاوى. "حديث غير دقيق جدا. فالناس يغضبون من شىء ويوما ما يتحدثون كثيرا جدا وشخص آخر يجرى فى الخفاء بعيدا ليلا الأمر التالى أن الرجل ذا اللسان الثرثار يستلقى فى السجن".

سأل حاوى بهدوء: "من؟، من يختفى؟". "كل شخص" كل أنواع الناس: حاملو برقيات، موظفون، مدرسون، شيوخ من الأقاليم، خبازون، رعاة ماشية، عمال السفن. نساء أيضا" خفض صوته. "هناك جواسيس فى كل مكان. إنه يخشى المؤامرة. مال إلى الأمام. "ولهذا جئت إليك. أنت قريب منه. والناس تغار. يجب أن تكون حذرا، يا بنى، لأن الكلاب جائعة".

٢٨ - أم درمان

يوليو ١٨٩٤

"أنا محاط بأطفال كلاب وسيدات مقعدات" صرخ الخليفة عبد الله وهو يدفع ببذرة تمره ضربت بقوة إبريقا من النحاس فى ركن الحجره وارتدت إلى أعلى لتختفى بين الرفادات الخشبية المتربة للحجره ذات السقف المرتفع. جرى الأطفال والخدم بعيدا ونزلوا السلام، طار الحمام بسرعه وهو يرفرف بعصبية إلى أعلى الأسطح المشمسة.

وقف حاوى فى وسط السجادة الفارسية (التي أخذت كغنيمه من القصر بالخرطوم) ولم يقل شيئا، ليس متاكدا من سبب استدعائه، لم يعرفه الخليفة اهتماما. حالاته المزاجية السيئة أصبحت تتكرر بشكل أكبر. جانب شخصيته المنذفع له اليد العليا. انشغل فى لحن حزين طويل النفس، يندب الهزائم الأخيرة فى الشرق وفقدان مدنه القيمة. "فى البداية هذا الأحمق ديحنا خسر توكار. ثم حليلة"، لوى شفطيه عندما ذكر لقب السخرية من مساعد قويدام، الحبانى قائد الجيش فى الشرق "ذهب وهرب".

ظل حاوى صامتا.

"لماذا" زأر عبد الله "هل أنا محاط بالحمقى؟".

وفكر حاوى مع نفسه؛ لأن هؤلاء الذين يمكن الوثوق بهم كانوا أمناء، وهذا يجعلهم عرضة للانتقاد. الأقوياء، الشجعان، مثل نجومى، كنت تعدهم خطرا والآن ذهبوا. هذا عصر المتملقين. مسح الخليفة رأسه الحليقة بقطعة من القماش وجلس على كرسي كبير من الأبنوس له أذرع ومحفور على رجليه وذراعيه قدمى الأسد. أشار إلى حاوى ليجلس على أريكة خشبية فى مواجهته. ماذا؟ سأله بعد لحظة، "هل فكرت فى ركوبى الجواد فى ذلك اليوم؟" ضرب حاوى فى ذراعه فى محاولة للمرح "ساحرة، ألا تعتقد ذلك؟".

فى اليوم الذى وصلت فيه الأخبار أن الإيطاليين هاجموا وأخذوا كسالا، ركب حصانه بكل شرائط حربيه وتروسه ثم ركب جواده وسيفه فى يده حتى النهر تحوطه مجموعة من الحراس الشخصيين والعبيد والخدم يلوحون بالبنادق التى لا يعرفون كيف يستخدمونها وهم يصرخون ويهتفون وينفخون البوق ويضربون الطبول. ركب جواده مباشرة إلى داخل الماء وخمن أولا أن أهل البلد يتبعونه. ثم رفع سيفه عاليا وأعلن "الله أكبر من الإيطاليين!" وكان هناك تهليل عظيم كجواب.

حاول حاوى الآن أن يفكر فى شىء ليقوله. "على أى حال لقد حققت التأثير المطلوب".

بصق الخليفة على الأرض فى احتقار. "حاوى، أنت تضايقنى عندما تتحدث بإيجاز هكذا. هل أنا امرأة تعولها؟ قل لى ما تعتقده وإلا أخصيتك. ولا حتى هذا سيفرق بالنسبة لك" قال: مختصرا وهو يلمح إلى رفض حاوى أن يتخذ زوجة من الإماء الكثيرة اللاتى أرسلهن إليه. أخذ

الخليفة الممتلىء الجسم يزرع الحجرة جيئة وذهابا. وهو يستعد ليناقدش ما فى ذهنه. "يتجمع الإيطاليون فى الشرق والبريطانيون يستقرون فى مصر" هز رأسه بأسف. "ماذا أفعل؟" سحب سيفا كبيرا من قراب معلق على الحائط، ولكز بطريقة خرقاء كومة أعلام غير مألوفة على الأرض. "البلجيكيون!" طعن "هم على بعد أربعة أيام". من السير من حفرة النحاس. هذه الأعلام أرسلها عربى دافالاح. Arabi Dafallah يقول: إن البريطانيين والبلجيكين يتحاربون عند مستنقعات خط الاستواء". اهتز الفخدان الثقيلان بالمرح. "هل تتصور؟ هؤلاء الكفرة يحاربون بعضهم بعضا من أجل أرضنا". لوح بشفرة السيف بشكل مستدير. "قلعج الله طريقهم إلى النار".

فكر حاوى فى الأمر. "هل تتوقع أن يعود الإنجليز". حتى الإنجليز لا يمكن أن يستقروا فى القاهرة ويلمعوا أحذيتهم فيها إلى الأبد".

ذهب عبد الله ليقف عند النافذة وهو يزن السيف فى يده. "لا تبدو نهاية لرغبتهم فى أن يستولوا على أرض ليست ملكهم". استدار إلى حاوى بنظرة متحيرة على وجهه. "هل تعلم أننى كتبت لملكهم لأخبرها عن رسالتنا" نظر بخيبة أمل. "لقد أخبرتها عن المهدي والرؤى وخيانة الإيمان الحقيقى، عن الفساد والقمع اللذين عانيناها فى هذه البلاد".

فحص شفرة سيفه بدقة، وألقاه بعيدا. "المنافقون! إنهم لا يهتمون سوى بالاستعباد. لم أسمع عن تركى ليس لديه عشرون عبدا له وحده".

تنحنح حاوى وسأل بحذر: "ماذا، سيحدث إذا عادوا؟".

"الإنجليز؟" رفع الخليفة حاجبيه فى بعض الشك واستبعد التهديد .
أنا أهتم أكثر بأمر الإيطاليين سأرسل خطا جديدا من الإمدادات
العسكرية إلى عطبرة ليدعم حليلة. الله وحده يعلم ماذا يعتقد الإيطاليون
أنهم يفعلون هناك".

فجأة جلس بثناقل ومسح وجهه بيده. "لقد تعبت من هذه الحرب"
تنهد "لا أحد من جنرالاتي ينفذ أمرا دون جدال. يتعاركون بعضهم مع
بعض طوال الوقت بدلا من مواجهة العدو. استمع لأصواتهم، واصل
وهو يهمس. "أنتظر الرؤى لتقودنى، مثلما كانت تفعل فى الأيام الأولى".
وقف وحك بطنه، محمقا فى قدميه بالطريقة نفسها التى قد يحملق بها
فى بئر جافة. "أحبيته كأخ. عندما التقينا، كأن كلاً منّا تأه فى طريقه،
غير قادر أن يجد طريقا يشقه وحده. ولكن معا كنا لا نغلب. سرنا فى
شهر رمضان، عبر المطر من أبا إلى جبل جدير. كنت إلى جانبه. كل
مكان نذهب إليه يأخذ الناس أيدينا ويعانقوننا. يسقطون عند أقدامنا
يتوسلون إلينا أن نأخذهم معنا. لم يكن لدينا شىء، لا طعام ولا ملابس،
ولا مال فقط قليل من بنادق أو ستريتش قديمة. صوته يضعف تدريجيا.
من بعيد يستطيع حاوى أن يسمع صوت باخرة يدمدم عبر النهر. لم
يكن من المتوقع أن يموت، ليس مبكرا هكذا" سقطت ذراعى الخليفة
منهكة على جانبيه وهز رأسه. "ليس مبكرا هكذا".

بينما خرج حاوى من الحجرة بسلاسة كانت يدها ترتجفان. نزل
السلام وعبر من ظل المنزل إلى الضوء القوى الذى يملأ القناء. سمع
أصوات النساء يتشاجرن فى مكان ما، بعض من الدجاجات تنقر فى
الأرض الجافة. فتح الحراس البوابة ليدعوه يخرج وعبر وهو يتنهد
مستريحا إلى الشوارع حيث يسير الناس.

الجزء الخامس

الردة

٢٩ - القاهرة

١٨٩٦

الشموع تومض فى أنيتها الزجاجية الزرقاء وبدا أن الحجرة ترتجف. الساعات الأولى من صباح الثالث عشر من مارس ١٨٩٦، الفرقة الموسيقية تعزف طوال الليل معزوفة أصبحت شعبية بفضل رجل اسمه بلال عبد التواب يعرف باسم ساحر النوبة. لا أحد فى نادى أنوبيس تعرف على الأغنية إلا النادلين الذين يمرون بين المناضد وهم يطرقعون أصابعهم حماسة مع الأغنية الساحرة والموحية. ضباط القوات المسلحة لجلالة الملكة سكارى. الخلفية الموسيقية جزء من غطاء غامض هبط عليهم منذ وصولهم. إنه غزو نشيط: إنهم هنا باسم الله والاستقامة. فى وسط الحجرة تجلس مجموعة كبيرة سوقية تطفى على الأحداث. الملحقون البلجيكيون فى السفارة تركوا المكان سريعا مع زوجاتهم الرزينات اللاتى يرتدين الجلد، وهم يغمغمون مضجرين عن مؤامرات فى منطقة خط الاستواء، ويعلقون على الطبيعة الوحشية لأبناء عموماتهم عبر مجرى النهر. فى الجانب البعيد من الحجرة، المالك القبطى، شعره ينسدل إلى الخلف على هيئة قبة لمساء، يمتص بعمق من الشيشة التى تخرج منها الفقاقيع ويوجه حملقته الغاضبة إلى المجموعة الآثمة.

فى وسط مجموعة الرجال السوقيين، رائد شاب قبل الأوان، تحيطه مجموعة من الشباب الخياليين يسليهم بقصص التظاهر بالشجاعة وسيفقدون وقارهم حالا ويعوون ضد التيار مثل كلاب الدموم المسعورة.

فى أحد عشر عاما تغير الرائد هاميلتون قليلا فى المظهر الخارجى. اكتست وجنتاه أكثر باللحم، ربما ثنيات أعمق تحت العينين، وعدد من الشعر الأشيب. لقد بلغ ستة وثلاثين عاما ولكنه غير مستعد تماما ليعترف بالهزيمة بعد. فهو أيضا لديه رسالة.

"إستراتيجية جوردون كانت بعيدة عن الهدف"، شخص ما ينهق. إلزورث يتثاب، ثم من البراندى. الأصوات تضايق أذنيه.

"هدوء" جرس آخر يقرع. "عندما ذهب ولسلى إلى هناك، كان يجب أن يشنوا هجوما كاملا على الخرطوم ويردوا همج الصحراء على أعقابهم".

تذمر إلزورث وهو يقوم فجأة وقال: "نسيتم". فاستدارت إليه كل الأعين وتمنى ألا يكون قد فتح فمه. طرفت عيناه ولحق شفثيه. "خطوط الاتصال.. قطعت". دارت عيناه حول الوجوه الشابة يبدون بالشكل الذى كان يجب أن يبدو هو عليه. وأضاف: "لا دعم سياسى من الوايته هول". أوماً الراقصون بعضهم إلى بعض. "حسننا لقد كان طائرا غريبا فعلا" علق أحدهم. بدا الآخرون موافقون على رأيه. أحدهم بدأ يقهقه.

"وحدى" قبضة إلزورث تحطم المنضدة، وهى تجعل الأكواب والنادالين يقفزون. حدق بعينين نصف مغلقتين فى لهب الشمعة. "هجروه. تركوه وحيدا. وحيدا تماما".

تطوع هاميلتون لزورث لهذه الوظيفة، رغم أنه لن يستطيع إذا سأل أن يوضح سبب ذلك بالضبط. حضر يوماً منذ ثمانية شهور وبدأ يتسكع عند ضباط الأركان، ويزعجهم من أجل أن يعود إلى العمل. كل هذه السنوات وقليلون هم من يتذكرونه. كان يقطن في مساكن رخيصة كريمة بالقرب من السوق. عندما سأله لماذا يريد أن يعود في هذه المرحلة من الحياة، قال بأمانة تامة: إنه ليس لديه شيء أفضل يقوم به.

بدأ يحلم بالنهر رغم أنه لم يحاول أن يوضح هذا للضابط المسئول عن التجنيد. لا يستطيعون أن يرفضوا رجلاً لديه هذه الخبرة، ضبطوا درجته ومرتبته بحسب سنه ثم واصلوا تجنبه. قال بعضهم: إنه عاش طويلاً في الأحياء الفقيرة وأصبح من أهل البلد. همس آخرون، زوجته أصيبت بالجنون، وبالتالي هجرها. أصبح أصدقاؤه الضباط الأصغر، فهم شباب أكثر شغفا وأقل إدراكاً.

في الصباح التالي لجلسة الشرب في النادي، استدعى القائد لزورث لاجتماع عاجل لضباط الأركان. كانت الصالة مزدحمة؛ لأن الدعوة لهذا الاجتماع متوقعة منذ فترة. بعد الإجراءات الشكلية المعتادة أعلن أنه في الساعة الثالثة من صباح اليوم السابق (تقريباً الوقت نفسه الذي كان فيه لزورث يتقيأ في درب بالقرب من المسجد الحسيني)، السردار لواء كيتشنر تلقى الأوامر التي كان ينتظرها. وصلت برقية من لندن تجيز التقدم إلى منطقة دنقلة التي تقع تحت سلطة المهدي البعيدة عند أكاشا، ومن المحتمل أنهم سيواصلون إلى الخرطوم. كان هناك تهليل ولكن لزورث لم يتأثر.

إذن سيتم الانتقام لجوردون. منذ سنوات قليلة تذكر، كان سيبتلع ذلك. ولكن الآن يشك في الأسباب الخفية.

تأكدت شكوكه عندما، وكأنه يقرأ ما يفكر فيه، خطا كولونيل ونجت القصير القوى إلى الأمام. رفع ذقنه. "أيها السادة نعتقد أن المهديين عقدوا معاهدة فظيعة مع الملك الإثيوبي مينيك. النيات واضحة - تحرير البلاد من كل المسيحيين". خفض صوته. "الإيطاليون يأخذون طعنات كثيرة من الدراويش ونحن نرغب أن نقلل بعض هذا الضغط بالتحرك عبر النهر إلى منطقة دنقلة". أشار إلى خريطة موضوعة على حامل إلى جانبه. "إن الإيطاليين يطلبون مساعدتنا منذ فترة وقد أنجزوا عملا مهما بتأسيسهم مواقع في إريتريا. الآن استولوا على كسالا لنا وأعتقد أنه يجب أن نعطيهم شيئا في المقابل". حلق نحو كيتشنر، الذي يقف ووجهه متحجر التعبير، وعيناه كالصيني المصقول يستمع لضابط استخباراته وهو ينفذ الأمر. مسد ونجت شاربه واستغرق ثانية ليفكر في موضعه. قرر أن يقوم بانسحاب تكتيكي. "تقاريرنا تقول: إن قوات الخليفة متناثرة، تواصل ضعيف، وروح معنوية منخفضة".

في هذه المرحلة أعطى المنصة لكيتشنر، وهو الذي كانت رسالته قصيرة ومباشرة. "لا نقللوا أبدا من قوة هؤلاء المتعصبين" خفض صوته. "من منكم رأوا عمليات في المناطق الجنوبية سيعرفون، ولكن كثيرا منكم جدد ويمكنني فقط أن أكرر ما قيل من قبل. الدراويش العادي مخادع مثل ثعبان زيتى وله قدرة مميتة مضاعفة. لقد كان الجنود يفقدون حياتهم عندما يذهبون لمساعدة زميل جريح. فالدراويش يمكنهم أن يخنفوا تحت أصغر حجر وهم رشيقون كالقروذ".

"مدفونون فى الرمال ونشيطون عندما يعودون إلى الحياة، وعادة ما يكونون سميكي الجلود عندما يموتون" أتى صوت من الخلف ليقابل بموجة من الضحك الخفيف.

صمت كيتشنر دقيقة قبل أن يجيب "خبير رسائل. حسنا السيد كيبلينج Kipling قد يريحكم بعض الشيء ولكن لن أحاول أن أقتبس كلامه لأهل البلد". من طرف عينيه رأى شيئا كابتسامة متكلفة على شفתי ونجت؛ خداع ضوئى، ربما؟ أدرك إلزورث حقيقة كل ذلك. الإيطاليون ينهزمون فى المعركة. لقد خسروا أنوا Adowa أمام الإثيوبيين، وإذا لم يرفع عنهم هذا الضغط، سوف يفقدون كل شيء. ليس للأمر إذن علاقة بجوردون إنه يتعلق بالأرض. اقترب من النافذة ليسمح للنسيم الذى يهب من النهر بأن ينعشه. حينئذ، وكأنه من مسافة بعيدة، سمع صوتا ينادى اسمه. استدار من النافذة ليجد أن الحجرة باكمها تحمق فيه.

"رائد إلزورث؟" نادى ونجت. Wingate "ربما تود أن تضيف شيئا إلى ما قيل؟".

"ماذا؟".

ابتسم ونجت مشجعا. "باعتبار أنك من القلة المحظوظين الذين غامروا بالدخول فى منطقة المهدي وعادوا سالمين".

ذهن إلزورث مرتبك. تبين ملاحظة ساخرة فى الجملة الأخيرة، وتعلقت أفكاره بهذا الأمر وتشوشت.

هل يضحكون عليه؟

"أيها الرائد؟".

بدأ الحاضرون يلکزون بعضهم بعضا ويميلون ويتهامسون. هر رأسه ليحرر ذهنه. "أنا..." بدأ. حاول أن بيتسم، ولكن النتيجة كانت كما يعرف فظيعة. "إن..." همهم محاولا أن يحرر الكلمات من عقدة ذهنه. "لا شيء".

انصرفوا وتنهد تنهيدة راحة. وبينما صوت ضابط آخر يسرد بطريقة رتيبة اللوجيستيات إلخ، شعر بعيني كيتشتر عليه.

فى هذه الليلة جلس فى ركنه المعتاد فى نادى أنوبيس.. المكان شبه خال وبه جو هادئ وكأنه مكان مهجور. كان مستغرقا فى تناول زجاجة البراندى ووصل إلى مرحلة الشعور بالخفة عندما تخيل أنه يفكّن أن يقود وحده القوة بأكملها عبر مجرى النهر ويستعيد الخرطوم دون أكثر من حفنة من الخسائر البشرية من الجانب المصرى. أوقظ من حلم اليقظة بوصول اثنين من زملائه برتبة ملازم أول لمنضدته. من خلال تحياتهم المألوفة ومزاحهم دون توقيف قرر أنه لا بد وأن يكون قد التقى بهم من قبل. جلسوا دون أن يطلب منهم وبدعوا فوراً ينادون بأسلوب فحج النادل الذى كان نائما على كرسى عند البار. لم يكن إلزورث فى حالة تسمح له بالتسلية. لاحظ أن جو النادى تحول بوصول الأجنبيين صاحبى الصوتين الصاخبين. أعضاء الفرقة الموسيقية التى كانت تغفل، بدعوا يتحركون على مقاعدهم والمالك، بطريقة وقحة، يركلهم ويطلب منهم أن يقوموا بالمهمة التى يدفع لهم من أجلها.

هدأ الجنديان إلى حد ما عندما وصل البراندى، رغم أنهما ضايقا النادل عندما أطلقا مزحة خاصة عليه. رأى إلزورث المالك ينظر إليهم من الركن. مال إلى الأمام. "استمعوا يا رجال" بدأ، وهو يدرك فقط إلى أى مدى هو ثمل فى اللحظة التى فتح فيها فمه ليتحدث. "لقد رأيت الناس يتم طعنهم عند عودتهم إلى المنزل من هذا المكان لأنهم ضايقوا شخصا أو آخر".

"أول قرد دموى يحاول أن يفعل ذلك معى ستأتيه العقوبة" أجاب أحدهم وهو يسحب بصعوبة مسدسا كبيرا من جيبيه. قهقه الثانى موافقا. نظر إلزورث إليهما وكانهما من كوكب آخر. لا بد وأنهما أعتقدا أن تعبيره قصد أن يذكرهما برتبته؛ لأنه مع قدر كبير من تعديل وتسوية ستراتهم جلسوا وهم منتبهين.

"أعتقد أننا الجيش المحتل هنا" قال: الثانى وهو يعوى معاندا:

"إنه موقف مخادع. كما أننا لسنا كذلك أيضا. إن البلد ليست جزءا من الإمبراطورية البريطانية" إلزورث، الذى لم تكن حالته المزاجية تسمح له بالحديث، استبعد الأمر بحركة من يده.

"ولكننا تقريبا نمتلكها" قال: الرجل الآخر وهو ينظر إلى صديقه ليصدق على كلامه: "إلى حد إدراكى فإن الأمر كذلك".

أخذ إلزورث رشفة أخرى من البراندى وقال: "شئ من هذا القبيل". كان الأسهل أن يوافق.

الشخص الآخر تحدث الآن، وهو يدفع وجهه إلى الأمام، أحمر وغاضب من الشمس. "نحن الذين سنذهب إلى هناك لنقبض على تاجر

الموت الدموى، هذا الخليفة". كان الزورث يجد صعوبة فى أن يركز أفكاره. "حسنا، من المتوقع أن يدفعوا التكاليف، سواء الآن، أو فيما بعد، جنودهم وضباطهم سيحاربون إلى جانب وحدات الجيش البريطانى النظامى". ضحك الرجلان على هذا واستدارا أحدهما إلى الآخر، وغمزا بعينيهما قال الأول: "أوه نعم، وسوف يكونون مساعدة دموية كبيرة".

أصبح صوت الزورث أجشاً. "إنه طريق طويل من هنا إلى هناك، يا سادة، وعندما يحين الوقت سنحتاج إلى كل رجل نستدعيه". أخذ نفسا عميقا، وهو يشعر أن الحجرة بدأت تدور. كان هناك صمت ثم مال الجندى الثانى. "أقول يا سيدى"، قرقر. "لقد كنت هناك. ما الحال حقا؟".

بعد دقيقة من التأمل، أجاب الزورث: "لحظات الغروب تستحق أن يموت المرء من أجلها. إنها مثل الموسيقى الجميلة، الضوء يخبو بالطريقة التى يستنزف بها وجه المرء من اللون عندما يسقط وهو ينزف حتى الموت على الرمال". فقط عندما انتهى من حديثه أدرك أنهم يضحكون عليه - ينظرون إلى جانبهم ويجزون على أسنانهم، ويكشرون مثل صبية المدارس. ما حدث فيما بعد كان ضبابى. أمال الزورث المنضدة الرديئة وهو يقف. استطاع أن يسحب مسدسه ويطلق رصاصتين قبل أن ينقض عليه النادلون والفرقة الموسيقية. لثانية سريعة انطفأت كل الأنوار ثم سقط على ظهره فى مجرى هزيل من ماء قذر يجرى عبر الزقاق فى الخارج. وقف على أقدامه وهو ينقض الغبار عن ملابسه. فى وقت تال بينما يتجول عائدا إلى مسكنه، استعاد بوضوح شديد تفاصيل عودته إلى مجرى النهر منذ أحد عشر عاما.

٣٠- النيل سبتمبر ١٨٨٤

(منذ أحد عشر عاما)

الليل مظلم. النهر يشق طريقه مثل أجنحة مخملية والمرء لديه انطباع أنه يجلس بطريقة مقلقة على حافة الهاوية. الحديد يصر وضلع من أضلاع المركب ينن، الآلة ارتطمت صامته فى رعب تام. الأصوات تكسر هذه الفترة متسائلة عن حجم الدمار. مقدمة السفينة تنتأ مشرفة على شفة الشلالات الصخرية. الزورث هناك فى الهسيس الخافت الكئيب لأنوار العاصفة، هيكل إنسانى ضبابى فى الخلف يراقب.

الكابتن لديه مخاوفه. عيناه وأذناه تستمعان فقط للنهر الذى يدور كدوامه حولهم، فهو زوجته وعشيقته وسيده. يشعر أنه ينقلب ضده ويتساءل ماذا فعل ليخون ثقته. وعرج إلى حيث المراقب يمد عنقه إلى الأمام نحو مقدمة السفينة المقواة. استدار الصبى وهز رأسه. إنهم على الأرض. لا يمكن أن يقوموا بشئ.

"يجب أن ننتظر حتى الصباح يا سيدى"، يقول الريان الشلالى معتذرا، وهو يشعر بعظمة بائسة من الخزى تلتصق بحلقه: إنه آخر صف طويل من القباطنة الذين أبحروا فى هذه المياه منذ عصر كليوباترة

أو هكذا يقول. والصخرة التي يستندون إليها قررت هذه الليلة من بين كل الليالي أن تتحرك. لعن حظه.

صوت، كئيب وضعيف، يأتي من الضفة "كولونيل ستيوارت؟ ستيوارت باشا؟".

الجسد المتصلب لمقدم ستيوارت يتحرك إلى السور الجانبى للسفينة. حدق فى اتجاه المصباح المتمايل. حدد المكان ورفع منظاره. مجموعة من هياكل بشرية مبهما، السحاب الرقيق الأزرق المتكتل فى ضوء النجوم، يحتشد حول مصباح زيتى مثل الفراش. "نعم" يرتد الصدى وكأن الظلام بئر عميق.

دار حوار بين القبطان والرجال على الشاطئ. يبدو الصوت شبه مألوف بالنسبة لإلزورث.

"هل أنتم غارزون؟".

"صخرة أعاقتنا".

"المياه ضحلة هذا العام".

"نعم والله هى كذلك".

"ماذا ستفعلون؟".

"ماذا بوسعنا أن نفعل؟ علينا أن ننتظر حتى الصباح".

"حسنا، لماذا لا ترسلون الآخرين إلى الشاطئ؟".

"لا، يجب أن يظلوا بالسفينة، فالوضع ليس آمنا".

"ما الذى ليس أمانا نحن أصدقائكم، كيف تعتقد أننا عرفنا أنكم قادمون؟".

"من يدري".

"أنا أقول لك، أرسلهم إلى الشاطئ. لدينا طعام ونيران، ومكان لهم ليستريحوا فيه. أنتم ضيوفنا هنا ونحن نصر على ذلك".

"شكرا لك يا أخى".

"اسألهم فقط، قل لهم ما قلته واسألهم. قل لهم: إننا نصر على أنهم ضيوفنا، الرحلة طويلة والمرء يحتاج إلى الراحة. أليس لديكم نساء على سطح السفينة؟ لا يمكنكم أن تطلبوا من السيدات أن يقضين الليل على ظهر السفينة التى ربما تفرق فى أية لحظة".

"تفرق؟ من قال: أى شىء عن أنها تفرق؟ هذه سفينتى".

"حسنا إنها لا تبدو جيدة جدا من هنا. على أى حال، من الأفضل أن ننتظر حتى بزوغ الضوء".

ستيوارت يخطو جيئة وذهابا. همهم للجنود القلائل الذين يضعون البراميل على جانب السفينة قائلا: "سددوا بنادقكم على هذه المجموعة".

إلزورث يسأله: "شرك، يا سيدى؟".

ستيوارت عابس. إنه فى موقف صعب، السفينة تحتاج أن ترفع من القاع. كلما أزالوا الحمل كانت الفرص أفضل. أمامهم أقل من يوم رحلة فى النهر ليصلوا إلى معسكر كيتشنر ورجاله وليس بعيدا عنهم بقية بعثة

ولسلى للنجدة السحرية للمدينة المحاصرة. لن يجرؤ أى درويش على محاولة القيام بأى شئ مع مثل هذه القوة الكبيرة القريبة بهذا الشكل، بالتاكيد. "ليس لدينا خيار" قرر وهو يستقيم فى وقفته. "أخشى أننا سنضطر للثقة بهؤلاء اللصوص السود اللعناء هذه المرة".

هرين Herbin، القنصل الفرنسى، يقف فى أحد الجوانب. وضع يده وهو غير مكترث على سور المركب ويمكن للمرء أن يتخيله وهو يقف بالطريقة نفسها فى قاعة رقص فى باريس يرتدى بذلة حريرية ويمسك كوبا من الشمبانيا، وهو يسوى سبلته مثل قط. إنه ليس مجنوناً. لقد عاش شهوراً فى خطر. وعلى الرغم من أن أمامهم أقل من مائة ميل، فإنه قد تملكه الشعور بالخطر ونال منه القلق. لقد أثبت القباطنة أنهم رائعون فى عملهم. حتى استطاعوا أن ينزلقوا بسهولة عبر صخور الشلالات دون مشكلة أو عائق، هناك فقط واحدة من هذه العوائق متبقية وهذه كما يفهم بسيطة مقارنة بسبالوجا Sabaloga وبقية هذه الصخور التى اجتازوها. نادى على القبطان الشاب. يعلم أن ستيوارت، رغم أنه ضابط ممتاز وكفاء، لا يحبه. وهو يرجع ذلك إلى كود عسكري بريطانى غريب لن يفهمه أبداً. من الواضح أن الرجل شعر بالذنب؛ لأنه هجر قائده المحترم، الذى من المحتمل أن يكون نبيلاً ولكن بالتأكيد شديد الحماسة جنرال جوردون. تركوه فى الخرطوم حيث أى امرئ يملك مستوى متوسطاً من الملكات كان سيدرك أنه جنون خالص أن يظل محاطاً مثلهم بمليون متوحش متعطش للدماء يعد كل الرجال البيض شياطين كفرة ويرى أن واجبه أن يقطع رؤوسهم بسكين متبلد ويطعم بها قطعة قطعة أبناء أوى. لقد أوضح كل ذلك لإلزورث فى المساءات التى

قضوها معا فى الصالون المؤقت الضيق الذى تم إمداد السفينة به
لراحتهم.

"أيها النقيب، ما تقييمك للموقف؟".

"حسنا يا سيد" والزورث يتحدث الفرنسية بامتياز - وهو سبب آخر
يجعل هربن يحبه "كولونيل ستيوارت يرى أنه يجب أن نثق بهم".

ابتسم هربن للرجل الشاب "وأنت يا نقيب ماذا تعتقد؟".

لم يكن الزورث يعرف ماذا يعتقد. لا يود أن يضع قدمه على
الأرض خشية أن يتوه مرة أخرى. هز كتفيه "يمكن أن نحضر خيولا
وإبلا ومرشدين ليأخذوننا بقية الطريق إلى ميرو Merowe. لا يمكن أن
نستمر بهذا الطريق. السفينة قد يلحق بها دمار يصعب إصلاحه".

يقول هربن بابتسامة بارقة وهو يضرب بيديه على جانبيه مثل طائر
البنجوين: "إذن، ليس لدينا خيار، كما تقول".

يرى فقط أن الرجال العسكريين قادرين فقط على العمل كروابط
فى سلسلة القيادة. هذا رغم الصفات التى أظهرها الزورث حتى الآن.
"يا نقيب سوف أجمع أصدقاءنا اليونانيين وسوف نستخدم مواردنا".
يغضى على الأمر وهو يستدير قائلاً: "لم أعرف عربيا لا يبيع جدته،
بالثمن المناسب". ثم اختفى داخل الصالون، حيث التجار لا يزالون
منشغلين يقامرون بثرواتهم.

عندما سحبت السفينة الصغيرة إلى الجانب كان بها فقط ثلاثة
رجال، اثنان عند المجاديف، ورجل أشيب أكبر سنا عند مقدمة السفينة

يحمل مصباحا صغيرا ساعده أن يصعد على متن السفينة. لاحظ الزورث أنه لا يرتدى الجوبا الخضراء المرقعة الخاصة بالدرائش ولكن جوبا بيضاء نظيفة وعلى كتفيه شال حريري ولفاع راق يلتف حول رأسه. كان يرتدى ملابس تليق بالموقف - متأنق بشكل زائد قليلا ربما. ولكن في نمط محبب. بدأ يتحدث رغم أنهم طلبوا منه أن ينتظر وصول مترجمين. "احضروا المصرى" استدار ستيوارت وهو ينطق بالكلمات للمرة الثالثة.

عندما وصل الضابط المصرى أخيرا، تفوح منه رائحة البراندى حيا كل الموجودين بأسلوب متفطرس قبل أن يستدير إلى الرجل العجوز، الذى يحنى رأسه فى صمت. نظر مندهشا إلى الضابط.

"حسنا أيها الرجل العجوز، ماذا ستقول؟".

بدأ الرجل يبتسم، ثم غير رأيه وتخلى عن الفكرة عندما رأى تألقا فى عيني الضابط. "أتينا فى حالة سلام" همهم وهو مذهول ينظر حوله إلى سطح السفينة. ولمس بيده قلبه ورأسه. "نحن لا نحارب المصريين، فهم إخواننا، ولا الأتراك ولا الخديوى ولا الإنجليزى أو الفرنساوى". تضاعل الرجل العجوز تدريجيا عندما شاهد عدم صبر المصرى. حينئذ تحدث فى الأمر مباشرة وبإيجاز. "لا تستطيعون البقاء على السفينة، سوف تغرق فى النهر قبل الصباح". استدار المصرى وترجم بدقة للأخرين.

"اسأله إذا كان لديه خيول وإبل تكفيها".

كم عددكم؟ سأل الرجل العجوز، وهو ينظر إليهم من أعلى إلى أسفل مثل خياط يقيس زبونه. تلى ذلك جدل إذا ما كانت هذه المعلومات سرية أو لا.

"يجب أن يعرفوا إذا كانوا سيساعدوننا".

"كولونيل، ليس لدينا خيار" تدخل هربن أخيرا. "إذا كان هذا الرجل صادقا إذن لا يجب أن نخاطر ونفضبه".

"سيدي" أجاب ستيوارت بأكثر أساليبه قسوة أنت مدني وهذه مركب عسكرية. أذكرك أنني سأظل في القيادة وسوف أقدر إذا كنا نفشى معلومات قد تفيد العدو.

"بالتأكيد" بدا فرانك ياور مراسل جريدة التايمز في الحديث "لن يؤذوننا. الصف الطائر على بعد أقل من مائة ميل". كان لديه عادة سرد الأشياء الواضحة، ولكن كان يتلقى احتراما في فليت ستريت. "الكل يعلم أن الخطة سوف تخفق حالا. فى أسوأ الأحوال سيأسروننا، ولن يستغرق الأمر وقتا طويلا قبل أن يصل فرسان ولسلى ويحجروننا". ربما سحرته فكرة أن ياسر - رؤى تقارير تومض أمام عينيه. إلا أنه بالنسبة للآخرين فإن المسألة ليست لها الجاذبية نفسها.

استدار كولونيل ستيوارت إلى المترجم المصرى. "أخبر الشيخ أنتى سأحضر إلى الشاطىء مع مجموعة صغيرة لتفاوض حول التفاصيل وسوف نكافئه على أى مساعدة يقدمها لنا".

كان واضحا من عيني الرجل العجوز أن هذا الأسلوب اللفظ لا يعجبه. أوماً بأسلوب الواثق وعاد المصرى بإجابته: "كلكم ضيوفنا

المبجلون وسوف نقدم لكم الطعام والمأوى حتى الصباح حيث يمكنكم مواصلة رحلتكم عبر أرضنا. حتى لا يقال إن أهالي سلامات لا يرحبون بضيوفهم".

"سنرى" أوما ستيوارت الشكاك.

تمت الاستعدادات "سأخذ عشرين رجلا ومن منكم يحرص أن يأتى. إلا أن نصيحتى أنه فى هذه المرحلة من الأكثر أمانا أن يظل المرء على سطح السفينة العباس حتى نرى كيف حال الأرض". استدارت عيناه إلى شريط الشاطئ المظلم حيث مصباح وحيد لا يزال يومض فى العتمة. الصخور والسماء تبدو منحوتة من الحجر نفسه والنجوم تحرق فيهم مثل ألف زوج من العيون بعيدة ومجردة.

أسقط فرانك باور سيجارته على سطح المركب وطحنها بكفيه "لا تعتقوا أنكم سوف تنصرفون وتتركونى على سطح سفينة تفرق". اكتسى وجهه بتكشيرة متوترة زاحفة لم تجعل أحدا يحبه. تنهد ستيوارت. خطا هربن إلى الامام. "أنا أيضا يجب أن أتى، أخاف يا كولونيل".

"لا شىء تخاف منه، مسيو هربن" قال باور ساخرا: "تدريب رياضى قبل أن نقابل الصف الطائر سوف يفيدنا. نحن بين يدي أفضل ضباط الملكة". يبدو أنه فى هذه النقطة على الأقل كان كل الركاب الآخرين يتفوقون معه. لقد اختاروا جميعا أن يرافقوا المجموعة. فقط الزورث تركوه على سطح المركب مع خفنة من الرجال وطاقم السفينة.

سمع الزورث الأصوات وهى تتلاشى فى الليل الأزرق المظلم وهو يراقب من الكوبرى الصغير. كانت هناك حركة من المصباح ثم ذهبوا. هب النسيم برقة عبر شعرات خلفية رأسه. طار خفاش وهو يصير عاليا.

زحف الليل ببطء، تطن الريح عبر الصخور. شىء لامع وأسود يتحرك عبر الماء جذب طرف عينه. "تمساح؟" فكر. صدر صوت ضحك من أسفل. قال له شخص ما: إن كثيرا من أطقم النهر لا يستطيعون حتى العوم. إذا أرادوك، جن النهر سوف يأخذونك، لا يهم كم أنت سباح ماهر."

كانت الساعة الثالثة صباحا عندما بدأت السفينة تهتز. كان نصف نائم، مائلا على ضلع المركب الذى يدعم المقدمة. انتظر علامة أخرى، تأكيد. تمايلت مؤخرة السفينة مرة أخرى. الاتزان يتغير. شغلوا المحرك، صاح صوت فى رأسه. شىء ما يصطدم ببدن السفينة سمعه مرة أخرى. تميل مؤخرة السفينة مرة أخرى حيث أمسك بهم التيار، كانوا يفرقون ببطء فى الماء وصوت تحطم من أسفل. هل هذا الماء يندفع إلى مخزن السفينة؟ فجأة كان هناك اضطراب فى الدفة والقبطانان يتجادلان معا يعانيان لكى يتحكما فى العجلة. وقف على أقدامه "ارفعوا الباخرة إلى أعلى" نظر إلى أسفل حيث جذبت عينيه حركة أخرى. "الأضواء!" صاح. "نحتاج إلى الأضواء!"

يتحرك الآخرون عبر سطح السفينة فى اتجاهه. استدار وتلعثم، ركع وشعر بشىء مبلل ولزج. سحب مسدسه بالضبط حينما جاءت صيحة من مكان ما فى مقدمة السفينة. كيف جاؤا إلى سطح السفينة؟

أطلق رصاصة فى الهواء وأسرع إلى السلم القصير المؤدى إلى الكوبرى. اختفى القبطانان تاركين العجلة تتأرجح يمينا ويسارا. اهتزت المركب وترنحت، وهى تميل بقوة نحو اليمين. ثم سحبهم التيار فى النهر من مقدمة السفينة، تزيد السرعة وهم يذهبون. سمع طلقة من مكان ما، واستدار ليجد صبيا عمره ليس أكثر من اثنى عشر عاما، يحمل خنجرا فى يده ويأتى نحوه. رفع مسدسه وأطلق الرصاص. قبض الصبى على رأسه وصرخ. العجلة تطرق الآن، وكأن الشيطان يطرق بالعظام على جزع شجرة. هبط الزورث السلم ليجد المركب مغمورا بالماء ذى الرغاوى الطينية التى تصل إلى ركبتيه. كان هناك اصطدام فظيع لأنهم ضربوا بعنف فى الصخور. موجة من الماء ضربته لتلقيه على ظهره. ثم شعر بيد ترفعه، وتدفعه إلى الجانب، خفيفا مثل ريشة فى النسيم. مد يده بطريقة تلقائية لتقبض أصابعه على ضلع من أضلاع المركب، قطعة من الدرع مفككة. تشبث بها وهو يلهث يلتمس الحياة وطفا فى اتجاه مجرى النهر - عيناه متسعتان وأذناه يملؤهما صوت صخب وزئير العالم الذى أصبح مجنونا.

عندما عاد إلى إنجلترا، لم يذكر أبدا تجاربه، سواء بشكل عابر أو لزوجته. كان يتم تقديمه فى الحفلات على أنه الناجى من الخرطوم. الصحف تطلب قصته بشكل متزايد، ولكنه رفضهم جميعا. أصبح نكد المزاج كئيبا ومنطويا، وهى حقيقة سممت تدريجيا بقية حياته والمحيطين به. كان يتذكر وكأنه من مسافة بعيدة الأيام التى لم يكن فيها شىء أكثر أهمية من حبه لإميليا تماريند والذن. الليلية التى قضاها يتجول تائها

مع سبراتلنج. لم تكن تمر ليلة دون أن يفكر فيها ويتساءل إذا ما كانت ستنتظر عودته. لم يكن هناك أحد في العالم أكثر منها يود أن يشاركه قصته، ولكن الآن، هل يمكن أن يتوقع منها أن تفهم ماذا كانت تمثل بالنسبة إليه؟ لقد كانت قلقة عليه عندما عاد حزينا وكئيبا ولكن كلما حاولت أن تعبر عن تعاطفها أدرك استحالة المهمة. محاولاتها لتهدئته تحولت سريعا لتعطيه إحساسا بالاختناق.

لقد انتظرت حتى عندما أعلن أنه مفقود. تزوجا بعد عام من عودته. كان والدها يموت ورغبت أن يراها مستقرة قبل أن يرحل عن هذا العالم، رغم حقيقة أنها كان يجب أن تشك في بعض التغيير في شخصية حبيبها حين عودته.

انتقلا إلى منزل كبير. وبميراث إميليا لم يعد لديهم حاجة إلى المال وسقط في عادات كسولة. استقال من منصبه ومكث بالمنزل، يتفرغ لقراءة الكتب بمكتبة حماه ويظهر نادرا، حتى ليأكل. كانت إميليا تجلس في الحديقة في المطر وهي تبكى سرا. عندما مات طفلهما الأول أثناء الولادة أعلن أنه ملعون. ولكنها أصرت أن يحاولا مرة أخرى، رغم أن علاقتهما الزوجية كانت قد تدهورت لدرجة أن الفرصة في حمل آخر بعيدة الاحتمال. فإنه من حسن الحظ شقت الطبيعة طريقها وأصبحت حاملا. في هذا الوقت كان عقلها قد بدأ يضطرب حيث كانت تلوم نفسها وتعاقبها لعدم قدرتها على إنقاذ زوجها من شياطينه. كانت تجده نائما في المكتبة وهو يتمدد على المكتب المغطى بالجلد الرائع، وزجاجة من البراندى مقلوية على جانبها. اتجهت إلى الصلاة ولكن لم تريحها. التهمتها حالة القلق الذهني دون أن يلاحظ حتى كان الوقت قد فات.

٣١- أم درمان

١٨٩٧

حدث فى يوم ما، أن جرى حاوى إلى الشيخ بلدى الذى لم يتصل به أبدا منذ أيام مجلس الرؤى الذى تم حله منذ وقت طويل. بدأ الشيخ سعيدا برويته. فعلق قائلا: "يا لها من مصادفة". وسأل حاوى إذا كان يتذكر إحدى الليالى منذ حوالى عشر سنوات عندما قدمت للمجلس مشكلة غريبة، فتاة؟ حاوى تذكر قليلا. حسنا، يا لها من مصادفة، ضحك الشيخ؛ لأن الفتاة نفسها جاءت هذا الصباح أمام محكمته. "ربما تحب أن تأتى يوما وتراقب محضر الجلسة". ورغم أنه لم يكن حريصا على الفكرة، قرر حاوى أنه سيكون من الكريه ألا يحضر ليلقى نظرة على الشيخ فهو الآن يعمل قاضيا. وهكذا وجد حاوى نفسه يجلس داخل قاعة المحكمة فاسدة الهواء.

الأنصار نوح العنق المتيبس يقفون أمامه. مد أنفه تجاه الرافدات.

"ماذا فعلت بالضبط؟" كرر القاضى.

غير الحارس اتزانه من قدم لأخرى. عيناه مثبتة أمامه مباشرة وبارزة مثل سمكة صغيرة فى مياه مظلمة. بدأ من نظراته أنه مرعوب من القاضى. جلس حاوى مستندا إلى الحائط على مقعد قاض صغير.

فى أقصى جانب الحجره تجلس السيدة، رأسها محنى. تذكر الآن أنه رآها. بدأ الحارس مرة أخرى. حاولت الفتاة أن تطعنه هو وجندى آخر. الأخير جرح جرحا غير خطير وذهب إلى منزله وزوجته فى دارفور ليشفى. عينا الجندى الآن تتردد بين مكان غير مميز عاليا على السقف خلف القاضى ومكان ما أعلى كتف حاوى الأيمن. بدأ عصبيا كما بدأ وكأنه سوف يغمى عليه. كان الشيخ بلدى متعبا من التأخير. تحرك، ضبط شاله وعمته. شعرات ذقنه الأشيب تهتز حول وجنتيه. "انه القصة أيها الصبى" قال متذمرا: " قبل أن نتعفن حتى الموت". أومأ الحارس بالطاعة، وابتلع ريقه وبدأ يتكلم. "كانت هناك عدة شكاوى من الجيران لوجود جلبه وعراك. كان زوجها مريضا يتألم كثيرا وقد مات تقريبا حينما وصلنا".

حينئذ أخذت الأمور منحى دراميا لأن الفتاة قفزت على قدميها. "ليس صحيحا" توسلت "كنت أمته لا زوجته".

"اهدئى أيتها الفتاة حتى نسألك. تدمر بلدى. ثم خاطبها وكأنه قد خطر بباله فجأة أن هذه حقا فرصة: "لماذا حاولت أن تؤذى هؤلاء الحراس؟". أحنث الفتاة رأسها مرة أخرى وقالت وكأنها تتحدث إلى قدميها: "كانوا يضعون أيديهم على جسدى". لاحظ حاوى أن الحارس يغير اتزانه مرة أخرى. "فليحمننا الله من الشيطان" زأر القاضى "ربما يجب أن أعطيك مائتى جلده من الكرياج لتتعلم كيف تعامل النساء؟".

وقف الجندى مقطب الجبين وصامتا، وخفض عينيه. مال بلدى على حاوى وسأله: "ماذا ترى؟، ألم أقل لك إنه أمر مثير؟".

لم يعرف حاوى ماذا يرى. همس أخيرا: "يجب أن نعرف أكثر".

وافق القاضى وقال للجنود: "الوقت متأخر، أعيدها إلى السجن ولتظل هناك حتى الغد. عودوا إلى هنا فى الوقت ذاته" وأشار بيده ليصرفهم.

"احضروا الشهود الآخرين" نادى عاليا. مال على حاوى. "تسمع ما سيقولوه ثم نذهب لتناول الغداء فى منزلى".

مجموعة من الرجال والنساء تبدو عليها البسطة. جاوا يجرون أقدامهم إلى الحجرة. "هيا، هيا ماذا لديكم جميعا لتقولوه؟".

خطت إلى الامام سيدة ضئيلة ليس لديها أسنان وقالت: "لقد قتلت طفلها". امرأة أكثر ضخامة جاءت لتقف بجانبها. وهمست قائلة وهى تبعد ذباية عن وجهها بقبضة يد قوية قائلة: ما تقوله حقيقة. كانت هناك همهمات وإيماءات من المجتمعين خلفهم.

حرك بلدى يديه فى الهواء طالبا الصمت "كل فى دوره، من فضلكم! فليوضح أحد الأمر". تراجعت المرأتان وتفرق الحشد فجأة تاركا رجلا نحىلا غائر الوجه فى وسط الحجرة. لعق شفثيه ونظر حوله ليعيد طمأنة نفسه. "يبدو أن ذلك حدث منذ سنوات. حملت من جندى. وعد أن يتزوجها ويأخذها عبر البحر إلى وطنه. ولكنه أصيب باضطراب عقلى بسبب الشمس والمعركة، ثم عندما استعاد قواه العقلية عرف أنه لن يسمح له أبدا باصطحابها".

صفر الرجل وسعل وبصق كميات كبيرة من البلغم، ولكنه كان يتكلم بثقة امرئ يروى هذه القصة طوال حياته. "أدخلوها إلى مستشفى حيث جاءت إلى هذا المكان من العالم كان لديها مرض يشك كثيرون في أنه من عمل الجن الذي يعيش في رأسها. شاهدت الجندي يبصر بعيدا تجاه الشمال البارد، وحيدا ولم تستطع أن تفهم كيف يمكن أن يخون إنسان إنسانا آخر بهذه الطريقة، رغم أنها ليست حمقاء وتفهم أساليب الرجال. لقد وثقت بهذا الجندي". صوت نحيب هادئ يأتي من نهاية الحجرة الساخنة المزدهمة رفع حاوى يده وصمت الرجل العجوز. فسأله حاوى: "أيها الرجل العجوز كيف عرفت كل ذلك؟".

قال الرجل ببطء: "استمع بدقة". وأشار بيد ليسمح له بمواصلة الحكى. "عندما ولد الطفل، وسبب لها ألما كبيرا؛ لأنه كان طفلها الأول، رأته فوراً أنه ليس طفلها ولكنه ينتمى إلى أهل الجندي الذى وضعه هناك. عرفت أنه سيذكرها دائما بخيانة والده ولذلك أخذته إلى النهر وأغرقتة هناك، وهى تربط ذراعيه وساقيه إلى حجر قبل أن تسقطه ليهبط فى النهر. السيدات خلفه كن أنذاك، ينتحبن ويهززن روعسهن من جانب إلى آخر فزعا من الأمر. وأصل الرجل حديثه. "ولكن رأها صياد وأخبر عنها الأنصار الذين أخذوها إلى القاضى فى محكمة كهذه. أعطوها إلى إبراهيم الأجنبى الذى يمتلكها الآن وهم يظنون أن هذا سيسعدها ومن الواضح أن ذلك لم يحدث".

تم صرف الشهود من الغرفة. وقف الشيخ بلدى وأشار إلى الباب فتبعه حاوى. وضع بلدى ذراعه حول كتفى حاوى. فى يده الأخرى تدير

أصابه حبات السبحة دون توقف. "ربما تتذوق هذا العمل، أرى اهتمامك". سارا عبر حرارة الظهر. كان منزل القاضي قريبا من مجمع الخليفة.

بينما هما يسيران عبر حشود البشر التي تزحم الميدان الرئيسى قرب ضريح المهدي، يلمسون الجدران ويركعون للصلاة سألته بلدى وهو يجعد أنفه فى ضيق: "لماذا يقومون بذلك؟".

دهش حاوى للسؤال. "يأخذون أطفالهم ليروا آباءهم وأجدادهم وأعمامهم وأخوالهم الذين توفوا". صمت "لا يريدون أبناءهم أن ينسوا".

"كل شئ سوف ينسى، حتى هم أنفسهم" توقف بلدى عن تحريك خرزات سبخته واستدار ليواجه حاوى. "هل هكذا ترى التفانى الدينى؟". فوق جلبة تجار البغال ويأئى الماء وصخب الحجاج عانى حاوى لسمع ما يقوله القاضي. "...لا يستغرق وقتا أن تكسب معركة، ولكن يستغرق فهم نتائج هذه المعركة أجيالا. فالإنسان حيوان غبى". استدار عند زاوية. "لا ترى طائرا يتصرف هكذا". وصلا المنزل ودخلا.

أمسك حاوى فجأة بذراع الرجل الآخر، بعنف لدرجة أن الشيخ نعر وقال: "لدي سؤال لك". حلق الشيخ فيه. أخذ حاوى نفسا عميقا وقال:

"هذه الفتاة إذا ضمننتها هل تطلق سراحها تحت رعايتى؟".

قال بلدى وحاوى يحدق فيه: "أنت رجل علم". "وأنت قريب من أذن الخليفة، لا أستطيع أن أرفض لك هذا المطلب". اعتدل وبدأ يفك ويعيد ربط لفاعه. "أى تأمين تفكر فيه؟". قال: حاوى: "سأضمنها".

رفع الشيخ بلدى حاجبيه. "حسنا" قال: وهو يبتسم "يبدو أنك أعطيت هذا الأمر بعض التفكير. وهذا يوضح بالتأكيد اهتمامك بالقصة". كان على وشك السير ولكن حاوى أوقفه مرة أخرى.

"سأزوجها" أفشى دون تفكير.

بدا الشيخ متحيراً. "تزوجها؟" هز رأسه "امرأة كهذه؟".

"لخادمى بالطبع".

"لخادمك؟".

أوماً حاوى. "سيكون أمرا مناسباً له... ولها".

هز الشيخ بلدى كتفيه موافقاً بلا مبالاة وصفق بيديه طالبا الغداء.

٣٢- الصحراء النوبية

١٨٩٧

مثل الزئبق السلس يتدفق الصف عبر السهل. بالنسبة لهم الأرض ميته، تتكون من الصخور والرمال، والأحجار أصبحت صلبة وسوداء تحت آتون الشمس. يركبون جيادهم طوال اليوم، مثل الصليبيين في العصر الحديث داخل المدرعات التي تصلصل للعربات المنخفضة التي تضعهم في وسط الخلاء الصامت تحيطهم الريح، مكان سوف يزحفون منه مثل النمل تجاه... مكان آخر. إنه منتصف الصيف والصخور والأحجار ساخنة جدا لدرجة ألا يستطيع المرء أن يلمسها. الغبار يحرق عندما يلمس الجلد. كان الرجال يصابون بكل أنواع الطفح الجلدي والطاعون التي لم يصادفها أبدا الأطباء الجراحون: أنواع من الحمى والمغص الحاد وهجمات العمى وضربات الشمس وانتشار بثور قاسية تنتفخ في الإبطن قبل أن تنتفخ وأخيرا تنفجر وهي تخرج صديدا مجزعا بالدم. أيديهم وأقدامهم منتفخة ومنهكة ومسلوخ عنها الجلد. كل يوم يصل امرئ تحت صخرة دون أن يديرها أولا ليجد عقربا. هناك ذباب الرمل والأشواك السامة التي تتلوى عبر نعل الحذاء ذى الرقبة العالية وإلى داخل القدم. في المعسكرات الكبيرة هناك الدوستتاريا وأشكال من الأمراض التناسلية التي انتقلت من بيوت الدعارة في القاهرة.

كل هذا بالإضافة إلى العمل. المهمة التي أمامهم؛ هي بناء خط سكة حديد - لتحويل سطح هذا المحيط الجاف إلى خط ترام العاصمة؛ ليدفعوا بمليون قطعة حديد صغيرة عبر القلب المظلم للكائنات الغريبة التي اختارها الله بحكمته لتترك هنا بين عظام الأسماك والقلاع المفتتة. يتجولون من وقت إلى آخر، يبرزغون من الخلاء، يخطون بخفة من ثنيات الرمل: عائلات بأكملها، الأطفال ذوو الأنوف المبتلة والرضع النائمون، الرجال الصابرون يقرفصون على كعوبهم يراقبون عن بعد. يراقبون ويسمعون، يسحرهم أن هناك إنسانا يعانى إلى هذا الحد ليعبر الصحراء. الجنود يغنون أغاني غريبة ليذكروا أنفسهم بالوطن. ورغم أنهم يلعنون هؤلاء الرجال المتجهمين الذين قادوهم إلى هذا الجنون، فإنهم جميعا يشاركون فى الإحساس بالإنجاز الذى يدعو إلى الافتخار. السردار كيتشتر يتجول وهو يطرق المسامير البرشامية فى أماكنها ويربت على أكتاف الرجال بحماسة.

طوال النهار والليل الآلات تمتد عبر الصحراء. العربات تنزلق على القضبان وهى تحمل صناديق من الذخيرة، والطلقات والمتفجرات، الألغام والبنادق، مدافع الميدان المحمولة على عربة ومدافع جيتلنج، الحراب وشراك الغفلة. لديهم سفن مدفعية مسطحة القاع مقسمة. لديهم رجال يركبون الإبل وكتيبة مشاة. ومعهم لحم بقر معلب وأحذية جديدة عالية الرقبة. يبردون رعوس رصاصاتهم لتحقيق أفضل تأثير، من أجل أن تدمر وتنفجر فى شظايا لزجة، أصعب فى الاقتلاع وأكثر إيلاما. خط سكك حديد الصحراء هو الشريان الذى يغذى. وخط السكك الحديدية

الرفيع الفضى يزحف ببطء متقدما مثل الفقرات فى العمود الفقرى
لحيوان مفصلى مجهول.

إنها الثالثة صباحا. القمر يشتعل عبر الليل المظلم مثل المعدن
البارد. الفلاح قوى البنية يركل الحزم النائمة لتستيقظ. يبدو أنه يستمتع
بكونه خارج سريره قبل الآخرين، ثم يذكرهم بهذه الحقيقة ليلة وراء ليلة.
كادارو يتمايل حتى ركبتيه ويحك عينيه. جسده متيبس وكأنه شجرة، كل
عضلة موثقة برياط صلب. السجناء يتنقلون ويسعلون ويصقون
ويستديرون ليحملقوا فى القمر بينما هم يبولون. الرجال هم مجموعة
فضة: مجرمون، هاربون من الجندية، أخط أنواع الرجال، المرتدين
والجبناء، قاتلى النساء ومعذبي الأطفال. سوف يهاجمون سادتهم فى أول
فرصة يحصلون عليها.

سيعملون الآن حتى الفجر، يجرفون الأحجار الصغيرة والحصى
حتى يصل قطار المؤن من حلقا. سوف يفرغون منه عارضات حديدية
تلمع فى الشمس. يقومون بذلك مبكرا؛ لأنه فيما بعد أثناء النهار سيكون
المعدن ساخنا جدا لدرجة ألا يمكن لمسه دون أن يحرق أيديهم. يتسلقون
إلى أعلى وأسفل مثل الحيوانات الصغيرة تحت قيادة الضباط الإنجليز
والفلاحين الذين ينبحون فى وجوههم مثل الكلاب. السكة الحديد تزحف
إلى الجنوب بمعدل سرعة ميل أو اثنين يوميا. إنهم يتبعون خطا تم
رسمه على ورقة، وهو الذى يجب أن يكون مستقيما مثل ماسورة المدفع.
استقامة هذا الخط لن يتم التضحية بها لأى سبب. يقطعون عبر
المنحدرات ويملئون الأودية التى جرفتها الرياح.

يكافحون عبر الغبار والرياح على نحو أعمى. كادارو يراقب المهندسين وهم يتأملون رسوماتهم التخطيطية، يكتبون ملاحظاتهم بسرعة ويأخذون القراءات. كانوا مساء خارج الصحراء، يزيلون الأركان والحواف المستديرة التي وضعها الله هناك بالطريقة التي يحرت بها المرء حقلا. لاحظ كادارو أن بعض الأوروبيين لديهم النظرة القلقة ذاتها التي تحملها أعين أهله، وكأنهم لا يرون هدف هذا المشروع، فقط كادارو يمكنه أن يراه. يمتدون خارج المعسكر في اتجاه الجنوب وهم يتعلقون بحافة العربة المسطحة والرياح تضرب في وجوههم. إنها اللحظة التي يشعر فيها بأقصى استمتاع: يستلقى ويشعر بأن هذه الآلة جرفته. يضحك ويربت على أكتاف أصدقائه ويصرخ: "فكروا، إنهم يعانون كل هذه الصعوبات ليحضروا هذه الآلة هنا حتى نطفو فوق الصحراء كالجن".

يضحكون لأن بقية اليوم سوف يزيلون الدماء عن مسام جلدهم. رأى رجلا يفقد يده؛ لأنه كان بطيئا في تجنب عارضة معدنية متحركة. يجب أن تسرع مع هذا السحر الفضي؛ لأنه يمكن أن يهاجمك. كادارو لا يحب أن تاكله هذه الآلة، يريد أن يروضها.

أول مرة يرى كادارو الرائد إلزورث، كان يقف بالقرب من العارضات المعدنية الساقطة التي انحشر تحتها سجين زميل له سيء الحظ. انهار القضيب ولم يأخذ الرجل العجوز فرصة للفرار. كان ييقب بالدماء وذهب أحدهم لإحضار ماء من العربات ذات الصناديق المعدنية المربعة التي تأتي من حلفا كل يوم ظهرا.

وصل الرائد فاتحا قدميه على عربة متنقلة تلتصق بقوة بقضبان السكك الحديدية ويغلفها الغبار الأصفر. نزل وسار نحو مكان الحادث تحيطه مجموعة من الضباط المصريين والملازمين الأوائل، والسائقين المعتمدين من السيخ وضباط الموقع. استغرق وقتا ليتفحص القرية التي تتكون من خيام هب عليها الغبار تضم ألفى وخمسمائة رجل وهي التي سوف يمكث فيها بقية الصيف. وقف كادارو بجانب مجموعة الرجال الذين يسحبون الأدوات الحديدية. لا فائدة، يفكر كادارو، الرجل كالميت. لم يستطع أن يرفع عينيه عن الشخص الذي يقترب منه إلى أن بدأ الرجل يصرخ بالأوامر. الوقت يضيع. أسرعوا. من سندات الآلة، يتفحص المهندسون الإيطاليون المكان. يضحكون بعضهم إلى بعض، وهم يعلقون بلغتهم.

بعد ساعة، توقفت صرخات الرجل. استمروا في رفع القضبان الساخنة من الطريق. إلا أن الرائد استدار في هذا الوقت. ذهب ليجلس في الظل. حينئذ انطلقت الصفارة وأمروا بالعودة إلى العربات، حان وقت التقدم. تلقى كادارو ضربة إصبع في ظهره ووجد نفسه يندفع إلى الخلف حيث صف الرجال الذي يجر قدميه.

سارت الأيام التالية على المنوال نفسه. كل مرة يرى فيها كادارو الرائد يصبح أكثر اقتناعا أنه هو الشخص الذي يعرفه. يقودون صف المعدن الفضي تجاه الأفق. يطرقون المسامير الضخمة للروافد المعدنية المتعاقبة. ثم يقفون جانبا بينما الآلة التي تتحرك متناقلة تصر وتنوح وتسحب نفسها خطوة خطوة على خط السكك الحديدية الجديد. راقب

كادارو المهندسين وهم مرعوبون، يميلون من العرية المغطاة. بالنسبة لهم هي مثل عملية جراحية دقيقة، كانوا يحركون هذه الآلة الكبيرة وكأنها تجرى على صف من البيض. فى الصباح التالى سيبدأ مرة أخرى، يجرفون الحصى ويفرشون به الفجوات وهم يغزون المسامير الضخمة التى تثبت السلم المعدنى فى الأرض، السلم الذى سيتسلقه الجنود.

كثيرا ما كان يدور حديث بين الجنود عن الهرب، عن تخريب الماكينة، ولكنهم كانوا مرهقين لدرجة ألا يستطيعوا أن يقوموا بأى شىء. يجلسون حول نار صغيرة كل ليلة يراقبون عن بعد بينما الضباط الإنجليز يشربون الويسكى والمزر ويدخنون سجائرهم.

"هؤلاء الناس حياتهم طيبة" فكر كادارو "لا يحتاجون إلى أى شىء". لقد رأى المتاجر فى حلفا. جبال من كابلات الأسلاك وألواح وصل السلك الحديدية وفائض من الغلايات والماكينات، وعربات الترولى وألف شىء آخر لا يستطيع أن يفهم الغرض منه. لا يمكن أن تصمد جيوش الخليفة أمام هذه القوة. وفهم حينئذ أن المعركة ليست بين رجال لهم ألوان أو أديان مختلفة ولكن بين عصرين. العالم الآخر، عالم لا يعرفه، يوجد فى عصر مختلف - عصر أكثر سرعة وحكمة مما يعرفه بكثير. إنها حرب بين الأمس والغد.

وفى إحدى الليالى حيث كان القمر ندبة فضية رفيعة محفورة فى السماء المظلمة، تسلل من المكان الذى ينامون فيه وزحف على بطنه وهو يمسك بيده مسمارا حديديا ضخما. وصل خيام الضباط حيث تضىء المصابيح العتمة. استلقى هناك على الرمال يستمع إلى الحوار

الغريب من الكلمات التي لا يستطيع فهمها. يده تطبق بإحكام ثم ترتضى حول السلاح، وكلما فكر، أصبح أكثر حيرة. إنه يحب آلة خطوط السكك الحديدية اللامعة، ولكنها ستستخدم للحكم والسيطرة. اقترب زاحفا من خيمة الرائد.

فوجئ بالرائد يقف وظهره إليه، يبول على الرمال بينما يغنى أغنية دون لحن. ربض كادارو مستعدا للهجوم. ذكر نفسه بالوقت الذي قضاه فى السجن، بالفتاة، بهذا الصباح منذ مدة طويلة على ضفة النهر بين صرير أعواد قصب السكر. استلقى هناك وهو يشعر بضغط الأرض على بطنه ومرت اللحظة. أخيرا، من الألم، ارتخت أصابعه وسقط المسمار من يده على الرمل البارد. استدار وبدأ يجرى، غادر المعسكر دون صعوبة لأنه لم يكن يوجد سوى القليل من الحراس، أين يجرى المرء؟ فى الخارج الصحراء ولا أحد يمكنه أن ينجو فيها لمدة طويلة. ولكن كادارو يستطيع ويعرفها ولذلك استمر فى الجرى.

قبض عليه بعد أسبوع على بعد عشرة أميال من النهر، مجموعة من الكشافين الفرسان كانت تسمح المكان للقبض على مجموعات الجنود التى تقوم بغارات. كان يستلقى وأذنه على الأحجار الباردة لبتئ يستمع إليهم وهم يقتربون، ثلاثين رجلا، يركبون الجمال. طاربه على هضبة من المسكوفيط كانت تلمع فى ضوء الشمس. عندما وثقوه قال: لهم من أين أتى، وألف قصة عن زوجته المريضة. فضحكوا عليه. عاد. قالوا: إن خطوط السكك الحديدية مهمة جدا وإلا كانوا سيطلقون عليه النار كجاسوس.

كانت النيران مشتعلة عندما اقتيد كادارو بين خيام المعسكر المصنوعة من قماش القنب. أصوات الجنود تأتي من الأركان حيث اجتمعوا ليشربوا. خرج من العتمة شخص مألوف: الرائد، سترته مفكوكة الأزرار حتى الخصر. وقف هناك دقيقة، يميل قليلا مع نسيم الليل الصافي. رفع يده "دقيقة واحدة أيها الجندي". حياها الرجلان اللذان يصحبان كادارو وتوقفا. تقدم الزورث. فى الضوء المهتز الذى كان يتسلل بين الحوائط المظلمة حدق فى وجه الشاب. استدار إلى الحراس. وسألهم: "إلى أين تأخذون هذا الرجل؟". سألهم. أوضح الجنود القصة فترجع الزورث خطوة ورفع إصبعه "ماذا حدث لساقه؟".

"كان على المجموعة أن تشل حركته يا سيدى. أعتقد أنه قد استهدفته قذيفة فى الركبة".

لم يقل كادارو شيئا. صرف الزورث الحارسين. "لا تقلقوا بشأن هذا الموضوع، يا سادة، سوف أتحمل المسئولية كاملة. هذا الرجل لن يعيد الكرة، أؤكد لكم".

غادروا المكان وهم مترددون، واستدار الزورث إلى كادارو. "لقد هزيت، هذا يعكس الشجاعة... والذكاء". وأما ونقر جانب جبهته ليوضح المعنى. "إن هذا الخط الحديدي يحتاج إلى بشر من نوعك. هذه فقط البداية. نحتاج إلى أشخاص يمكننا الوثوق بهم. يمكننى أن أثق بك، أليس كذلك؟".

استغرق كادارو لحظة ليفكر مليا. لم يقل شيئا، لا يود أن يوقف تدفق ما بدا أنه حظ حسن يحدث له. "ربما لن تفهم ذلك ولكنك تذكرنى

بشخص ما عرفته يوماً منذ مدة طويلة". اقترب ومال تجاه كادارو، تفوح منه أبخرة الويسكى. كادارو لم يجفل "أعرفك أعرف أهلك ولذلك" خفض صوته "أعرف أنه يمكنني أن أثق بك".

ألقى بذراعه حول كتف كادارو، وهو يساعده ويجذبه إلى جانبه. "فى يوم ما سوف يعبر هذه الأرض آلاف الأميال من خطوط السكك الحديدية التى ستطير عليها أفضل أنواع العربات شمالاً وجنوباً من القاهرة وحتى رأس الرجاء الصالح". غز بإصبعه صدر كادارو وخطا مبتعدا. "المهندسون، ورؤساء المحطة، الكباحون والمرشدون جميعا يدندنون سعداء". ابتسم مبتهجا وغمز بعينه. "لا أحد يود أن يبدأ تمردا بينما هم يناولون مرتبات جيدة واحتراماً" انفجر فى الضحك والذى تحول إلى سعال، ولوح بيده فى الهواء وهو يحاول أن يخرج الكلمات. صدمه قائلا: "يمكن أن تظلوا فى العصر الحجرى أو أن تتقدموا نحو البداية".

٣٣- معركة أم درمان

٢ سبتمبر ١٨٩٨

جاءت الساعة. تلك الليلة هطل المطر وكأنه لم يهطل قط قبل ذلك. جلس حاوي في حمى السقف الذي كانت القطرات تسقط من خلاله بكسل، لتزعج أفكاره. المياه الآن ترقص وتتساقط مكونة بركا يتزايد اتساعها بينما منذ ساعة كانت هناك أرض جافة صلبة. يمكنه أن يسمع صرخات الأطفال معبرة عن المتعة والبهجة من الشوارع والبيوت المحيطة. البرك الصغيرة تنتشر وتمتلئ. الماء يجري في جداول طويلة إلى أسفل الجدران وهو يأكل الطين والقش المكسو بالجص. استمر المطر ينهمر خلال الليل. استلقى في سريره يستمع. شعر بالعجز وكأنه رضيع.

طوال الليل كان يسمع أصوات الرجال البعيدة عبر المطر، وهم يستعدون ويتناقشون، ويصلون. كل ما يمكن أن يقال قيل من قبل. المصير الذي يقترب منهم مع كل ساعة كأن يأتي منذ مدة طويلة جدا. ورغم تأكيدات الخليفة ومستشاريه، كان هناك قليل من الأمل في قلوب الناس. لقد عانوا طويلا، وهناك حرب أخرى تأتي إليهم.

تم حشد الجميع لهذه المعركة. لأسابيع كان يتدرب عسكريا تحت الشمس وعصا من الخشب على كتفه وكأنها بندقية، البنادق الحقيقية

مقفول عليها فى المستودع لدواعى الأمن. أدرك حاوى أن الأمر كله سخيّف. تم الاستعداد لتنظيم استعراض عسكري كبير. نفخت كل الأومبيات العاجية الكبيرة وبقت كل الطبول. حينئذ وفى وسط كل هذا وبينما الرجال يسيرون جيئةً وذهاباً، يهتفون ويلوحون بسيوفهم والفرسان يقومون بهجمات لا تنتهى جيئةً وذهاباً يسقط على واد هيلو من فوق جواده. أمام ضريح المهدي يسقط من فوق صهوة جواده وينزل على ظهره على التراب. تفرق جند الاستعراض غير مصدقين. بدأ الناس يضربون رؤسهم ويجذبون شعورهم فى يأس. واختفى الخليفة، وكأنه فى حالة جدار، داخل ضريح المهدي ومكث هناك ثمانية أيام للصلاة التى لا تنتهى.

يبدو أن كل شىء ينهار. وإذا كانت هذه هى نهاية العالم فإنها لا تحدث بالطريقة التى تنبأ بها المهدي. إن المعركة الأخيرة سوف تكون أكثر قرباً من الوطن مما تخيل أى شخص.

استمع حاوى إلى الحوار وهو يريض فى مأواه. قال الرجال: إن الخديوى لم يعد يحكم مصر، ولكن ملكة الإنجليز، ورجالها لا يعرفون الرحمة. هم هنا للانتقام. لديهم رصاصات تنفجر فى جسم الإنسان وتخرج العظام من ظهره مثل لب البطيخ.

سقط حاوى فى النهاية نائماً، مرهقاً جداً لا يقوى على الجدل مع هذا الحديث. بعد ساعة أيقظه وصول خادمه.

والسحاب ما زال يدمدم عن بعد والخادم منهك ويرتجف من الإرهاق. جذبه حاوى تحت مأوى الزاكوبا ليكتشف أن ملابسه يغطيها

وسخ لزوج غامق اللون. سأله ورأسه لا تزال تدور بسرعة: "هل هذا دم؟ هل بدأ القتال بالفعل؟".

هز حياتو رأسه. "ليس دم بشر" أجاب بضجر: "لقد قتلنا كل بغل، وكل جمل، وكل جواد وكلب يمكن أن يستخدمه العدو".

"هل أصابه الجنون مؤخرًا، حتى أنكم، جيشه، تمكثون في الخارج تذبحون الحمير في ليلة كهذه؟".

سال لعاب حاوى حيث استغرق في نوم عميق. تخيل أنه يشم رائحة سمك ميت ويمكنه أن يشعر بالنهر يرتفع، أن العالم بأكمله في حالة فيضان.

ستون ألف رجل عددهم جميعًا، يتنوع بين صببية صفار يستطيعون بالكاد أن يحملوا السيف فوق رؤوسهم بكلتا يديهم وعجائز مثل حاوى يسيرون بالكاد. ستون ألف رجل يسيرون تحت الشمس: تحت الراية ذات اللون الأخضر الفاتح لعلى واد هيلو تسير خمسة آلاف وخمسمائة روح، شمالًا تجاه الصخور السوداء لمرتفعات كيريرى التى سيلتفون حولها فى اتجاه السهول. خلفهم تآتى الراية ذات اللون الأخضر الغامق بألف ومائتى فارس ومجموع ثمانية وعشرين ألفًا من رجال الجهادية الذين يحملون البنادق والأنصار الذين قضوا الليل رابضين تحت بطن الخيل النائمة.

النهر المتزايد الذى يعلو تتراكم فيه السفن الحربية المدرعة. قعقة الكباس والبواخر تجعل ديدان الأرض ترتعد. الآلات المصنوعة من

الصلب تدق والأغطية النحاسية تطرق. منذ عامين وهم ينحتون طريقهم ضد التيار. يضربون السماء حتى الصحراء المحترقة ويجرون الرعد من خلفا حتى عطبرة. تدور العربات بلا هواده جيئة وذهابا بسلاسل عربات القطار التي لا تنتهي تصلصل حاملة المدفعية والرجال. عجالات الصناعة الحديثة، لوحاتها تومض بالأصوات التي ستصبح قريبا مألوفة: لانكشير ومانشستر وشيفلد وليدن، تدور أسرع وأسرع.

إنهم قادمون. الله يحفظنا من الشيطان. هذه المرة لن يوقفهم شيء. المستقبل يأخذ طريقه ضد التيار والنهر ينتفض في مجراه.

الليل، والعين الوحيدة الشريرة لنور المشعل تلوح. السفن تعس جيئة وذهابا؛ باحثة عن أى شيء وأى شخص يجرو على الحركة.

فى الجانب الغربى من جبل سوركاب Surkab، الخليفة عبد الله وأخوه يعقوب يجلسان مع عشرين ألف من إخوانهم من التجارة يراقبون شعاع الضوء وهو يلقى نظرة خاطفة على محيط الظلام الذى يغطى السهل. الخليفة يسأل: "ما هذا الشر الذى تحضره الكلاب لنا اليوم؟".

بزغ الفجر مثل وعد داعرة فاضلة لينشغل حاوى بجو السرعة والخوف الذى يعم المعسكر. الأقدام الحافية لآلاف الرجال تضرب الأحجار حيث بدعوا يسيرون. وحتى فى هذه اللحظة قبل أن يستديروا ليواجهوا العدو، كان لايزال هناك أمل فى قلوب الرجال الذين لن يعيشوا ليروا غروباً آخر. فى قلب حاوى، أيضا، كان هناك أمل أنهم يستطيعون ذلك مرة أخرى. هذه المرة سيرسلون الكلاب الإنجليزية إلى وطنهم، ليس

لأنهم أفضل أو أكثر شجاعة منهم، ولا لأن المهدي أعلن ذلك، ولكن ببساطة لأنهم يحتاجون هذه المرة. إذا كانوا سيتعلمون أبداً كيف يستمعون بعضهم إلى بعض، كيف يمكنهم تحقيق العدل، كيف يحكمون أرضاً واسعة كهذه، فهم يحتاجون إلى وقت.

السماء منقطة بالسحب التي تتوزد مثل براعم القطن على شجرة. صخب أصوات الرجال يملأ أذنيه. يمكنه أن يشم عرقهم، أجسادهم المجهد، قلوبهم التي تدق، الدم الذي يسرى في عروقهم.

الأمر أفضل عندما تتحرك. عندما تجرى فأنت مشغول. كل ما حوله هو الغبار الذي تركه الجياد وهي تعدو جيئةً وذهاباً، وهي تهز أجزاءها الخلفية دون صبر. عندما جاء العدو على بعد معين، ما زال صف من الأشجار والأشواك في الأفق، بدأت القذائف تسقط بينهم. لا يسمع شيئاً فوق صوت الصخب، ورغم أنه كان مرعوباً، استدار لينظر إلى الرجل الذي بجانبه ليجد أن هذا الرجل مختلف عن الذي كان هناك منذ دقيقة. على طول الصف رأى أوجه لرجال شجعان أغبياء يجرون بتهور تجاه البنادق وعرف أنه يفخر بأنه هنا، بأنه رجل منهم. مع كل ضربة يبدو أن قلبه يعيش وحياة أخرى تموت. كان شاباً، كان عجوزاً، كان شجاعاً كالأسد ثم مرعوباً كالفار، كان لا يقهر ومات، فخور بأنه بين هؤلاء الرجال ويشعر بالخجل من السيف الذي يحمله في يديه. سمع غناهم مثل موسيقى الله في أذنيه ثم أطلقت البنادق وكانوا يجرون في اتجاهات مختلفة وكان هناك حيرة لا يقطعها سوى لحظات وجيزة من الوضوح. انقشع دخان البنادق وفجأة أصبح وحيداً. أمامه يرقد رجل،

شاب وراية عثمان أزرق Osman Azraq البيضاء بجانبه. مال حاوى ورفعها باحتراس ثم رفعها عاليا وبدأ يجرى بطريقته المرتبكة الخرقاء تجاه الشرارات وألسنة اللهب، إلى الدخان، نحو نهاية العالم.

السهول تنتثر فوقها أجساد المؤمنين: العجائز، والصبية الصغار والأطفال المسلحين بالسيوف الخشبية المنقوشة. تقدم الجنود بحذر، مثبتين حرابهم، وهم يحثون ذرات الحياة من الرايات المتشرية بالدماء. خلف الجنود يأتى جامعو الغنائم، حشد كرية من الكناسين الذين لحقوا بالصف فى نقاط مختلفة على الطريق من القاهرة. هنا حفنة جيدة من الغنيمة. تأوهات الذين يموتون استمرت طوال الليل.

يقولون: إنه فى الخارج حيث أجنحة الصقور ترسم بوائر سوداء هناك آلاف من الجثث التى ترقد مثل الأوراق التى تهتز من شجرة تنتشر عبر سهول كيريرى. استيقظ حاوى بفعل الحشد الذى أخذ طريقه خارجا فى شمس الصباح ليحاول إيجاد أقربائه الذين سقطوا فى المعركة. مر يوم والجثث قد انتفخت بسبب الحرارة. الرائحة فظيعة. هنا وهناك أقارب سيكون بسبب اكتشاف أب أو زوج أو ابن. لسنوات بعد ذلك ستجول بعض الأرامل فى شيلانها السوداء مثل الغريبان تلتقط عظام الرجال وتجمعها كنوع من التذكار للذين لم يجدنهم قط .

سحب حاوى نفسه من تحت كومة من الجثث. سار ببطء عائدا إلى المدينة، أو ما تبقى منها. طوال الطريق يرقد الموتى والذين اقتربوا من الموت. والناس يحفرون فى الأرض لدفنهم. الجنود يندفعون مسرعين يجرون المركبات ومدفع لاعم. كانت المدينة لا تزال فى حالة من الهلع

والهرج. شوارع بأكملها اختفت ببساطة. كميات من الطين المخض الذى ينمو من الأرض مثل كتبان الرمال، وهى تدير حفرا عميقة ظهرت على الأرض. الأحشاء المفلوطة ترقد على الأرض وقد تحولت إلى اللون الرمادى؛ بسبب التراب. الكلاب تتبختر، تتغذى بجنون. سيدة تركع فى الشارع صامتة، جسدها ينهكه النشيج الذى ظل غير مسموع. الناس يسيرون عبر الشوارع فى حالة من الذهول، لا يتحدثون إلى شخص محدد، يتغذون على نهر الكلمات التى تمر بهم مثل صوت مألوف.

فكر حاوى وقال : "لم يعد هناك فروق بيننا كلنا ضائعون".

يحتشنون بين الحطام لرغبة مشتركة فى التأكد والفهم. يقول الناس : إن سحب الغبار الأحمر أتت من الحصون التى تم بناؤها على طول ضفة النهر وتمتد شمالا تجاه شامبات Shambat، البنادق التى كانت تنوى إطلاق النار على السفن العابرة اختفت فى سحابة من الغبار والقش. فى مرحلة معينة كان هناك جو من الابتهاج حتى تلاشى صخب المدافع التى تنطلق من السفن الحربية المدرعة التى تطوف خلصة متحولا إلى سكون. عندما بدأت مرة أخرى، قال الناس : إن الساعة حانت لأن الكفرة قاموا من بين الموتى. ظهرت فتحة فى ضريح المهدي والسن البيضاء white tooth الوحيدة التى تتجه نحو السماء انكسرت كالبيضة. أمسك شخص ذراعه وطلب منه أن يأتى بشكل عاجل. اندفعا معا عبر الشوارع إلى المكان الذى كان يقف فيه منزله، الآن لم يعد سوى كومة من الطين . أظلمت السماء. بحث ووجد أخيرا نون، مستلقية على ظهرها، يحيط بها مجموعة من الجيران عيناها مفتوحتان رغم أنها

لم تكن ميتة. ركع بجانبها ورفعها بين ذراعيه بعناية لأول مرة ؛ لأنهما لم يعيشا سوى رفيقين قال: "إنه أنا".

دفست أصابعها فى ذراعه. وقالت بنوع من الدهشة : "لقد أظلم العالم".

الدموع التى تتدحرج على وجهه لا تؤلم. لم يعد يسمع صرخات الذين يموتون والمجانين. ربض على الأرض، ذراعه حول الفتاة التى ترتجف. سأل نفسه بينما يمتص الهواء من رئتيه ويحل محله الغبار المحترق: إذا لم يكن هذا هو جحيم جهنم، إذا لم تكن هذه هى النار، إذن ماذا تكون؟

٣٤ - القصر. الخرطوم

سبتمبر ١٨٩٨

انقشع الدخان ومر الليل. ابتلع السحاب فى برك المطر الكئيبة، ودخل السردار المدينة التى سقطت فى أيديهم وهو يسحب علم الخليفة خلفه عبرا لأرض الطينية. كان الناس ينظرون بأعين تلمع بالخوف لسكان اسكتلندا وهم يرتدون تنورتهم الكلتية ويعزفون آلات موسيقية تشبه الماعز الميتة.

هدموا الحوائط المتبقية لضريح المهدي، وهم يمزقون القماش المطرز، والكتابات الدينية والحريز، كلها على الأرض. حفروا القبر وأمسكوا بالعظام إلى أعلى نحو السماء. صاح الجنود: "انظروا هنا، إنه ميت مثل أى إنسان. بقاياها هنا. لم يذهب ليجلس بالقرب من الله ورسوله، إنه يرقد متعفنا هنا". ألقوا بالعظام فى النهر، ما عدا الجمجمة، التى احتفظ بها السردار كيتشنر فى برطمان كيروسين.

عزى إلزورث نفسه بفكرة أنه الآن، سوف يكون فى سلام مع نفسه، أخيرا. استلقى مرتاحا على السفينة المشفى. زملاؤه من الضباط يتجولون، وهم يومنون، للتحية. من السرير الذى يستلقى عليه يمكنه فقط أن يرى، فوق قضبان السكك الحديدية، نخلة تميل برقة. يتذكر قليلا من المعركة نفسها. كان العدو يقترب مثل مد يرتفع من قاع بحر عميق

لا يسبر أغواره. الهواء لا يزال رطباً بسبب المطر وبرك برونزية من الماء تميل إلى لون الصدأ لا تزال تقف على السهل المنبسط. بدأ الرجال يتمايلون، وهم يصرخون لاعتين الدراويش الذين يقتربون.

"لا تبالوا بذلك! يجب أن تنتظروا حتى يصبحوا في مرمى قذائفنا. انتظروا ذلك!". ولكنه لا يستطيع أن يمشى الهوينى في مقدمة الصف مثلما فعل ماكدونالد في وقت سابق، وهو يطلب من الرجال أن ينتظروا صدور الأوامر قبل إطلاق النار. بدلا من ذلك وقف جانبا حيث الوضع أكثر أمانا وأرضى نفسه بالصياح. على بعد رأى قذائف من الجناح الأيمن تسقط بين الحشود الراقصة من القطن الأبيض والمعدن البراق. تسقط القذائف مثل الحصى في بركة، وهى تصدر موجات من الموتى والجرحى. ذهنه فى حالة عدم تصديق. إنه ليس هنا، وهذا لا يحدث.

فوق الصخب والدخان وطلقات سلاح المدفعية تحت قيادة كولونيل ماكسويل من أعلى جبل سوركاب خلفه، وصراخ الدراويش من المستحيل أن يسمع شيئا. كانوا تقريبا سيهجمون عليهم. وأصدر الأمر فورا. كانت هناك حالة من التشوش الكامل. إطلاق النيران فى كل الاتجاهات، الدخان الصادر عن بنادق مارتينى - هنرى يجعل من المستحيل أن يرى المرء ما يحدث. صوت بنادق ماكسيم يضرب فى مؤخرة الرأس، يسقط الدراويش المتقدمون ولكنهم ما زالوا يتقدمون. جاء الصياح عبر الصف بأن نخيرتهم قليلة ولوهلة كان الزورث مرعوبا بينما العدو يتقدم إليهم: خمسين، أربعين، ثلاثين ياردة. حينئذ وكأنها معجزة، ظهرت بنادق لينكولنشير عتيقة الطراز. على الجناح الأيمن للجيش، يتحرك حاملوها

بدقة الآلات، يستديرون، يحشون البنادق، ويطلقون النيران ذات التأثير المدمر. سوف يطلق على ذلك انتصار ساحق عندما تنتهي الحرب، ولكن في ذلك الوقت كان الأمر يشبه أن تمسك شيئا بلثتك.

مجموعة من خمسمائة فارس جاوا ليهجموا عليهم. كان انتحارا محضا. استمرت الجياد في التقدم. صدر الأمر ودارت الحيوانات نوات الأربع. نبحت المدافع الرشاشة وتلعثمت وفي طرفة عين انقسم صف الفرسان نصفين. يأتون ويأتون ومع كل خطوة يتم محوهم. آخر فارس - جرح وأعماه الدم الذي يتدفق من جرح في رأسه - هجم عليه ثم ترنح. صممت البنادق عندما حدث هذا المشهد. استدار الفارس في دائرة، ربما فوجئ بسكون قبل العاصفة. أمال رأسه جانبا ليسمع. ثم حدد موضع عدوه وأطلق صرخة وارتد على عقبه. سلسلة من الطلقات النارية مزقته، انهار الجواد والرجل على الأرض.

كان جسد الزورث يرتجف. لا يستطيع أن يفكر. لا يستطيع أن يتكلم. صرخ بما جاء في رأسه. في مرحلة معينة دعا إلى العودة إلى الجنوب في اتجاه المدينة التي جاوا لغزوها. رأى مجموعة بسيطة من الحوائط الطينية وهيكل ضريح متصدع ومنهار. بدا الأمر بأكمله بشكل مئوس منه غير ملائم ليبرر كل هذا الوقت والجهد، ثمن ضئيل جدا ليدفعه المرء في مقابل هذه الأرواح التي ترقد الآن، متناثرة فوق السهل.

الجيش يدور ويفحص آلاته. نظر في ساعته. ولم يحن الظهر بعد. أخذت المعركة حوالي أربع ساعات. أربع ساعات، وأحد عشر ألف قتيل من العدو وثمانية وأربعين إنجليزيا. شعر بخليط غريب من الرهبة

والاشمئزاز مثل رجفة: لا يمكن أن يشعر المرء بالفخر؛ لأنه أحدث مثل هذا الدمار. عصر الحرب كان ذكرى غريبة هذا عصر المجازر الدقيقة.

مرت ثلاثة أيام وهدأت الفرق الموسيقية. الطبالون كانوا يأكلون بلويفيا ويسكويوتا. الراية البريطانية ترفرف بجانب علم الخديوى ذى الهلال الذهبى والنجمة بين حطام القصر الذى يسكنه الآن الماعز المتوحش والسحالى ذات اللون الأخضر الفاتح ويكسوه التمر هندى اللولبى الأحمر. كان الضباط قد انتهوا من الغناء ويصطفون ليسمحوا لمراسل كان يدير نراع كاميرا صور متحركة؛ ليلتقط لهم صورة أخيرة وهم مجتمعين فى المكان الذى فقد فيه جوردون حياته منذ حوالى أربعة عشر عاما.

وقف الضباط، وهم يحملون كتب التراتيل فى أيديهم وأدوا "أبق معى". ورغم وقار الطقس كانت الروح المعنوية للسردار عالية. تجول وهو يربت على ظهور الرجال. لم ير الزورث كيتشينر هكذا من قبل. "عمل ممتاز أحسنتم جميعا. الآن يمكن للرجل العجوز أن يرقد مستريحا فى قبره". مسد السردار شاربه وهمهم شخص قريب من الزورث تحت أنفاسه، "لو يستطيع امرئ أن يحدد أين وضعوا الملعون المسكين".

فى محيط الحشد لمح الزورث وجها فجأه أنه مألوف. رجل عجوز يقف بجانب جذع نخلة سميك. كان نحيفا وأشيب يمشى جارا قدميه كالمعتوه. يتدلى الجلد فى ثنيات متجددة من وجهه. يلحق شفثيه من وقت لآخر، يبدو أنه ليس لديه أسنان متبقية. استدعى الزورث الضابط المساعد له وطلب منه أن يستميل الرجل. "أسأله من هو" أعطى تعليماته

للمصري. استدار العريف للرجل وتحدث. ضحك وأوضح لإلزورث إنه رجل مجنون". أوماً إلى الحطام الزائد خلفهم. "يقول: إن هذا هو مطبخه ويريد أن يستعيده".

وقف الرجل العجوز يتمايل من جانب إلى آخر وكأئه في حالة نشوة. لم يستطع إلزورث أن يفكر لماذا يبدو الرجل مألوفاً. "أسأله... إذا كان يعرف أين رفات جنرال جورديون". نظر العريف إلى الرائد نظرة طويلة ثم استدار ليسأله. صمت الرجل، وأمال رأسه إلى أحد الجوانب، ثم طقق شفتيه وهز رأسه، صر بأسنانه كالمجنون "نجومى، نجومى سيعود". أعاد الجملة مرارا وتكرارا. نظر العريف إلى إلزورث وكأئه يقول: "قلت لك ذلك". لم يستطع إلزورث أن يفكر فى شىء يقوله أكثر من ذلك، ولذلك صرف الرجل، الذى انصرف نحو جذع نخلة وظل هناك، يلعق شفتيه ويراقب الإجراءات، يهز رأسه من وقت لآخر، ويترقع بلسانه.

خاتمة

أقصى الشمال

مرة أخرى جاء مسافرا ومرة أخرى كان غريبا في أرضه. مر بقري ومدن، أماكن هجرت ولم تعد مأهولة إلا بالماعز الضالة والكلاب. قابل حشودا من الناس الذين ذكروه بالمهاجرين منذ سنوات. لاحظ أن الناس في هذه الحالة من اليأس قد نسوا فعلا دروس الماضي. لقد كانوا مستسلمين لعجزهم. شعر بسنوات عمره تميل بثقلها عليه، وفوجيء أنها ضاعت هباء.

فيما بعد لم يستطع أن يتذكر أين أو متى بدأ، ولكن في مرحلة معينة قرر أن يتصرف. كرر لنفسه: "من الاختلاط والتشوش، يجد المرء دائما أملا، شخص ما يجب أن يأخذ الخطوة الأولى". وبينما الطريق يمتد تحت قدميه أصبح واضحا بالنسبة له أنه لا أحد آخر تبقى، إنه هو الذي يجب أن يتكلم.

وجد نفسه بين حطام قرية ألقى بأبنائها تحت عجلات الحرب الحديدية. لا أحد في السوق سوى قليل من الرجال العجائز. يجلسون في الظل وبعض الأطفال. ناول رسن البغل إلى الفتاة العمياء، نون التي تسافر معه الآن، أينما ذهب، خطا إلى قمة كومة من القذارة والعظام وبدأ يتحدث. بدأ بعض الأطفال في الضحك ومطوا وجوههم، آخرون

بدعوا يلقون بالحجارة. واصل حديثه رغم ذلك؛ لأنه مع كل ضربة تسقط عليه، يزداد إيمانه قوة، وتتراجع شكوكه. عن ماذا يتكلم؟ كثيرون سألوا هذا السؤال بعد ذلك وقليلون يتذكرون بوضوح. تحدث إليهم عن الدين وعن العالم. عن الطريقة التي يمكن أن يستغل بها الناس الدين سعياً وراء السلطة فقط، وأن هذا هو أسوأ أنواع الخيانة على الإطلاق وأن ما حدث مرة قد يحدث مرة أخرى. قال لهم: إن الدفاع الوحيد الذي يجب أن يكون لدى المرء ضد خيانة دينه هو أن يفهم دينه ويسلح نفسه بالمعرفة. لاحظ أن الأطفال بدعوا ينتبهون أكثر. أولاً الأكبر منهم ثم الأصغر حرصاً على التقليد. مع نهاية الأسبوع كان لديه مجموعة منتظمة تجتمع كل صباح عند قدميه، لا أحد منهم يزيد عمره عن ثلاثة عشر عاماً. الآباء ينظرون بشك عندما ينقل دروسه إلى مكان مريح أكثر تحت شجرة نيم ضخمة حيث يأتي النسيم من النهر ويرفع معنوياتهم. أخبرهم أن ينظروا بعضهم إلى بعض ليروا كم هم مختلفون، كيف تحمل أسماءهم أسماء آباء آبائهم، ووالده قبله وهكذا العودة إلى الخلف في الزمن، وأن كلا من هذه الأسماء لها قصة وغالباً رحلة مرتبطة بهذه القصة. إن هناك مكاناً تلتقى فيه كل قصصهم وتتقاطع وإن هذا مكان يشترك فيه الجميع.

في المساء يجلس هو ونون صامتين ووحيدين في الخلاء بين الأشجار، يعيشان على فتات الطعام التي قد يلقيها إليهم الناس بدافع الشفقة. أحياناً تتألم رأسه بالأفكار اليائسة.

تذكر يوما أن هذا هو بداية قرن جديد وفقا لتقويم المسيحيين الذين يجلسون الآن فى العاصمة. سوف نُسحب إلى تقديرهم للوقت الآن، كان الله فى عوننا .

عندما تتشوش أفكاره يعود إلى حججه الأولى: إعادة تفسيره لكلمات الرسول. يجلس كل ليلة يحث حبره؛ لكى يبدأ مرة أخرى فى الصباح التالى تدوين ملاحظاته. فى فترة قصيرة جمع رزمة مفككة ضخمة من لفائف الورق المصفرة. أفكاره تندفع متقدمة فى موجة كبيرة، ويتوقف فقط عن الكتابة عندما يبدأ معصمه يؤله أو تصبح رؤيته ضبابية لدرجة ألا يظل يرى الصفحة. فى هذه الفترة كانت صحته تعتل. ينتقل كثيرا لدرجة أن ساقيه منهكة تماما. ينام قليلا وأثر الغذاء القليل المتقطع بدأ يظهر. يسير هو ونون أياما كثيرة دون طعام. والحق يقال فهو يفضل أن يكتفى بالبلح غير الناضج أكثر من أن يجلس بجانب سلطانية التسول فى قرية. كان يأمل أن يجد أسرة نون وترعاها، ولكن الناس لديهم ما يكفيهم من مشاكل. أيضا، الناس الذين لا يشكون عادة فى المسافرين يبدعون فى التساؤل عندما يرون تأثيره على الأطفال. أكثر من مرة يطرده خارج المدينة سيدات غاضبات أو رجال عجائز وهم يلوحون بالعصى. يظنون أنه يريد أن يسرق الشئ الوحيد الذى تبقى لهم.

وصلوا إلى مكان مترب لم يكن سوى ممرين متقاطعين عبر السكك الحديدية التى أقامها الإنجليز، إبصار حاوى الآن سيئ جدا لدرجة أنه يدرك أين هو فقط عندما يتوقف البغل عند بئر. ينامان فى حطام مسجد صغير. كانت المدينة مكانا أكثر بؤسا، كما قيل له، لقد ضربت بشدة أثناء المعارك فى هذه المنطقة.

صعد حاوي على الأحجار الساقطة للمسجد وبدأ يتحدث. الناس، كالمعتاد، بطيئون في الذهاب إليه. وقف على كومة من الحجارة المكسورة وهو يرفع يديه أمامه وكأنه يقرأ من راحتي يديه وقال:

"بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ غريبا فطوبى للغرباء"(*) . لقد رأينا شيئا يمكن وصفه بالساعة الأخيرة. فقد كتب أنه «عندما تلد الأمة ربته، وعندما ترى الرعاة الحفاة العراة يعيشون حياة الترف، حينئذ تكون العلامات معنا والساعة قد حانت»(**). احتكم إليهم: "أليس هذا ما شهدناه في السنوات الأخيرة لحكم الخليفة عبد الله؟ ألم يصر من حوله أكثر بدانة وغنى؟ ومن يكونوا سوى رعاة بسطاء للماشية والماعز؟ لقد كنت هناك ورأيت بنفسى» .

هناك نعمة سخط على ذلك. صاح شخص في الخلف بشيء فاحش. يبدو أن كثيرين مخلصين للخليفة في هذه المناطق. مجموعة صغيرة كانت تتجمع في الجانب البعيد للميدان المفتوح. السوق مزدحم

(*) بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ غريبا فطوبى للغرباء. الحديث رقم (١٤٥) في صحيح مسلم. الجزء الأول. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. (المراجع)

(**) سئل الرسول عليه الصلاة والسلام متى الساعة؟ فقال: "ما المسئول عنها بأعلم من السائل، وسأخبرك عن أشراطها: إذا ولدت الأمة ربها وإذا تطاول رعاة الإبل البهيم في البنيان".

الحديث رقم (٥٠) في صحيح البخارى. الجزء الأول. تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر.

ونلاحظ أن رواية البخارى تقول: "إذا ولدت الأمة ربها" لا "ربته" التي وردت في رواية أخرى. (المراجع).

اليوم، والهواء النقي ملئ بالتفاؤل الذي شجع حاوى فرقع يديه طالبا الصبر.

"التاريخ يعيد نفسه، ولكن ليس بالأسلوب نفسه. المكان ليس كرويا ولا الزمان. كلاهما تكوينان لوليين مثل ثمار شجرة التمر هندي". حرك يده بشكل لولبي فى الهواء. مناشدته سحرت الأطفال. "نهاية الدورة تشبه بدايتها... ولكنها مختلفة بشكل واضح".

العنصر القبيح فى الحشد شق طريقه، بصعوبة إلى الأمام.

صاح أحدهم: "أنت لست مؤمنا".

جاء صوت آخر: "إننا نضحى بأبنائنا وأبائنا فى سبيل الإيمان.

ما الذى ضحيت به؟".

ابتسم حاوى وأوماً ورفع ساعديه اللذين يشبهان جنوع النخيل قائلا: "إنى أناشدكم يا إخوانى أن نتذكر من نحن. لقد مررنا بالكثير جدا من المعاناة والألم معا. ولهذا فما كان يحدث من قبل خطأ. يجب أن تكون لدينا القوة لتتعلم ونغير" بدأ الحشد يتخلص منه. كان عليه أن يرفع صوته حتى ألمته رئتيه. "كل يوم يجد جانبا جديدا ليهتم به" يقول الناس: إن الشئ الناقص فقط هو الذى ينمو ويتطور والأمر ليس كذلك. فالشخص الكامل هو الذى يتطلع إلى ما هو أكثر. إن الكمال حالة مرنة من التجديد والتطور وليس الركود".

كان الحشد يضغط عليه من كل زاوية. شعر حاوى بأيديهم تحاول الوصول إليه. اندفع إلى الخلف ورفع يديه. جاءت كلماته وهو يلهث: "إن

البراعم الصغيرة للعشب الناضر على سفح الجبل أكثر كمالا من الجبل نفسه".

غضب الناس الشديد صريح وواضح. انسحب وكان كلبا يكشر له عن أنيابه. "ماذا...؟" سأل متحيرا بسبب كبر سنه، بسبب العالم، بسبب نقص الطعام والمأوى، بسبب الجهل والنكبة. "ماذا" سأل. وصلت إليه الأيدي، تلمس ملابسه، وتسحبه إلى الحشد. سمع صخب أصواتهم. رأى وجوههم تتحول وكأنه بسبب الشر أو السحر. حيث كان هناك ضوء منذ لحظة واحدة هناك الآن ظلام. غطى السماء ظل أسود. جزء صغير جدا في هذا السهل المنبسط الأصفر من الصخور والعظام المحطمة. سبح وجه امرأة نحوه ورأها تتحول وهي تبصق عليه. قال لنفسه: إنهم مجرد بشر، بشر بسطاء جهلاء، لا يعرفون شيئا أفضل.

حاول أن يستنجد بنون. شعر بنفسه يرفع من على الأرض ويساق تجاه خطوط السكك الحديدية والبيوت التي بنتها شركة السكك الحديدية لعمالها - مجموعة صغيرة من الأشكال المخروطية مثل رعوس الطين المستقرة على الأرض المنبسطة. توقف الحشد ونادى ناظر المحطة. يحتاجون إلى شخص يحتكمون إليه. وناظر المحطة، الآن هو أقرب شخص لأي شكل من أشكال السلطة هنا.

بعد فترة شوهد رجل يحدق من داخل الكوخ الظليل بدا غير راغب في الخروج، ولكنه أخيرا تذمر ولعن وخطا خارجا على ضوء بعد الظهيرة الذي كان باهتا مثيرا للاشمئزاز مثل قماش الخيام البالي.

أخض كابه على رأسه وارتدى زيا كاكى اللون باليا يتدلى مفتوحا على كتفيه. تغير وجهه، كبر فى السن وعنف معين غير الملامح التى كانت يوما تلائم الشباب. لم يلمح كادارو حتى الفتاة العمياء التى تجلس تحت أقدام الحشد. حك عينيه متضايقا، لأنه أوقف من نومه.

"ما الذى يحدث هنا" سأل مدركا أن الحشد غاضب. نظر إلى الرجل المثير للشفقة الذى يأسرونه، حافى القدمين، رأسه الصلعاء تغطيها القشور وملابسه متسخة وممزقة. أشار كادارو بيده. "أعرف هذا النوع إننا لا نريد المحتالين واللصوص فى مدينتنا. فقط أقصى عقوبة هى التى تصلح تماما معهم". أخذ نفسا وعدل سترته. الأمر يتطلب أكثر من ذلك، قال: لنفسه. جذب سوط رجل كان يقف إلى جانبه ولوح به فى الهواء. تنحنج. وتدفقت الكلمات، كلمات تدق فى رأس طفل صغير منذ سنوات بعيدة، كلمات كان قد نسيها.

قال: مقتبسا: "احذر الأنبياء الزائفين". كان هناك مهمة موافقة. كادارو، بصدر مثقل بالحيرة والغضب، واصل حديثه وهو يشعر بالحسد الذى أمامه دافئا ومسترسلا. "كيف نعرفهم" سأل "ستعرفونهم بأعمالهم!". هب الحشد هبة رجل واحد، موجة مهتاجة من الإهانة. لقد دفعوا كثيرا جدا لدرجة ألا يمكن أن يقال لهم إنهم مخطئون.

راقب حاوى كل ذلك وكأنه يطفو عاليا. أدرك وهو حزين أن الناس لا يريدون أن يقبلوا العالم المتنوع الذى خلقه الله بحكمته. يريدون أن يبقى كل شىء كما هو. من ناحية يمتدحون الله على نعمه ومن ناحية أخرى يتعلقون بفكرة أن هناك رجلا عاديا، صورة مثالية يجب أن يكافح

المرء ليصل إليها. لن يقبلوا أن كلا منهم قد خلق مميّزا، وأن لكل منهم مواهبه وقدراته. فى أعماق قلوبهم يعرفون أن هذه معجزة الحياة، ولكنهم لا يودون أن يعترفوا بها. ولهذا ينقلبون على أى شىء يذكرهم بهذه الحقيقة - ضد أى شىء غريب، والداخل هم ضده.

دارت برأسه كل هذه الأفكار وهم يحضرون الحبل. جعلوه يقف فى الشمس بينما كلهم صامتون الآن ينظرون إليه. على مسافة قريبة يشاهد الموقف مجموعة من الأطفال، فزعين ومسحورين لدرجة أنهم لا يقدرّون أن يحولوا أبصارهم. سيتذكرون، فكر فى ذلك بينما يدها توثق خلف ظهره. الشمس تؤذى عينيه تجعلهما تؤلّاه، كما تجعل رأسه توجهه.

عند مرحلة معينة سقط على الأرض بين الأقدام المهتاجة والتراب. امتلأ فمه بالقش والجفاف اللاذع لبراز البغال. حاول أن يقوم، كان يسعل ويختنق، شاعرا بثقلهم على ظهره. اركبوه البغل الأبيض نفسه الذى وصل عليه. لم يشعر بالخزى. "هذا ما يجب أن يكون عليه الأمر" سمع نفسه يقول: "اللى يعيش ياما يشوف". هذا الوقت يجب أن يأتى لنا جميعا. هذه هى اللحظة التى كان يستعد لها طوال حياته اليقظة. ولكن فجأة أدرك وهو مصدوم أن فى داخله خواء، لقد فقد فى مكان ما خلال الطريق شيئا جوهريا. فاجأه مثل سكين غرز فى الأعضاء الحيوية لجسده: لقد فقد إيمانه. يترنح الآن فى يأس، فى حالة زعر تام. كل ذلك كان عديم القيمة، كل الساعات والسنوات، كل الليالى التى استلقى فيها مستيقظا وعانى ليقترّب من المصدر - ضاعت هباء. فى ماذا إذن قضى حياته؟ باسم الله تحمل الكثير جدا من الآلام والمعاناة فى صمت: الله

أكبر، هو الذى يعلم ويرى، ولديه حكمة فى ذلك. ولكن ما الحكمة الآن؟ لماذا لم يصل محمد أحمد المهدي إلى الكوفة أو بغداد؟ لأن هناك حكمة. لم يركب جواده منتصرا عبر المدينة المنورة؟ لأن هناك حكمة. والحكمة؟ أن الله كريم. إنه الرحمن والرحيم.

رفع وجهه من مؤخرة البغل ورأى حشد الحاضرين. كان رأسه يدور سريعا بالطريقة نفسها التى يهز بها درويش نولحية رأسه، وشعره ممتلئ بأعشاش العصافير والغبار. سمع عويلهم يعلو مع الريح، تصل إليه الأذرع والأحاديث بالطريقة نفسها التى تهب بها الخماسين من الصحراء. إنهم هم، رغم كل ذلك، البسطاء الذين لا يستطيعون أن يحبوا إخوانهم فى الإنسانية، الذين لا يستطيعون الاستماع، وحصانتهم الوحيدة الكراهية والشك.

"مرتدا! زأروا ولم يجادل، لأنه فى هذه اللحظة كان يعلم أن هذا حقيقى. رفع عينيه تجاه السماء باحثا، متوسلا. ثم أغلقهما وزحفت دمعة وحيدة على وجهه المتجدد. عندما فتح عينيه مرة أخرى كان ليرى طائرا أبيض يدور فى السماء. بومة أم يمامة؟ ومثلما جاء شكه بشكل عرضى سهل، انقشع. بدأ يبتسم وفتح فمه ليتلو الشهادة: لا إله إلا الله.

نزل كادارو بالسوط على مؤخرة البغل المذبوح وبدأ يحركه نحو البيت، تاركا حاوى المرتد يتدلى مشنوقا فى نسيم بعد الظهيرة الرقيق.

تلاشى الحشد ببطء، مختفيا بالطريقة نفسها التى جاء بها، وهم يتحدثون بأصوات ضعيفة بعضهم إلى بعض، تاركا الفتاة العمياء تجلس

على ركبتيها في التراب بجانب الجسد الذي يتدلى برقة من عمود
التلغراف عند خط السكك الحديدية. بين نشيجها لفظت لاهثة ببعض
الكلمات إلى ظهور الناس التي تختفى. وصاحت: "كان محقا، لقد كان
ينطق بالحقيقة".

ناظر المحطة رفض الأمر لاعنا واستدار ليعود إلى داخل مسكنه
الظليل. كان متعبا ويحتاج إلى الراحة.

مسرد بالكلمات الغربية

أمير : تستخدم أيضا لتشير إلى قائد بالمعنى العسكرى .

البركيت : نوع من أنواع البيغاء صغير وهزيل .

عنجريپ : سرير تقليدى من الخشب، مربوط بأحبال من سعف النخيل .

أنصار : تابعو المهدي المخلصون، أطلق الاسم فى الأصل على أتباع الرسول من المدينة .

عصيدة : نوع رئيسى من الثريد المصنوع من دقيق السرغوم .

باش - بوزوك: كلمة تركية تعنى "المستقلين"، توضح أهمية وحدات الفرسان غير النظامية للإمبراطورية العثمانية، يخشاهم الناس جدا لوحشيتهم .

فاجو : جنور مثل الفجل تنمو ويمكن أكلها .

جوراسا : طعام رئيسى يشبه الفطيرة المحلاة مصنوع من دقيق القمح .

جلابة : كلمة تشير إلى التجار العرب فى جنوب السودان .

جهادية : عبيد تتم مصادرتهم من جانب التجار ويجندهم المصريون
فى الجيش من أجل الخدمة العسكرية .

جوبا : قميص قطنى طويل وفضفاض .

كمنجا : كلمة عامية لنوع محلى من الحشيش .

معلش : لا تهتم .

مشربية : حاجز خشبى محفور يستخدم عادة فى الشرق الأوسط
ليغطى النوافذ .

مريسة : شراب متخمّر مصنوع من سرغوم الذرة .

أومبية : بوق كبير مصنوع من سن الفيل .

راكوبا : مأوى بسيط يشبه الفراندة مغطى بسعف النخيل ملحق
بجانب المنزل .

سانجاك : رتبة عسكرية تركية - ضابط مساو لنقيب .

شلالى : شخص من منطقة شلال فى النوبة .

شين : قبيح .

سردار : رتبة عسكرية تركية تساوى حاكم .

سورة : اسم يطلق على فصول القرآن .

المؤلف فى سطور:

جمال محجوب

ولد فى لندن عام ١٩٦٠، انتقلت أسرته إلى ليفربول عام ١٩٦١، ثم إلى الخرطوم. عاد محجوب إلى إنجلترا عام ١٩٨١ ليدرس الجيولوجيا بجامعة شيفلد. وفى عام ١٩٨٩، صدرت روايته الأولى "إبحار صانع مطر" عن دار هينمان. وفى عام ١٩٩٣، فاز بمسابقة الجارديان/ هينمان للقصة القصيرة. روايته الثانية "أجنحة التراب" صدرت عام ١٩٩٤ عن دار هينمان. (صدرت عن المركز القومى للترجمة تحت عنوان "أجنحة الغبار").

نشرت روايته "فى ساعة العلامات" للمرة الأولى عام ١٩٩٦، عن دار هينمان.

بزغ محجوب كزعيم لمجموعة من الكتاب الشباب الذين ينقبون فى ثقافات عديدة لإثراء عالمهم الإبداعى.

المتريمة فى سطور:

راشدة رجب

* مواليد الإسكندرية ١٩٧٠ .

* حاصلة على ليسانس الألسن - قسم اللغة الإنجليزية - جامعة

عين شمس ١٩٩٢ .

* حاصلة على دبلوم الدراسات العليا للنقد الفنى - أكاديمية

الفنون ١٩٩٥ .

* تعمل كصحفية منذ عام ١٩٩٢، ولها عديد من المقالات بالأهرام

ويكى والقاهرة .

* ومجلة الأهرام العربى والإصدار الأول من جريدة الدستور

وجريدة الأهالى وموقع إسلام أون لاين.

المراجع فى سطور:

د. يسرى إبراهيم

* ولد فى مدينة قليوب بمحافظة القليوبية فى الثانى عشر من مايو عام ١٩٥٤م.

* حصل على درجة الليسانس فى الفلسفة بتقدير جيد جدا مع مرتبة الشرف من كلية الآداب جامعة عين شمس عام ١٩٧٦م.

* حصل على درجة الماجستير فى "فلسفة الأخلاق عند الفيلسوف الألمانى نيتشه" بتقدير ممتاز من جامعة عين شمس عام ١٩٨٤م.

* حصل على درجة الدكتوراه فى "فلسفة الأخلاق عند الفيلسوف الأمريكى رويس" مع مرتبة الشرف الأولى من جامعة عين شمس عام ١٩٨٩م.

* حصل على جائزة البحوث الممتازة من جامعة عين شمس عام ١٩٩٢م.

* قام بالتدريس بقسم الترجمة بالجامعة الأمريكية بالقاهرة منذ عام ٢٠٠٧ حتى عام ٢٠٠٩م.

* يعمل مدرسا بقسم الفلسفة بكلية الآداب - جامعة عين شمس.

من أهم مؤلفاته:

"نيتشة عدو المسيح"، "العقل الأمريكى"، "العقل الإغريقى"، "دراسات فى الفكر المصرى القديم".

التصحيح اللغوى: نعيمة عاشور

الإشراف الفنى: حسن كامل

سودان القرن التاسع عشر؛ الغارق في الاختلافات الدينية والثقافية والسياسية، يحيا من جديد في رواية جمال محبوب الرائعة.

مجموعة متنوعة من الجنود والزاهدين والقوميين والساخرين. عرب وأوروبيون، مسلمون ومسيحيون بعضهم حكيم، ومعظمهم مضلل، يؤدون أدواراً صغيرة في صراع كبير، قليل منهم يدركه. وبينما يعلو صخب الحرب ليصم الآذان، تنطلق الرواية نحو نهاية مرضية وصادمة جداً في آن واحد.

رواية تاريخية بديعة ومثيرة، تحكى عن تاريخ جزء مهم من وطننا في فترة حساسة من تاريخه، ولا غنى عن قراءتها بالنسبة إلى القارئ العربي.